شخصيات أفريقية في السياسة والفن

عايدة العزب موسى

الأعمال الخاصة

مكتبة الأسرة 2000

مهرجان القراءة للجميع 2000 عشر سنوات

الهيئة المصرية العامة للكتاب

شخصيات أفريقية
فى السياسة والفن

لوحة الغلاف

اسم العمل الفني: النجاشي

التقنية: زيت على قماش

المقاس: ٥٠×٧٣ سم

محمد ناجي (١٨٨٨-١٩٥٦)

مصور مصري، من جيل الرواد الذين وضعوا أساس النهضة الفنية الحديثة، .. يميل إلى ربط ماضي مصر الفني القديم بالحاضر الآني المعاش؛ مع شغف ووله بالطبيعة، وقد استلهم فكرة الجداريات المصرية القديمة، فتميزت لوحاته بشفافية اللون مع قوة التركيب ودقة التوازن.

تعتبر لوحاته عن الحبشة من أروع وأجمل ماأبدع،.. ولوحة الغلاف ماهي إلا واحدة من تلك اللوحات.

عمل الفنان مديراً للأكاديمية المصرية في روما، وملحقاً ثقافياً لمصر في إيطاليا١٩٤٧، ودعا إلى إنشاء أتيليه الأسكندرية ١٩٣٢، وإلى إنشاء أتيليه القاهرة وانتخب رئيساً له ١٩٥٣. وقد أقام في قرية (القرنة)، ثم رحل إلى الأقصر، وتوفي بمرسمه في ضاحية الهرم، وصار مرسمه في الهرم متحفاً خاصاً بأعماله.

محمود الهندي

شخصيات أفريقية

فى السياسة والفن

عايدة العزب موسى





مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٠

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الخاصة)

شخصيات افريقية

فى السياسة والفن

عايدة العزب موسى

الغلاف

والإشراف الفنى:

الفنان : محمود الهندى

المشرف العام :

د . سمير سرحان

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة الإدارة المحلية

وزارة الشباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم

«كتاب لكل مواطن ومكتبة لكل أسرة» تلك الصيحة التى أطلقتها المواطنة المصرية النبيلة «سوزان مبارك» فى مشروعها الرائع «مهرجان القراءة للجميع ومكتبة الأسرة» والذى فجر ينابيع الرغبة الجارفة للثقافة والمعرفة لشعب مصر الذى كانت الثقافة والابداع محور حياته منذ فجر التاريخ.

وفى مناسبة مرور عشر سنوات على انطلاق المشروع الثقافى الكبير وسبع سنوات من بدء مكتبة الأسرة التى أصدرت فى سنواتها الست السابقة «١٧٠٠» عنواناً فى حوالى «٣٠» مليون نسخة لاقت نجاحاً واقبالاً جماهيرياً منقطع النظير بمعدلات وصلت إلى «٣٠٠» ألف نسخة من بعض إصداراتها.

وتنطلق مكتبة الأسرة هذا العام إلى آفاق الموسوعات الكبرى فتبدأ بإصدار موسوعة «مصر القديمة» للعلامة الاثرى الكبير «سليم حسن» فى «١٦» جزءاً إلى جانب السلاسل الراسخة «الابداعية والفكرية والعلمية والروائع وامهات الكتب والدينية والشباب» لتحاول أن تحقق ذلك الحلم النبيل الذى تقوده السيدة: سوزان مبارك نحو مصر الأعظم والأجمل.

د. سمير سرحان

تقـــــديم

حاولت فى هذا الكتـــاب ـ وأرجـو أن أكون قد وفقت ـ ان ألقى بصيصا من الضوء على بعض الشخصيات الافريقية ٠ لا أدعى انى وفيت بكل تفاصيل حياتهم أو مسيرة نضالهم وكفاحهم ، أو أن اختيارى لهم كان أنهم أفضل من غيرهم ، وانما جاء الاختبار لظروف فرضها الواقع الافريقى واستوجبتها الأحداث ٠

بعضهم كان اختيارهم لأنهم يرمزون لعادات وتقاليد وطقوس نتعرف منهـــا على التاريـخ الخفى للمجتمعات الأفريقيـــة كالكاباكا ، وبعضهم شخصيات أفريقية بيضاء مثل الكاتبة الأدبية « نادين جولديمر » الحاصلة على جـــائزة نوبل ، والبعض أفارقة الأصـــل والجذور ولكنهم لم يروا أفريقيا ـ مثل الموسيقى صـــمويل ريلدج ، وبعضهم قسيسون وأدبـاء وروائيـون ٠

وقد يكون من غير المنطقى أن يتصدر موضـــوعات الكتاب ، كتاب « عبء الرجل الأسود » لرجل غير أفريقى هو المؤرخ البريطانى الشهير « بازيل ديفيد سون » الذى وهب نفسه للكتابة عن أفريقيا وكرس حياته للغوص فى أعماقهـــا ، وأنارت كتـــاباته دروبـــا فى هذه القارة البائسة ٠ وأشهد ان كتابه الذى أصدره فى نهاية الخمســـينات « أفريقيا تحت الأضواء » غير مسار حياتى ٠ حفزنى الكتاب عندما قرأته أن التحق بمعهد الدراســات الافريقيـــة الذى حدد لى بعدها طريقى المهنى فتخصصت فى الكتابة عن أفريقيا ٠ وتقمصتنى روح أفريقيا وانشغلت بها وتوحدت معها ، وكما قال « دى بوا » أبو الجامعة الافريقية « لقد سيطرت أفريقيا على ٠٠ أنها ليست بلدا ٠٠ انها عالم متكامل ٠٠ عالم خاص بذاته ولذاته وشيء مدهش ورائـــع ٠٠٠ ان أفريقيـــا هى الحدود الروحيـــة للجنس البشرى » ٠

بددت كتابات « بازيل ديفيد سون » ما قاله الأوربيون الأوائل من ن أفريقيا لم تكن الا قارة مظلمة فتتت قواها القبليـة المفترسـة ، وانها لم تخلق آدابا تميزها ولا فنـونا تصـورها ولا صـناعة • وجاء « بازيل ديفيد سون » يسوق الدليل تلو الدليل يبدد هذا الزعم الخاطىء ويقيم دلالات مقنعة ومثيرة لم تعرض بهذا الشمول والوضوح من قبل عن الحضارة الافريقية •

كذلك اخترت ان انهى الكتاب بشخصية أخرى بريطانية الأصل أيضا هو « هوبكنز » الاقتصادى الشهير الذى أصدر أهم الكتب فى تاريخ أفريقيا الحديث « التاريخ الاقتصادى لأفريقيا الغربية » ، سجل فيه بالتفصـيل جريمة تجارة الرق أبشـع جريمة فى تاريخ البشرية ، وهى التى كانت كارثة مدمرة لأفريقيا ، فقد أحدثت حملات اقتنـاص الرقيق دمارا واسع النطاق وزادت من الحروب والتمزق والاضطرابات فى المجتمعات الافريقية ، وأفقدت الحياة أمنها ، وكانت الخسـائر المباشرة والأشد قسوة هى المعاناة الشخصية التى كابدها الملايين من أبنـاء القارة الذين شحنوا قسرا وكرها عبر المحيط أو الذين قتلوا أو أصيبوا فى غمار عمليات صيد الرقيق • فى حين ان هذه القوة البشرية الكبيرة التى اقترنت هجرتهـا بالاكراه والقهر هى التى عمرت العـالم الجديد فى الأمريكتين ، وقامت بعبء تنمية مواردها وجعلتها أغنى مناطق العالم وأقواها دون أن يكتسب الرقيق أية حقوق •

لقد شئت ان أختم الكتاب بعـرض كتاب « هوبكنز » وهو ان كان يخرج قليلا عن السياق ، فهو ليس عن شخصية أفريقية محددة وانما عن جموع العبيد الأفارقة وما لا قوة من قهر ، ومدى الظلم والمعاناة والاتهامات الباطلة التى دمغت بها المجتمعات الافريقية التى لم تكن تعانى عجزا خاصا أو بلادة مزمنة كما يشـاع عنها ، ولم يكن أبناؤها دون المستوى العقلى أو كانوا ذوى طبيعة كسولة خاملة ، ولكن الظروف القاسية التى واجهوها وعانوها هى التى أدت الى حالة البؤس التى تعيشها القارة اليوم • فقد يكون هذا درسا يستطيع الحاضر ان يتعلمه من الماضى •

وقد صنفت شخصيات الكتاب فى ثلاثة أقسام ، الأول عن قادة وزعماء بعضهم حكم بلاده وبعضهم قاد شعبه ولم يصـل الى السلطة ، والقسم الثانى عن فنانين وقسيسين وأدباء وروائيين ، والقسم الثالث اختصصت به سجين الحرية « نلسون مانديلا » وهو فى نظرى يكاد ان يكون أهم شخصية فى تاريخ أفريقيا الحديث فى الخمسين سنة الماضية • ولم أركز على دوره النضالى فقد كتب عنه الكثير وفضلت ان أقدمه من

جانبه الانسانى ليس كزعيم فحسب بل انسان يحب ويعشق ويتزوج ، فكان الفصل الأخير عن الحب والنســـاء فى حياة مانديلا وعن زوجتيه وينى وجراســا ٠

اننى أقدم هذا الكتاب الى القــارىء ليكون بمثابة فاتح لشهيته الثقافية والمعرفية وليتولد لديه الشعور بالحاجة الى معرفة المزيد ، فنحن أبناء هذه القارة وأصولنا الحضارية يعود اليها ، وجذورنا الفرعونيـــة مستمدة منها ، والنيل ليس ماء فقط يأتينا من الجنوب ولكنه ولا يزال معبر وفود الينا وتيار تدفق حضارى وانسانى ٠

عايدة العزب موسى

الجــزء الأول

زعمـــاء وقادة

عبء الرجل الأسود

المهتمون بالشئون الافريقية يعرفون قدر المؤرخ البريطاني الشهير بازيل ديفيدسون ومؤلفاته القيمة عن افريقيا ، وكتاباته العديدة المتنوعة التي أنارت دروب هذه القارة المظلمة ، التي اشتدت ظلاما بعد ثلاثة عقود من الاستقلال · وكتاب « عبء الرجل الأسود ولعنة الدولة القومية » آخر أعمـــال هذا المؤرخ العظيم يعــد من أهم الكتب التي تثري قارئه ، يقول مؤلفه « ما أريد ان يصنعه هذا الكتاب هو أن يولد الجدل الذى يتعين علينا ان نفكر فيه بجدية بالنسبة لجذور مشاكل أفريقيا » ·

الكتاب خلاصة خبرة ٤٠ عاما من البحث والتنقيب فى تاريخ أفريقيا لرجل مجرب وخبير وودود ، رجل عجوز أمضى حياته كلها فى الترحال عبر افريقيا يقرأ ويفكر ويكتب ، وهو مكتوب بحمية نادرة وباستبصار فريد خليق بأن يثير فينـــا حوارات مهمة فهو من أكثر الكتب تحليلا للأوضاع السياسية والاجتماعية فى أفريقيا ومن أهمها ، يتغلغل فى جذور مشاكلها يطرح تساؤلات ويقدم اجابات ويعلق الحلول فى رقاب الجميع ·

وبازيل ديفيدسون هو أيضا محلل سياسى معروف فى الثمانينـات من عمره كتب الكثير عن تاريخ أفريقيا قديمه وحديثه · وله ٢٦ مؤلفا عن هذه القارة المظلومة التى كرس حياته للغوص فى أعماقها والكتابة عنها بشكل مستقل ومنحاز لها · فهو ليس مؤرخا تقليديا ولكنه صال وجال فى ربوع القارة وكتب عنها بتعاطف شديد ، انه يعد أول مؤرخ أوربى يكتب بطريقة ايجابية عن الأفريقيين وتاريخهم ، فى الوقت الذى لا يرى المؤرخون الأوربيون التقليديون شيئا فى افريقيا الا تاريخ الأوربيين فيها ، ويمكن أن يضيفون اليه بعض تاريخ العرب فيها ، أما الأفريقيون فى نظرهم فليس لديهـم تاريـــخ ، ولكن بازيل رأى الأمور بشكل مختلف ونذر نفســه لهذه المهمة ·

ومعرفة بازيل ديفيدسون بافريقيا أتت بطريق المصادفة ، ففى خلال الحرب العالمية الثانية كان في طريقه لينضم الى وحدته العسكرية فى

القاهرة • وتعطلت طائرته فى مكان ما بشمال نيجيريا فى نقطة غير معروفة ، يقول « هبطت الطائرة فى صحراء مسطحة ليست بذات خصائص ولا سمات محددة وأشار لى الطيار الشاب الذى كان معى الى مكان بعيد وقال هناك كانت منذ ٥٠٠ عام مدينة أفريقية كبيرة لم يسمع عنها أحد اسمها كانو ، وتأكدت بعد ذلك أنه مضى عليه ٧٠٠ عام أو أكثر ، وعرفت من يومها أن لأفريقيا تاريخا ومن المحتمل ان يجد الانسان اذا بحث شيئا عنها ، وأمضيت أمسياتي باحثا ومنقبا عن آثار هذه المدينة •

ومنذ ذلك الوقت عكف ديفيدسون على دراسة تاريخ أفريقيا وبدأ يحفر فى ماضى افريقيا الذى كانت كل النظريات تقول انه ماضى غير موجود ، واكتشف بازيل حضارات عظيمة وحضارات تطورت كانت موازية لغيرها من الحضارات التى قامت فى العالم •

وكتاب « عبء الرجل الأسود » يبحث فى جذور الوهن الافريقى وعدم استجابة القارة لتحديات التغيير والتطور وهو يطرح تساؤلات مهمة : لماذا افريقيا صارت أكثر فقرا عما كانت عليه يوم الاستقلال ؟ ولماذا الأفريقيون يبدون غير قادرين على العمل معا جنبا الى جنب ؟ ولماذا الانقلابات العسكرية والحروب الأهلية وقتل المدنيين الأبرياء بلا تمييز ، والفساد والوهن الجارى من مدد طويلة ؟ ولماذا يبدو الافريقيون انهم اناس يستغيثون فى طلب النجدة والمساعدة من الخارج سواء كانت هذه المساعدة طعاما أو وسائل لمقاومة الجفاف والمجاعة وانهيار الانتاج الزراعى أو أسلحة للتدمير والقتل بعضهم بعضا أو لدعم موازين مدفوعاتهم أو لتفادى الافلاس أو الانهيار الاقتصادى •

ان الفرضية الأساسية التي يقدمها ديفيدسون فى كتابه هذا هى أن الأفكار الغربية حول القومية والدولة القومية والسيادة تشكل العمود الفقرى للوهن الافريقى ، فهو يرى ان هذه المفاهيم غير ملائمة لافريقيا لأنها انبعثت من البقايا المتتالية للعبودية والاستعمار ، ومنذ القرن التاسع عشر تغيرت المفاهيم الأوربية التى يرغب الأفريقيون فى تقليدها الآن • ان الثورة الصناعية وعالمية التجارة وتكنيك الادارة والتنظيم أدى الى تغيرات خطيرة فى المفاهيم الغربية ووضعت قيودا عليها ، فلماذا يتبناها الافريقيون ؟!

اعادة أسر العبيد لثقافة المستعمر

يضع بازيل ديفيدسون اللوم في هذا على عاتق من يسميهم « ريكابتف » اى العبيد الذين اعيد أسرهم ، فمن هم هؤلاء ؟ يعرفهم بانهم العبيد الذين أعاد البريطانيون أسرهم بأفكارهم الغربيه التي لا تصلح لواقع أفريقيا ، العبيد الذين افتنصوا من السفن المتجهه الى الامريكتين عندما قررت بريطانيا الغاء تجارة الرقيق ، وهؤلاء كانوا مختلطين بعضهم جاء من غرب افريقيا والبعض من شرق القارة والبعض من مناطق أخرى ويصفهم الكاتب بقوله « هم افريقيون تماما حسب أصلهم ولكنهم انفصلوا عن أفريقيا بتجربة حادة من تجارب الاغتراب • لقد أسلمتهم أفريقيا الى العبوديه وأعادتهم أوربا وبخاصة انجلترا الى العبودية مرة أخرى بعد ان تحولوا الى المسيحية بنشاط حملات التبشير في القرن ١٩ ، هؤلاء الضحايا المحررون أو المعاد أسرهم حسب تسميته نظروا الى بريطانيا باعتبارها مخلصهم ورسول الرعاية الالهية والرحمة ثم أرجعوا الى أفريقيا وترابطوا جنبا الى جنب حول مدينة فريتاون (عاصمة سيراليون الحالية) في الساحل الغربى لأفريقيا مصممين على بدء حياة جديدة وألقوا بأنفسهم في مجال الأعمال والادارة وصاروا من البرجوازيين البالغى الثراء ، وذهب بعضهم الى بريطانيا للمزيد من الدراسة والبحث ، هؤلاء القوم لا يعرفون شيئا عن داخل أفريقيا ولا يهتمون بمعرفة شيء عن هذا الداخل ، ونظروا الى أنفسهم وكلاء التغيير باعتبار أن أفريقيا تحتاج لكل أشكال التحضر والمدنية على الطراز الغربى ، وان الافريقى لكى يكون متمدينا عليه أن يتوقف ان يكون افريقيا اى يتخلص من افريقيته ».

العادات القبلية عقبات ضد التحرر

انبثق عن هذا الاغتراب والتعليم الغربى نمطان من الوطنيين ، النمط الأول يتكون من الرؤساء والملوك الذين بقوا يؤمنون بالتقاليد الافريقية رغم اكتسابهم علم الغرب ، وهم من أطيح بهم في النهاية • والنمط الثانى أنصار الحداثة الافريقيون المتعلمون في الغرب الذين يرون أنفسهم انهم الوارثون الحقيقيون للحكام الاستعماريين وهم من فرضوا سيطرتهم على الحكم كالرؤساء الأوائل من أمثال د • باندا في مالاوى وسنجور في السنغال وهوفيه بوانييه في ساحل العاج وحتى جوموكينياتا الذى كان كل ما يصبو اليه ان تمارس كينيا الحكم الذاتى في الكومنويلث البريطانى شأنها شأن كندا ونيوزيلندا •

وهؤلاء المتعلمون في الغرب أنصار الحداثة يميلون لقبول الحلول الغربيه للمشكلات الافريقية ، وتقبلوا المفاهيم الاوربيه للدولة القومية والسيادة" واعتقدوا ان هذه المؤسسات هي المناسبه للافريقيين المعاصرين ليتعاملوا مع مشاكل العصر ." وكانوا ناقدي الصبر للتقاليد الافريقيه ولاي شكل يتعلق بالعادات القبلية واعتبروها عقبات في تحرر أفريقيا " واعتقدوا ان مستقبل افريقيا يجب ان يستند على النظريات الاوربيه وان يستهدي بخبرات التاريخ الأوربي وكل ما كان ينشده هؤلاء بمناداتهم بالقوميه ان يحلوا محل الحكام الاستعماريين ." ولكنهم ما أن يصلوا الى السلطه ويجدوا أنفسهم وسياساتهم تواجه تحديا مع ممثلي تلك التقاليد وجموع الشعب العادي ما أن يحدث ذلك حتى تجدهم لايترددون في الهجوم والادانة والاعتقالات وصاروا يقمعون غيرهم ويضطهدونهم مثل خلفائهم سادة الاستعمار ويلجأون أيضا الى قاعدة فرق تسد . وكذلك فعل المثقفون والعلماء أنصار الحداثة صاروا يتغافلون عن حاجات الجماهير وبدلا من أن ينصرفوا الى الدراسات المفيدة لهذه الاحتياجات لمجتمعاتهم صاروا مهمومين بالمناقشات والمجادلات الفلسفية والايدلوجية بغير أهداف الا ان يكونوا تحت الأضواء في مجالات الايدلوجية الدولية .

ان معظم القادة القوميين الافريقيين يعتقدون ان ما هو مطلوب لاظهار منجزات الاستقلال هو صبغ التراث الاستعماري بالصبغة الديمقراطية على النمط الغربي ، وهذا ما أفشل الدولة القومية الافريقية اذ ابتعدت تماما عن تقاليد وطموحات وامكانيات مجتمعاتها . لقد فشلت الدولة القومية في الدور التاريخي الذي افترضته لنفسها في افريقيا ، وفقدت شرعيتها السياسية وكفاءتها الاقتصادية وأصبحت الجماهير الافريقية في ظلها يفرون من الجوع والبطالة والقمع والاضطهاد التي تتسبب فيه حكوماتهم (مثلما نشاهده اليوم في الحزام الافريقي الذي يمتد من كينيا والصومال شرقا حتى زائير غربا) واتسعت الهوة بين الحكام والمحكومين .

تحديات افريقيا الجديدة

والآن بعد أربعة عقود من الاستقلال تواجه افريقيا وضعا جديدا من الحقائق الداخلية والعالمية . لقد فشل أنصار الحداثة في تحقيق أهدافهم . . ومن الناحية الاقتصادية صارت افريقيا أكثر فقرا مما كانت عليه في فجر الاستقلال . وزاد الشعور بفقدان الأمن الجماعي في كثير من الأقطار الافريقية ، وانكمش اقتصادها وصارت كثير من المجتمعات

الافريقية متصدعه ومهددة من حيث الأمن والنظام • وانغرس الخوف في كل فرد من الرئيس فما دونه ، فالرئيس يخاف الشعب لأنه يمكن ان يصوت ضده أو يقصيه ، والشعب يخاف من الرئيس لأنه يمكن ان يعصف به أو يسجنه أو يقتله ، والشعب يخاف من جبروت الشرطة بسبب عدم الاستقرار وعدم الأمان تخاف الشعب ، والجيش يتهدده الانقلابات وهكذا لم تعد السيادة مقدسة ولا محترمة وهذه هي الحقائق الصماء •

أما على المستوى العالمى فان انتهاء الحرب الباردة وانهيار الاتحاد السوفيتى أفرز أوضاعا جديدة ، فما سمى بالنظام العالمى وضع حقائق مغايرة وفق نسق مختلف ، فالمنافسة في التجارة الدولية حلت محل السياسات والايدلوجيات فى التعامل • انه نظام يقوم على الاقتصاد الحر والمشروع الخاص والتكتلات الاقتصادية والأسواق المشتركة وعالمية شبكات الاتصال ، عالم يعتبر النمو الاقتصادى هو الملك والرأسمالية هى المملكة فماذا تستطيع أفريقيا ان تصنع فى مواجهة هذه التحديات الجديدة ؟ انها تستنجد بأمريكا وأوربا من أجل المساعدة والارشاد •

دروس للتعلم

ومع كل هذا الضباب الذى يغلف القارة الافريقية ، فان بازيل ديفيدسون ينهى كتابه بنظرة متفائلة اذ يقول ان انقضاء أربعة عقود من الزمان لايمكن اعتبارها فشلا عاما وكبيرا للقارة الافريقية ، أو انها مضت بغير شيء نافع لابنائها ولا يمكن انكار ان أفريقيا ارتكبت كثيرا من الأخطاء ولكن كيف يمكن للافريقيين ان يتعلموا ان يصنعوا الصواب بغير التجارب والمجادلات ، ان المطلوب الآن هو الطاقة والارادة السياسية لتوحيد المكاسب الايجابية التى تفيد فى تنمية أفريقيا والتى لاتختلط بمطالب تغيير تناسب فقط الحكام السائدين • وعلى القارة ان تنظر الى ماضيها برغبة التعلم من دروس الماضى الايجابية فهناك دروس كبيرة يمكن ان تتعلمها حتى من خلال فترات الاستعمار وما بعد الاستقلال اما القاء اللوم على الاستعمار الجديد والامبريالية فلن يحل أى مشكلة من مشاكلها •

تلك خلاصة خبرة ٤٠ عاما من البحث والتنقيب فى تاريخ وأوضاع أفريقيا سجلها بازيل ديفيدسون فى كتابه الرائع « عبء الرجل الأسود ولعنة الدولة القومية » •

نيريرى ملك الحكمة

توفى فى مستشفى سان توماس بلندن فى ١٤ أكتوبر ١٩٩٩ ، الرئيس التانزانى السابق « جوليوس نيريرى » عن عمر يناهز ٧٧ عاما • ونشر خبر وفاته فى أسطر قليلة لا تتناسب مع دور هذا الزعيم الأفريقى العظيم الذى يعد بحق من أبرز زعماء الاستقلال الوطنى والتنمية الشعبية فى أفريقيا • وسوف يذكر فى تاريخ أفريقيا الحديث بأنه أبو الأمة التانزانية ، كان بطلا ورجل دولة وصانع سلام ومثقفا وعملاقا بكل المقاييس •

أطلق عليه شعبة « الفيلسوف ملك الحكمة » وأحبه الناس خارج بلده بمثل ما أحبوه فى داخلها ، فهو شخصية كاريزمية اهتمت بالجانب الأخلاقى فى التصرفات والسياسات بشكل متفرد ، وقاد على مدى ٢٤ عاما أكبر دولة فى شرق أفريقيا وتنحى عن السلطة طواعية وبارادته عام ١٩٨٥ • ورغم اعتزاله الحكم ظل يسيطر على العقل الجماعى للتانزانيين ولأهالى شرق أفريقيا مدة ١٥ سنة أخرى تلت ابتعاده حتى رحيله •

وعلى مدى حياته كلها كان رجلا بسيطا وكان واحدا من الرؤساء الأفريقيين القلائل الذين تركوا السلطة بارادتهم ، رغم انه كان مدركا ان من سيخلفونه ليس لدى أى منهم كفاءته القيادية ولا شخصيته الكاريزمية ، استقال وذهب الى مزرعته المتواضعة فى بوتايااما واستمتع بالزراعة وبأن يلعب دورا فى الحياة الريفية ، وبقى تحت الطلب باعتباره رجل دولة عالميا ووسيطا فى المشاكل الأفريقية والدولية •

والسؤال الذى يحتاج الى اجابة كيف استمر نيريرى يحوز هذه المنزلة المبجلة طوال سنوات حكمه وما تلاها • الاجابة ببساطة انه على خلاف الحكام الأفارقة التقليديين لم ينهب ثروة بلاده • وعاش حياة تتصف بالتقشف ولم يغير منزله البسيط فى دار السلام طوال سنوات رئاسته التى استمرت ٢٤ عاما • وثانيا أنجز الوحدة الوطنية لتانزانيا ،

فرغم وجود ما يبلغ ١٢٠ شعبا مختلفا استطاع نيريرى ان يربط بينهم وجعلهم شعبا متلاحما يشكل واحدا من أقوى الأمم فى القـارة ، واليوم فان شعب تانزانيـا يتكلم لغـة واحدة هى (السواحيلى) وتنـدر فيه التوترات القبلية والعشائرية التى تعم شعوب القارة من مشرقها لمغربها ، وذلك بفضل روح « الأندوجو » أى الأخوة التى اشاعها نيريرى ، وهذا ما بوأه مكانة أبى الأمة ، وظلت المحافظة على الوحدة والاستقرار هى مهمته الأولى • وثالثا آقام وحدة بين بلده تنجانيقا وجزيرة زنجبار ودمجهما فى بلد واحد يحمل اسم جمهورية تانزانيـا ، وتكاد تكون هذه هى الوحدة الوحيدة التى تمت فى أفريقيـا واتسمت بالاستمرارية • ورابعـا استطاع أن يسيس جيش تانزانيا وحمى بلده من الانقلابات العسكرية • وخامسا قام بدور الوسيط فى الكثير من المنازعات فى منطقة البحيرات الكبرى بوسط أفريقيا •

ونيريرى من قبيلة زاناكى ، وهى من أصغر قبائل شمال تنجانيقا ، وكان والده زعيما لهذه القبيلة الصغيرة الفقيرة ، وظل نيريرى يرعى غنم أبيـه حتى سن الثانيـة عشر عندما قرر والده أن يعلم ابنه • وفى المدرسة الابتدائيـة أبدى ذكاء وفطنة لفتت انتبـاه أساتذته وحثوه على مواصلة الدراسة الثانوية فى مدرسة سان فرانسيس فى دار السلام ، ثم التحق بجامعة ماكريرى حيث حاز على دبلوم التدريس ، ثم سافر الى بريطانيا ليصبح الطالب الأفريقى الأول من شرق أفريقيا الذى درس فى جامعـة أدنبرج •

فى بريطانيا أثارت دراسته والاقامة فيها فترة من الوقت اهتمامه بالاشتراكية الفابية الانجليزية (اشتراكيـة حزب العمال البريطانى) وشغلت المحور الأساسى فى تفكيره ، وتأثر بأفكار الزعيم الهندى المهاتما غاندى وخاصـة تعـاليمه فى التصـدى للاستعمار بالمقاومة السلبية واللاعنف • وهكذا امتزجت الفابيـة والغاندية برؤى وأحـلام الشاب الأفريقى لتشـكل معـا الموقف الفكرى لنيريرى ولتكون دليله النظرى لتحقيق أحلام الفردوس الأفريقى فى تانزانيا • وقد تبلور هذا الموقف الفـكرى فيما عرف بنظرية « الأوجاما » وهى الاشتراكية على الطريقـة الأفريقية المرتكزة على القرى الجماعية والاعتماد على الذات فى التنمية •

تاريخـه السـياسى

فى بداية الخمسينات أسس مجموعـة من الضباط الاستعماريين جمعية فى تنجانيقا سميت « جمعية تنجانيقـا الأفريقيـة » لكى تكون

منتدى للحوار للأفريقين · واهتم نيريرى بهذا الأمر وانضم اليها وشكل فرعا لها وصار رئيسه ، وقد نظر نيريرى لهذه الجمعية باعتبارها خطوة في طريق تكوين حزب حقيقي ·

وفي اليوم السابع من الشهر السابع (٧ يونيو) عام ١٩٥٤ أسس نيريرى حزب الاتحاد الوطنى الافريقى لتنجانيقا (حزب التانو) وصار أول رئيس له · وفي عام ١٩٥٩ ثار الشعب التنجانيقى كغيره من دول القارة مطالبا بالاستقلال ولكن الحكومة الاستعمارية في ذلك الوقت كانت تشعر بأن الأفريقيين غير مؤهلين لهذا المطلب فوضعت نظاما معقدا للاستفتاء على الاستقلال بغية حماية الأقليات ، فخصصت عشرة مقاعد لكل من الأفريقيين والأوربيين والأسيويين وكل صاحب صوت ايا كان لونه عليه أن يصوت لشخص واحد من هذه الجماعات العرقية ، ورغم وجود المرشحين الآسيويين والأوربيين فان الكل أيد حزب تانو ·

لم يعارض نيريرى السلطات الاستعمارية في طريقة هذا الانتخاب الذى يؤكد على الأقليات ولكنه أصر أن تكون الانتخابات القادمة بالاقتراع العام وبغير تمييز عرقى أو قبلى أو عقيدى ·

وفي العام التالى في أغسطس ١٩٦٠ جرت الانتخابات بطريقة مباشرة حيث حصل حزب التانو على ٥٨ مقعدا من مجموع ٧١ مقعدا · وفي أكتوبر من العام نفسه أعطيت البلاد حكما ذاتيا وأصبح نيريرى زعيم حزب التانو أول رئيس وزراء في البلاد ·

وفي ذلك الوقت كان نيريرى المثالى الحالم مهتما بأن تشارك تنجانيقا استقلالها مع جيرانها في كينيا وأوغندا ، لذلك أخر بارادته اعلان استقلال بلاده ليحصل الآخرون على الاستقلال معا · واحتفلت دول شرق أفريقيا بالاستقلال الذى أعلن في ٩ ديسمبر ١٩٦١ وأصبح نيريرى رئيسا للبلاد · وفي ٢٦ ابريل ١٩٦٤ نجح نيريرى في دمج تنجانيقا مع جزيرة زنجبار في بلد واحد وتمت الوحدة على أساس أن يكون لزنجبار حكم ذاتي ويكون لها رئيس مستقل فضلا عن رئيس الاتحاد · وفي عام ١٩٧٧ صدر دستور الوحدة الذى لا يزال ساريا ·

فلسفة نيريرى

يمكن أن نلخص حكم نيريرى في ثلاثة عناصر أساسية هي الأوجاما ونظام الحزب الواحد وتسييس الجيش وتنوعه ودمجه في المجتمع ·

كانت الاشتراكية بالنسبة لنيريري تعنى تنمية الثروة واصلاح التعليم ورفع مستوى المعيشة للجماهير · وكان هذا يعني ان الاهتمام يجب ان يتوجه الى الاكثر فقرا وهم في المناطق الريفية وليسوا في المدن · وقد رأى انه لا يستطيع أن يستأصل الفقر في بلده المتخلف الواسع الأرجاء بواسطة الوسائل الراسمالية التقليدية ، وهو لم يكن مستعدا لأن يضع تانزانيا تحت نير السيطرة الاقتصادية للاتحاد السوفيتي ، ومن ثم نظر في طريق ثالث وظن أن تانزانيا تستطيع ان تسير في طريق خاص بها باستخدام التعاون والاكتفاء الذاتي مما يتركز على المزارع الريفي ، فابتدع مفهوما جديدا هو الأوجاما اى الأسرية ، وفيها يمكن للفلاحين أن ينتجوا زراعاتهم ويقوموا بالتعليم الابتدائي والخدمات الطبية بالتعاون والاعتماد على النفس · وكانت هذه فكرة ثورية غير مسبوقة في أفريقيا المعاصرة ·

الأوجاما

شرح نيريري معنى الأوجاما بانها تعنى باللغة السواحيلية « الأسرية » أى علاقات الأسرة ذات الجذور العميقة في التقاليد الأفريقية · وبناء الأمة يعني بناء الجماعة بواسطة الروح الأسرية التقليدية · وبناء الأمة يعنى بناء الجماعة بواسطة الروح الأسرية التقليدية · ومفهوم « الأسرية » يتضمن ثلاث خصائص أساسية ، المساواة والتعاون والعمل · فالأوجاما لا تعترف بالطبقات سواء كان التقسيم الطبقي معتمدا على ملكية وسائل الانتاج أو على العلاقات العنصرية ولكنها تؤكد معنى المساواة الانسانية وهي تتطور من خلال جماعية الانتاج وتمجيد العمل وتدين الكسل · ومفهوم الأسرية يضع الفرد في بؤرة اهتمامه وهو لا ينظر للفرد منعزلا عن غيره بل كعضو في الجماعة فيهتم كل برفاهية الآخرين · والفرق بين الأوجاما والاشتراكية الأوربية أن الأخيرة هي وليدة الثورة الزراعية والثورة الصناعية وان الأوجاما تعارض الرأسمالية التى تنشد بناء المجتمع على أساس من استغلال الانسان للانسان · وهي تعارض الاشتراكية بمفهومها السائد الذى ينشد بناء المجتمع على أساس فلسفى يرى حتمية الصراع بين الانسان والانسان · أما الأوجاما فهي « موقفا فكرى » موقف يعترف بالمساواة الانسانية ويتجنب المشاعر الطبقية والاستغلال ويركز على العمل الأخلاقي ، فهي تعلن الحرب على غريزتين انسانيتين غريزة تجميع الثروة والسيطرة على الآخرين من خلالها وغريزة الخمول والتطفل على جهد الآخرين ·

وتمنع تقاليد الأوجاما على القادة تكوين الثروات وامتلاك الأسهم في الشركات الخاصة وامتلاك المنازل بقصد تأجيرها ، وتمنع بوجه عام أن يتقاضى أى فرض في مركز قيادى أى دخل خلاف مرتبه • وقد أظهر العمل فى حزب تانو وقيادات الحكومة أن الأغلبية الغالبة قد التزمت بهذه المبادىء فمن بين ٢٠٣ أعضاء في البرلمان لم يفشل إلا اثنان فقط في مراعاة هذه الضوابط •

وقد تم تأميم المؤسسات الصناعية والتجارية عام ١٩٦٧ كتطبيق لمبدأ الملكية الجماعية والعامة لمصادر الثروة الوطنية وكوسيلة لنزع أية جذور لتطور الطبقة الرأسمالية فى تانزانيا (وقد بدت بعد التأميم بعض ظواهر القصور في تسيير هذه المشروعات فى الانتاج) •

أما قرى الأوجاما فهي الوحدات الجديدة التي يجب أن يتحول اليها الريف اذ تأتى الأسر من عزلتها لتحيا جنبا الى جنب فتعمل معا وتتقاسم ثمار عملها ويقدم الحزب والحكومة الخدمات المختلفة كانشاء المدارس والمستشفيات وشق الطرق وتقديم الجرارات والمخصبات الزراعية وكل الخدمات الأخرى •

ولكن الأوجاما والتعاونيات الزراعية لم تنجح ، فالزراعة فى تانزانيا كغيرها من الدول الأفريقية بدائية ومتخلفة وادخال الوسائل الحديثة والزراعة على المجال الواسع والعمل الجماعي لم يألفه الفلاحون• فالفلاحون يريدون أن يعملوا لأنفسهم ولأسرهم وليس للجماعات الأكثر بعدا نسبيا ولذلك لم يتعاونوا ولم ينتجوا انتاجا متناميا •

وعندما وجد نيريرى انه لا يستطيع أن يقنع الناس بالانتاج الجماعي لجأ الى سياسة استخدام القوة ففرض النظام الجماعي وحاول أن ينتزع مليونى مزارع بالقوة ويدفعهم للقرى الجماعية حيث افترض انهم يمكنهم أن يقوموا بخدمات مركزية بالمساعدة والنصيحة ودفع الناس للعمل فى مزارع الدولة وتأميم انتاج المزارعين •

ولكن كل ذلك فشل فقد كانت الدوافع مفقودة • وكانت البنية التحتية من طرق وجسور ومصادر طاقة مفقودة ، وكان التدريب ناقصا وصارت تانزانيا أكثر فقرا بعد تجربة الجماعيات عما كانت قبل ذلك (وان نجحت فى نشر التعليم الابتدائي والرعاية الصحية) •

يضاف الى ذلك ان الاقتصاد التانزاني حورب بتخفيض سعر البن المحصول الرئيسي للبلاد وعزوف الدول الغربية المستوردة له عن شرائه ، وفرض صندوق النقد الدولى تخفيض العملة التانزانيــة فانهار الاقتصاد الوطنى وفشلت سياسة الأوجاما والسياسات الاشتراكية التى آمن بها نيريرى • وقد اعترف نيريرى بفشله فى تجربته الكبرى قبل أن يترك السلطة عام ١٩٨٥ بمدة طويلة ، كما فشل كل المثاليين أمثاله الذين حاولوا شق طريق ثالث للتطور الاقتصادى • ولم يكن أمام الحكومات المتعاقبة بديل الا أن تبتلع الدواء الذى وضعه صندوق النقد الدولى • وكان تعليق نيريرى « ان صــندوق النقــد الدولى قد صــار بديلا عن الاستعمار الامبريالى ، انه الآن يعتبر أداة الامبراطورية اقتصادية تسيطر على اقتصاديات هذه الدول وسيظهر لدول العالم الثالث يوما انهم ليسوا أحرارا وعليهم البحث عن وسائل أخرى لكفاحهم » وقد صدقت نبوءته •

نظام الحزب الواحــد

ان النظام السياسى يعتبر نظاما جيدا اذا نجح فى أن يقدم أقصى قدر من الاستقرار والوحدة والســلام والأمن فضــلا عن تقديمه درجة مقبولة من مستوى المعيشــة المادى للغالبيــة العظمى من السكان ، وفى الوقت نفسه يحافظ على العدالة والحرية والحق فى ابداء الرأى فى القرارات التى تؤثر فى حيــاة المواطنين ، وان أحسن شكل للديمقراطيــة هو الشكل الذى يمكنه انجاز هذه الأهداف سواء كان حزبا واحدا أو أحزابا متعددة •

وقد اختار نيريرى نظام الحزب الواحد ، وكان هذا هو النظام السائد فى جميع الدول حديثة الاستقلال فى الستينيات ، وفى تصوره ان تانزانيا لا تحتاج بشكل مباشر الى نظام تعدد الأحزاب بقدر ما تحتاج الى تنشيط واسع للتكوين الديمقراطى فى اطار الحزب الواحد مع تبنى سياسات اقتصادية مرنة تتضمن التشجيع المنضبط للمبادرات الخاصة سواء فى المجال المحلى أو المجال الدولى • وهنا يقول نيريرى « أنا لست ضد نظام تعدد الأحزاب ولكن القول بأنه أكثر النظم صلاحية لتانزانيا هو قول فيــه تبسيط شديد لمســألة بالغة التعقيد ، وهو قول ساذج ومضلل • ان نظام تعدد الأحزاب أثبت نجاحه فى البلاد التى تعتمد على قاعدة اقتصادية ثابتة وقوية ، حيث يكون الباعث للعمل السياسى لدى معظــم النــاس هو تحقيق الذات ، أما من حيث يكون الفقر هو القوة

الأساسية التى تدفع للاهتمام بالسياسة فسيكون من الصعب احتمال المعارضة لأن الهجوم هنا لا يكون على آراء الانسان ولكن على حياته نفسها ، وتانزانيا لم تبلغ بعد التنمية الاقتصادية التى تجعل الناس ينجذبون للسياسة بمثل الأهداف الأوربية .

وبالنسبة لتانزانيا فان المحافظة على الوحدة والاستقرار هى المهمة الأولى لأى سياسة ، وأى قرار يهدد الوحدة يتعين الابتعاد عنه ونظام تعدد الأحزاب يحمل بذور تحطيم وحدة الوطن .

ولكن رياح التغيير نحو الديمقراطية اجتاحت أفريقيا فى التسعينات وربطت المعونات الخارجية بالتعددية الحزبية ، وهذا ما أجبر تانزانيا كغيرها من الدول الأفريقية ان تطرح سياسة الحزب الواحد . وفى فبراير ١٩٩٠ – بعد أن ترك نيريرى الحكم بخمس سنوات – دعا نيريرى بصفته رئيس حزب شاما شاما بندوزى (الحزب الوحيد الحاكم) دعا أهالى تانزانيا للمشاركة فى الجدل المفتوح حول موضوع تعدد الأحزاب . ووافقت الحكومة على تعديل بعض مواد دستور جمهورية تانزانيا ليسمح بالتعددية وفتح الباب للتنوع الحزبى ، ولكن المشكل ان غالبية التانزانيين وبخاصة الذين تضمهم شريحة العمر بين ٣٠ – ٤٠ سنة لم يعرفوا قط أى نظام سياسى آخر غير الحزب الواحد ، ومن هنا فان وجدت أحزاب سياسية فى تانزانيا فهى لا تستطيع أن تتداول السلطة مع الحزب الحاكم .

تسييس الجيش وتنويعه

بعد أن تولى نيريرى السلطة بقليل واجه انتقادات تتعلق بقيادته ، وفى ديسمبر ٦٣ استقلت زنجبار وهى جزيرة تقع فى مقابل ساحل تنجانيقا ، وبعد شهر واحد فان حكومتها الأفرو عربية ذات الخبرة أطيح بها وظهرت هستيريا الانقلابات تنتشر على طول شرق أفريقيا . وفى تنجانيقا تمردت كتيبة تنجانيقا الى حد هدد حكم نيريرى ، وقد اضطر نيريرى للاختفاء مدة وكان من الواضح انه مشلول عن اتخاذ أى قرار ، ولم يرغب أن يستدعى القوى الاستعمارية القديمة لتحميه خاصة ان الجنود المتمردين طلبوا شحنات أسلحة من نظام الجزائر الوليد .

ولكن نيريرى سرعان ما ظهر وفصل الكتيبة الأولى من كتائب المتمردين فى تنجانيقا وشكل قوة دفاع شعبية جديدة أحلها محلها ، ثم

أتت العملية السياسية بعدها التي تحول بها الموقف لصالحه · فقد ساعد الساسة في زنجبار على استعادة السلطة ثم ربط زنجبار بتنجانيقا مكونا جمهورية تانزانيا المتحدة تحت رئاسته ·

بعد ما حدثت هذه التمردات في الجيش التي شملت دول شرق أفريقيا كلها في الستينات اضطر القادة الى اعادة التفكير في نمط الجيوش الذي تريده وكيف يمكن منع أحداث اضطرابات تشمل الأمة · وتوصل نيريري الى نظرية تسييس الجيش وتنويعه ودمجه في المجتمع ، فالى جانب الفروع التقليدية للقوات المسلحة : البرية والجوية ، فقد أوجد فروعا جديدة مثل الميلشيات الشعبية والخدمة الوطنية ، وهذه الفروع تعطى تدريبا في القدرة على الهجوم والقتال مما يعنى ان استخدام القوة لم يعد مقصورا على الجنود المحترفين ، وبذلك أصبح من الصعب على فريق واحد من القوات المسلحة أن يقوم بانقلاب ناجح كما ان اجماع الفروع كلها وانتظامها من أجل هذا العمل أمر صعب جدا ·

ثم أقدم على خطوة أخرى وهى عملية تسييس الجيش واندماجه وصار لممثلى الجيش مقاعد في كل مؤسسة حكومية وأعطوا وظائف مدنية ، وبعض المدنيين أرسلوا للحصول على تدريب عسكرى عال وعادوا الى وظائفهم مع صفوف ضباط الجيش ، وبذلك صارت الحكومة مدنية وعسكرية في نفس الوقت · وحتى الآن فان الجنود جميعاهم أعضاء في حزب شاما شاما بندوزى ، ورغم ان نيريرى اقترح – مع النظام الديمقراطي الجديد – أن يسمح للجنود بالاختيار أن يبقوا في الحزب أو ينضموا الى جماعات المعارضة أو ينصرفوا بعيدا عن الانتماءات الحزبية، فهو يرجح أن يظل رجال العسكرية مرتبطين بالحياة السياسية في البلاد · فهذه الطريقة حسب قوله هى التى استطاعت بها تانزانيا أن تتفادى الانقلابات منذ استقلالها عام ١٩٦١ ·

الابقاء على الوحدة

تبقى أخيرا العقبة الكبرى التى تواجه تانزانيا بعد غياب نيريرى وهى الابقاء على الوحدة مع زنجبار وتفادى النزاعات الانفصالية التى بدأت تطفو على السطح · ولاشك ان وحدة تنجانيقا مع زنجبار تعد أنجح وحدة شهدتها القارة الأفريقية في العصر الحديث · ولكن داخل جزيرة زنجبار يوجد من يعتقد ان الظروف قد نضجت لكى ينفصلوا عن تنجانيقا وينشئوا حكومتهم الخاصة · وكذلك داخل البلد الأم تنجانيقا ففى عام

١٩٩٥ فان خمسين من أعضاء البرلمان عرفوا باسم « نادى الخمسين » قرروا أن يخوضوا معركة ضد الوحدة فى البرلمان ، وكان هدفهم هو أن يجعلوا موضوع الوحدة مجالا للاستفتاء الوطنى ، وعندما زجرهم نيريرى ألغوا الحملة ٠

ومع غياب نيريرى فسيكون الوضع مختلفا ، وان أول الأحداث التى ستظهر فى انتخابات عام الفين هو موضوع الوحدة ٠

لقد ظل نيريرى مسئولا عن أسطورة الوحدة والاستقرار فى البلاد حتى بعد أن ترك الحكم ٠ بقى كما كان يقوم بدور المراقب وظل قوة خلف المسرح السياسى ومن النادر ما كان يصدر أى قرار أو أى تعيينات فى القمة من غير أن يكون لنيريرى قول فيها ٠

ومن الناحية الدولية بقى دوره كما كان وهو فى السلطة ، وحتى فى النهاية عندما مات فى مستشفى بلندن بسرطان الدم فى ١٤ أكتوبر ١٩٩٩ كان مطلوبا فى أفريقيا وفى العالم باعتباره وسيطا ومفوضا ٠ ويعتقد المحللون أنه يصعب ايجاد بديل عن نيريرى فى عملية السلام التى تقوم بها الأمم المتحدة فى بوروندى وانها أصيبت بنكسة خطيرة لغيابه ٠

سيبقى نيريرى مذكورا باعتباره بطلا أفريقيا وباعتباره الأب المحبوب لوطنه ٠

كوامى نكروما مات مسموما

كتاب مثير صدر حديثا عن كوامى نكروما الزعيم الأفريقى العظيم ، أول من دعا للجامعة الأفريقية وانشاء حكومة موحدة لأفريقيا ، منذ مطلع الأربعينات قبل استقلال القارة الأفريقية بسنوات عديدة ، وهذه الأفكار التى آمن بها منذ الصغر وعمل على تحقيقها بعد أن أصبح أول رئيس لغانا هى التى جعلت الغرب يكرهه ، وجعلت رفاقه الزعماء الأفارقة يخشونه ، وهى أيضا ما عجلت بنهايته ، فلم يقبلها المستعمر الأجنبى ولم يرحب بها الرؤساء المحليون .

الكتاب يحمل عنوان « كوامى نكروما سيرة جديدة كتبته «جان ميلن» الباحثة الاسترالية المولد البريطانية الجنسية التى صاحبت نكروما على مدى خمسة وعشرين عاما منذ ان قابلته عام ١٩٥٧ حتى وفاته عام ١٩٧٢ ، وظلت تعمل قريبة جدا منه باعتبارها مساعد باحث له ثم ناشر لكتبه .

« وجان ميلن » تبلغ الآن ٧٩ عاما ، وسبق ان أصدرت كتابا عن نكروما سطرت فيه سيرته الذاتية حتى مماته ، ولكنها فى كتابها الحديث الأخير ألقت أضواء أكثر حول نهايته ، وكشفت كيف خططت وكالة المخابرات الأمريكية للانقلاب بالاطاحة بنكروما ، وأخطر من ذلك اتهمت المخابرات الأمريكية بقتله بالسم البطىء .

تبدأ « جان ميلن » الكتاب فور وصول الرئيس الغانى الى بكين عاصمة الصين فى ٢٤ فبراير ١٩٦٦ ، بعد رحلة طيران طويلة من بانجون (فى بورما) ، استقبله فى المطار السفير الصينى فى آكرا وقال له : « سيدى الرئيس لدى أخبار سيئة لقد حدث انقلاب فى غانا » . وكان نكروما حينذاك يقوم ببعثة سلام لهانوى بدعوة من الرئيس الفتنامى هوشى منه الذى كان ينشد طريقا للسلام يخرجه من الحرب مع أمريكا . فى البداية ظن نكروما انه أخطأ السمع ثم تأكدت له الحقيقة .

كان هذا أول انقلاب وأكثر دموية يحدث فى تاريخ غانا ، ولا أحد يعرف عدد من قتل من الجانبين ، ولكن يقدر العدد بنحو ١٦٠٠ قتيل ،

فضلا عن بضع مئات من الجرحى . ورغم ان الانقلاب كان مفاجأة لنكروما فان سحبه ظلت تتجمع لمدة طويلة قبل أن يترك أكرا . ولعل اقتناع نكروما بالاشتراكية وراديكاليته فى الدعوة للجامعة الأفريقية كانتا من أهم الأسباب التى عجلت بالاطاحة به . والحقيقة ان نكروما لم يكن وحده من الزعماء الأفارقة من آمن بالاشتراكية وقتها ، خاصة قبل أن تتكشف أخطاءها بعد سقوط برلين وتفكك الاتحاد السوفيتى ، ان الآباء المؤسسين لأفريقيا تصوروا أن الخلاص يكمن فى الاشتراكية بالنظر الى ما شاهدوه أيامها من أن الاتحاد السوفيتى قد انتقل بالاشتراكية الى أن يصير قوة عظمى بعد ٤٠ سنة فقط من الثورة الروسية منذ عام ١٩١٧ .. كان الأفارقة لديهم العذر فى هذا الاعتقاد فى ذلك الوقت .

وكانت الجريرة الأخرى لنكروما هو اتجاهه نحو حكومة موحدة لأفريقيا ، وأتاحته فرص لتدريب الثوار داخل بلده وانشاؤه قواعد لاعداد المقاتلين الافريقيين من أجل الحرية واستضافته للاجئين السياسيين من جنوب أفريقيا وموزمبيق وروديسيا وأنجولا وغينيا بيساو .. الخ وهى الجهود التى أفرزت القادة الوطنيين أمثال سام نجوما فى ناميبيا وروبرت موجابى فى زيمبابوى وكنيث كوندا فى زامبيا وكاموزو باندا فى مالاوى وفرانس فانون فى الجزائر ، وغيرهم كثير أما انهم زاروا غانا أو عاشوا فيها ، وكل ذلك خلق مشاكل بين نكروما وبين الغرب اذ أن ظهور أفريقيا قارة قوية موحدة لها صوت قوى فى الشئون الدولية والقادرة على ادارة شئون نفسها كان يشكل أخبار سيئة للدول العظمى .

وقد كتب نكروما بعد الاطاحة به « انهم يريدون أن يحطمونى أنا وغانا ، لأننا نقف فى مقدمة الصراع الأفريقى من أجل التحرر » . ولكن آخر ما كشفت عنه جان ميلن هو ان نشر نكروما عام ١٩٦٥ كتاب « الاستعمار الجديد آخر مراحل الاستعمار » الذى كشف فيه عن أعمال المؤسسات الدولية المالية الاحتكارية أغضب حكومة الولايات المتحدة ورأت فى هذا الكتاب خطرا ، وتسبب فى قطع المعونة عن غانا التى كانت تبلغ ٣٥ مليون دولار . وتعلق جان ميلن قائلة ومنذ هذا التاريخ صارت أيام نكروما معدودة فى الحكم .

وطبقا للشهادات التى وردت فى كتب حررها مسئولون فى وكالة المخابرات الأمريكية فان ميزانية المخابرات الأمريكية بالنسبة لأكرا زادت وذلك من أجل الاطاحة السريعة بنكروما . بدأوا بتغيير السفير الأمريكى الأبيض فى أكرا وأتوا بدلا منه بسفير أمريكى أفريقى هو فرانكلين وليامز

الذى كان رفيقا لنكروما فى جامعة لنكولن سنة ١٩٤١ · وبعد الانقلاب كتب نكروما في كتابه « الأيام السوداء في غانا » عن خيانة رفيق دراسته له وهو اتهام أزعج السفير وليامز ازعاجا شديدا ·

وقد حاول د· مارفين دوتش الذى كان رئيسا لجامعة لنكولن أن يبرىء هذا السفير الأمريكى وهو على أبواب الخروج من عمله ، فكتب فى ٢١ يوليو عام ١٩٦٩ رسالة لنكروما قال فيها : « وأنا أستعد لترك عملى أود أن أكتب كلمة فى صالح فرانكلين وليامز ، ان مستر وليامز هو شخص مرح ونشيط ، وأنا لم أره مصدوما بمثل ما رأيته بسبب ما شعرت أنت به من اشتراكه فى أحداث غانا ، وقد أكد لى شخصيا أنه لم يكن لديه أدنى علم بالانقلاب » · ولكن نكروما لم يكن مقتنعا بهذا الكلام وقال لجان ميلن انه يستبعد تماما أن يكون وليامز غير عالم بما يحدث في سفارته من ضباط المخابرات الأمريكية ·

وقد ذكرت « جان ميلن » فى كتابها انه بات مقبولا الآن بشكل عام ان وكالة المخابرات الأمريكية هى من خططت للانقلاب ، وتأكد هذا الاشتراك فى كتاب « البحث عن أعداء » الذى كتبه عضو سابق فى المخابرات الأمريكية هو جون ستوكويل ونشر عام ١٩٧٨ ، كشف ان مقر وكالة المخابرات الأمريكية فى أكرا أعطيت ميزانية كبيرة ، واستبقت علاقات وطيدة مع المتآمرين فى الانقلاب ، وفى داخل رئاسة وكالة المخابرات فى أمريكا فان مقر أكرا أعطى صلاحيات كاملة ، وان رئيس هذا المقر « هواردبن » كوفىء على نجاح الانقلاب بأن رقى الى منصب رئاسى فى الوكالة ·

كيف حدث الانقلاب ؟

اعتمد نجاح الانقلاب على وجود نكروما بعيدا عن غانا ، وكانت بعثة السلام لهانوى فرصة ممتازة · أيد البعثة فى البداية مؤتمر رؤساء وزارات الكومنويلث عام ١٩٦٥ ولكنها أجلت بسبب ان هارولد ولسون رئيس الوزراء البريطانى كان يريد أن يرأس البعثة فى حين ان هانوى لم تقبل الا نكروما ·

وقد أرسل الرئيس هوشى منه دعوة شخصية لنكروما ليرأس وفدا آخرا ، وكان نكروما حينذاك يخطط لموضوعات تتعلق بالتفرقة العنصرية لجنوب أفريقيا ولطرد جنوب أفريقيا من الكومنويلث ، وكان رصيده العالمى كبير جدا فى هذا الوقت ·

وبينما كان نكروما يستعد للذهاب الى فتنام فى يوليو ١٩٦٥ أبلغه هوشى منه أن تأمينه فى هانوى لا يمكن ضمانه الا اذا أوقف الأمريكيون قصفهم لفتنام • فأرسل نكروما وزير خارجيته الى واشنطن ليطلب من الرئيس الأمريكى لنــدون جونســون ان توقف أمريكا قصفها لهانوى ليستطيع الذهاب اليها ، (وهذا يشبه طلب صدام حسين الاذن الأمريكى لغزو الكويت) • وقد وجدت المخابرات الأمريكية فى هذا الطلب فرصة ذهبية لاخراج نكروما من أكرا ، فأكد له الرئيس جونسون انه سيكون مؤمنا تماما فى هانوى وان هوشى منه انما يخلق الأعذار • وقبل ثلاثة أسابيع من مغادرة نكروما لأكرا طبقا لما تذكره جان ميلن فان الرئيس جونسون أرسل مبعوثا هو مينون وليام الى أكرا ليشجع نكروما على الذهاب ، حتى تحقق وكالة المخابرات الأمريكية خططها التى كانت تعتمد على وجود نكروما خارج غانا •

وهكذا سافر نكروما فى ٢١ فبراير سنة ١٩٦٦ وبعدها بيومين حدث الانقلاب ، وبعد أشهر قليلة نشرت صــحيفة ايجيشــان جازيت القاهرية ان واحدا من قبيلة نكروما (قبيلة انزيما) الذى كان همزة الوصل بين المخابرات الأمريكية وبين رجال الانقلاب المحليين قد قتل لأنه يعرف كثيرا عن وقائع الانقلاب ، وكان اسم هذا القتيل أميهيا •

وفى ٢ نوفمبر سنة ١٩٦٨ كتب نكروما الى شيرلى ديبوا زوجة دى بوا التى كانت أرسلت له قصاصة الصحيفة المصرية (ايجيشان جازيت) والتى ذكرت ان أميهيــا قتل حتى لا يتكلم ، كتب لهــا نكروما ان لديه معلومات من مصادر موثوق بها بأن أميهيا قتل لهذا السبب •

وبعد ذلك بعام عندما ذهب رئيس توجو « أياديما » ليزور حكومة الانقلاب فى غانا كتبت جان ميلن تقول انه زار سد فولتا والمصانع فى أكرا وتساءل من فعل كل ذلك فذكر له الموجودين انه نكروما فرد عليهم رئيس توجو « ولماذا قمتم بالانقلاب عليه لم تكن هناك حاجة للانقلاب » • وبسبب هذا التعليق ســاءت العلاقات والغى حفل العشاء الذى كان سيقام على شرفة •

نكروما يذهب الى غينيا

من بكين تلقى نكروما دعوة من الرئيس سيكوتورى زعيم حــركة الاستقلال فى غينيا ورئيسها ليأتى ويعيش فى كوناكرى ، كما تلقى دعوات مماثلة من رئيس تانزانيا جوليوس نيريرى ورئيس مالى موديبوكيتا

والرئيس عبد الناصر • واختار نكروما كانوكرى لقربها من غانا لأنه كان يأمل ان يعود سريعا الى السلطة فى بلده •

كتبت جان ميلن تقول : ذهب نكروما الى كوناكرى بارصدة قدمها له الروس عندما ذهب الى موسكو فى طريقه من هانوى الى كوناكرى . كما قدم له الصينيون بعض المعونات • وأرسل له رئيس أوغندا ملتون أوبوتى والرئيس نيريرى مبعوثين يحملون حقائب دبلوماسية تحتوى على نقود فقد كان كل منهم يريد أن يعود نكروما الى أكرا ، وكانوا واقعيين الى حد ادراكهم ان أمرا كهذا لن ينجز بغير المال •

لم يكن لنكروما أرصدة فى بنوك أجنبية • وحسابه فى بنك باركليز فى أكرا الذى كانت تدفع فيه راتبه عندما كان رئيسا للدولة ، هذا الحساب جمدته حكومة الانقلاب ، لذلك كان فى حالة اعتماد على كرم أصدقائه السياسيين •

وبصرف النظر عن هؤلاء الذين يطلبون المال لينفذوا مخطط العودة الى الحكم ، فقد واجه نكروما نفقات تتعلق باحتياجات أنصاره الذين كانوا معه ، فكان نكروما يؤدى لهؤلاء الغانيين راتبا اسبوعيا يمثل نصف ما كانوا يحصلون عليه في غانا ، على أساس أنهم سيحصلون على النصف الآخر عندما يعود نكروما الى غانا •

ولكن لم يحدث هذا ، فعندما ذهب نكروما الى كوناكرى جذب انتباه وكالات الأنباء الغربية الى مكانه ، وكانت رسائله يضطلع عليها الجواسيس واقتحم مقر اقامته فى كوناكرى بغزاة من البرتغاليين واخترقوا الأشخاص المحيطين به • ولكن نكروما عاش رغم ذلك حتى مات الطاهى الخاص الوفى له آموه فى ٢٠ يوليو ١٩٦٧ •

عندما مات آموه صار من الواضح ان نكروما سيتعرض لخطر شخصى كبير ، حتى ان مدام سيكوتورى طلبت ان يحل طاهى معين محل آموه ولكن حل محله طهاة آخرون ، تقول جان ميلن « عندما ذهبت الى المطبخ تحقق لى انه لا أمل من التأكد مائة فى المائة أن طعام نكروما مأمون • وبصرف النظر عن الطاهى فقد كان هناك عدد من الأشخاص موجودين فى المطبخ وآخرون يذهبون ويجيئون ، وعندما بدأ نكروما يشكو من مشاكل فى المعدة بدأت أخشى على صحته » •

وكتبت أيضا « فى نهاية واحدة من زياراتى لكوناكرى وعندما كنت أشارك نكروما فى وجباته عانيت من آلام حادة فى المعدة مع ارتفاع فى الحرارة لمدة ستة أسابيع بعد عودتى الى لندن • كنت مريضة بشكل خطير وتنتابنى أعراض تشبه أعراض مرض التيفويد ، وخضعت لفحوص مكثفة فى مدرسة لندن لطب الأمراض الاستوائية • وفشلت هذه الفحوص فى بيان حقيقة المسالة أو تفسيرهـا ، حتى الأطبـاء الذين زاروا منزلى وفحصوا الأشياء التى أستعملها فشلوا فى معرفة السبب » •

ثم انهارت صحة نكروما بالتدريج ، فى البداية عالجه طبيب روسى ذكر ان نكروما يشكو من اللومباجو وهو مرض يسبب آلاما أسفل الظهر • وقد حاول سيكوتورى وعدد من الأصدقاء اقناع نكروما بأن يســافر للعلاج فى الخارج ولكنه لم يكن متحمسا حتى لا يسبب سفره تكاسل الغانيين واسترخائهم فى العمل للعودة الى السلطة •

فشــل العلاج

ولكن بعد ذلك فى عامى ٦٩/ ١٩٧٠ عندما ساءت صحته طلب نكروما من السوفييت مرتين ان يذهب لتلقى العــلاج عندهم ، فلم يسمحوا له بذلك ، وبدلا من استضافته أرســلوا اليه اثنين من الأخصائيين الى كوناكرى يفحصوه ، ونصحوه بأنه لا يوجد سبب يستدعى السفر ، وانه من الناحية السياسية فالوقت غير مناسب بأن يترك غينيا •

وتذكر جان ميلن « لم آكن فى كوناكرى عندما وصــل الأطبـاء الأخصائيون ، ولكن نكروما كتب يوم سفرهم يذكر لى نتيجة زيارتهم ، قال سواء نصح الأخصائيون أم لم ينصحوا فأنا لا أدرى ، ولكنهم اتبعوا العلاج الذى أوصى به الطبيب البلغارى الذى فحصنى قبلهم » •

ان طبيعة العلاج لم تكن واضحة ، ولكن فى عام ١٩٧١ عندما ذهب نكروما الى بوخارست فى رومانيــا ، فان الطبيب الاستشارى مادرجاك ذكر لجان ميلن ان نكروما عولج بالضبط بعكس ما كانت تتطلبه حاجته ، لم يذكر اسم المرض ولكنه قال انه انتشر فى جسمه • وقالت جان ميلن ان ابن نكروما الأول فرانسيس وهو طبيب على تأهل عال ذكر لها عندما زارته زيارة قصيرة عام ١٩٧٢ لقد كان هناك اهمال جسيم فى علاج والده فى غينيا •

وتضيف جان ميلن « انه من غير المقنع أو المتصـــور الا يعرف الاخصائيون الروس بمرضـــه الخطير بعد أن فحصـــوه عام ١٩٧٠ ، وأنا اشك فى ذلك انهم كانوا لا يريدون أن يعادوا النظام الانقلابى فى غانا بدعوة نكروما الى الاتحاد السوفيتى ، كان الروس قد أعادوا فتح سفارتهم فى غانا ، كما كانوا لا يوافقون على خطط نكروما الثورية ولا على أفكاره بالنسبة للكفاح المسلح حتى قبل عام ١٩٦٦ اذ كان نكروما يتجه أكثر فأكثر للاعتماد على الصينيين والفتناميين ، وكان ثمة توتر شـديد بين الاتحاد السوفيتى والصين فى ذلك الوقت » ٠

وفاتــه

أخيرا استمع نكروما لنصيحة أصدقائه القريبين وأن يترك كوناكرى الذى أقام بها منذ أن أطيح به فى فبراير ١٩٦٦ يتركها لينشد العلاج الطبى فى الخارج ٠ كان يتوقع ان يذهب ان موسكو ولكن أصدقاء فى الحكومة السوفيتية نصحوه بعدم الحضور اليهم ٠

وأخيرا فى منتصف أغسطس سنة ١٩٧١ هبطت طائرة تحمل نكروما لبوخارست فى رومانيا ، وتقول جان ميلن انها اتصلت بطبيب انجليزى عندما عادت الى انجلترا ، وعندما سمع الطبيب يوصف حالة نكروما توقع انه يعانى من سرطان العمود الفقرى الذى انتشر فى البروستاتا والدم ، وأخبرها باذا كان هذا التشخيص صحيحا فانه يتوقع له حياة لا تزيد عن ستة أشهر ٠

تقول جان ميلن انها وصلت الى بوخارست فى ١٢ أكتوبر ســـنة ١٩٧١ ، كان منظر نكروما فى المستشفى يبعث على الحزن ، كان يجلس على كرسى كبير وظهره الى الضوء ينظر بأسى ، لم يكن يستطيع الحركة ليترك الكرسى وبقى جالسا عليه ستة أسابيع ، كان شعره رماديا وكل شىء فيه رماديا ، قدمه وسيقانه نحيفة من طول الجلوس ، وكان بياض عينيه ناصعا ويداه وجلد بشرته شاحبة ، وذكر لها انه مر عبر الجحيم فى الأشهر القليلة الماضية ٠٠ كان كل هذا يعطى إنطباعا بأنه ذاهب بعيدا ٠

وأخيرا أتت النهاية فى الساعة ٨٫٤٥ دقيقة صباح ٢٧ أبريل ١٩٧٢ ، الرجل الذى كان فى صحة جيدة ويزيد عن ٧٥ كيلو تناقص وزنه حتى صار ٥٧ كيلو وتوفى ٠٠ وهكذا مات نكروما فى أرض غريبة وعاش فى أرض غريبة أيضا ست سنوات قبل وفاته ٠

رغم ان نكروما يرقد فى قبره منذ ٢٨ عاما فانه اليوم صار أكبر فى تقدير المواطنين فى غانا وللأفريقيين ، كما صار أكبر فى أعين العالم الغربى الذى كان يخاصم كل مشروعاته ويعمل على افسادها ٠

كانت لنكروما آمال كبيرة لغانا ولكل أفريقيا ، كان يبغى ان يبنى بلدا نموذجيا تستهدى به أفريقيا والأفريقيين ويثير الالهام لديهم ٠ كان لديه المال وكانت غانا بلدا غنيا وكانت بريطانيا تكسب من ورائها قبل الاستقلال ، واذا عدنا الى الوراء سنة ١٩٤٦ طبقا للسجلات البريطانية فان غانا التى كانت تسمى ساحل الذهب كان لديها أرصدة فى بريطانيا تبلغ ١٠٠ مليون دولار ٠

وبين عامى ١٩٤٧ ـ ١٩٤٨ تظهر البيانات ان بريطانيا حصلت على ٧٢ مليون دولار من تصدير كاكاو غانا الى الولايات المتحدة ، وكان الكاكاو واحدا من المنتجات الكثيرة التى كانت تصدرها بريطانيا ومن هذه المنتجات البوكسيد والنحاس والذهب والماس ، واذا كانت بريطانيا تكسب ٧٢ مليون دولار من تصدير الكاكاو وحده فكم كانت تحصل لندن من تصدير المنتجات الأخرى وخاصة الذهب (ولم يكن اسم ساحل الذهب قد أطلق على غانا بغير سبب) ٠

ونفس السؤال يمكن ان يوجه الى فرنسا والبرتغال وايطاليا كم كانوا يحصلون عليه من مستعمراتهم ٠ وهذا مما نعلم منه لماذا لم يكن نكروما محبوبا من الغرب ، ان كفاحه من أجل استقلال غانا وأفريقيا أفقد السادة الاستعماريين فجأة مكاسب مالية ضخمة كانت تذهب من المستعمرات الأفريقية الى أوربا مباشرة ٠

وان خطته الماركسية جلبت له الأسوأ من ناحية الغرب ، وكانت بريطانيا وأمريكا يشكون دائما فى انه ماركسى ، وفى خضم الحرب الباردة بين الغرب والسوفييت رأى الغرب انه لابد من كسر أجنحة نكروما وان تكسر أجنحته بالسرعة قبل أن يحلق فى أجواء أفريقيا ٠

وعمل الغرب ترتيبه لافشال خطط نكروما السياسية والاقتصادية ، وكانوا يعلمون ان غانا هى نجم أفريقيا فى ذلك الوقت فاذا سمحوا لنكروما ان يحقق طموحاته فى خطط التنمية التى كان من شأنها ان تحول غانا فى بداية السبعينات الى بلد مصنع أو نمر اقتصادى وساعتها ستتبعه

أفريقيا كلها فى طريقه ، وهذا مما كان سيهدد مصالح الغرب السياسية والاقتصادية فى القارة الأفريقية وسيصبح صندوق النقد الدولى والبنك الدولى بغير مصداقية وقتها .

كانت احدى طرق الغرب لجذب نكروما الى أسفل هو التعامل مع السعر العالمى للكاكاو . وان الطلب العالمى على الكاكاو تجاوز العرض فى منتصف الخمسينات فارتفع السعر عاليا ، وفى عام ١٩٥٥ كانت صادرات الكاكاو تمثل ٦٨٪ من تجارة غانا الخارجية ، ومن ثم فان نكروما بعد الاستقلال قد ورث قدرة تمويلية جيدة من شأنها ان تحول غانا سريعا الى نمر اقتصادى .

عندما خاض نكروما خطة التنمية السبعية (سبع سنوات) فى بداية السنينيات بعد خطة تنمية خمسية أنجزها كان يقف السعر العالمى للكاكاو عند ٤٨٠ جنيه استرلينى للطن . وفى عام ١٩٦٦ عندما أطيح به كان سعر الكاكاو قد انهار الى ٦٠ جنيه استرلينى للطن . واذا عرف ان الكاكاو كان هو الانتاج رقم واحد فى التصدير من غانا فيمكن ان نتخيل أثره على الاقتصاد فى عهد نكروما ، ولماذا فشل اذا كان قد فشل .

وفى هذا السياق يتضح لماذا كان نكروما المحبوب الأول والمكروه الأول ، ولماذا لا يوجد زعيم أفريقى آخر كتب عنه كما كتب عن نكروما .

المعجبون به كان لهم رمزا كبيرا ، كتب بيتر ابراهامز الكاتب الشهير فى جنوب أفريقيا كتب عنه عام ١٩٥٤ ان نكروما كان مثل البرج العالى برأسه وأكتافه يعلو بهما على أى سياسى آخر لدى الجماهير الأفريقية .

وقد تنبأ بذلك س . ل . ر . جيمس الكاتب المؤرخ المولود فى ترنداد اذ قدم نكروما عام ١٩٤٥ الى جورج بادمور الكاتب المعادى للاستعمار فى الكاريبى والمحرض الكبير ضده قدمه له بهذه الكلمات : « يا جورج ان هذا الشاب يأتى اليك انه ليس لامعا ولكن مع ذلك أصنع ما تستطيع من أجله لأنه مصمم على أن يطيح بالأوربيين من أفريقيا » .

وبالنسبة للأفريقيين فان اسم نكروما صار لعدة سنين رمزا للفكاك من التبعية والالحاق الذين عانوا منها لعدة قرون .

ولكن بالنسبة لغير المعجبين به فقد كان نكروما في نظرهم مستبدا غير عادى ، وصفه الكاتب الآسيوى الكينى على مصراوى بأنه قيصر لينينى ، وقال عنه المؤرخ البريطانى هيوستون واطسون عام ١٩٦٦ ان نكروما يحوز على هستيرية هتلر وغطرسة موسولينى أكثر من العبقرية الباردة للينين ٠

وكتبت الكاتبة الأمريكية ماريكا شرود التى تؤرخ لتاريخ السود فى مجلة التايمز تقول ان أسلوب نكروما فى الاستبداد كان أسلوبا قاسيا وشاملا ، وان الآراء حوله تتراوح بين أنه شبه اله أو انه شيطان ، وان أهميته العالمية والوقت الذى ظهر فيه نجمه في البلاد الأفريقية المستقلة حديثا أثر كل ذلك فى تصورات الناس عنه ، ولا شك ان نكروما كان شخصية هامة جدا فى أفريقيا وللشعب الأفريقى فى الفترة ما بين سنة ١٩٤٨ ــ ١٩٦٦ ٠

★★★

مع اشتداد المعارضـــة لنكروما داخل بلده والعداء الغربى له ، أصبحت الأمور صعبة بالنسبة له فشدد أكثر من قبضته واستخدم قانون الاشتباه ضد خصومه ومؤيديه على السواء ، خاف الشعب من قائده وأتت الاطاحة به فى ٢٤ فبراير ١٩٦٦ بمثابة انفراجه للغانيين الذين لم يكونوا يدركون الضغوط العالمية التى كان يواجهها نكروما ، ومن ثم بدأت عملية الهدم لذكراه فحل حزبه وأبيدت كتبه وكل شىء ينتمى اليه ٠

ورغم ما قيل عنه وعن فترة حكمـــه التى لم تستمر ســوى تسع سنوات ، فان نكروما سقط وغانا من أكبر الدول الصناعية فى غرب أفريقيا ٠ رغم انه يجاورها نيجيريا وكوت ديفوار (ساحل العاج) وهما نموذج للنمط الرأسمالى فى التنمية ٠ كما كانت غانا تتمتع بأكبر مستوى لدخل الفرد وأولى الدول المنتجة للكاكاو فى أفريقيــا وصاحبــة مشروع سد الفولتا ٠

كذلك لم يكن سقوط نكروما مخلصا لغانا ، فرغم تعدد الحكومات العسكرية ومحاولات الحكم المدنى على النمط الغربى ، الا ان النتائج الاقتصادية كانت عكسية تماما فقد بلغ ارتفاع الأسعار فى غانا حدا لم تشهده كل دول العالم ، وصل التضخم الى ٣٠٠٪ وبلغت ديون غانا للدول الرأسمالية ملايين الدولارات ، وعقد الدائنون حلقات خاصـــة لمعالجة الموقف فى لندن وباريس دون جدوى ، وترك الأمر لصندوق النقد الدولى ليفرض شروطه على الحكومة ٠

ظل نكروما يردد ـ وهو فى منفاه بكوناكرى بغينيا ـ ان المخابرات الامريكية والبريطانية والألمانية والاسرائيلية هى التى خططت للانقلاب ، ولم يصدقه أحد حتى تكشفت الشواهد من وكلاء المخابرات الأمريكية انفسهم الذين اعترفوا بأن نكروما أطيح به بموجب خطة رسمها الأمريكيون وساهم فيها بنو عمومتهم فى أوربا ، وأن أهم أسباب الاطاحة به ان الغرب كان يعارض توجه نكروما الى توحيد أفريقيا فهم يدركون ان هذه الوحدة تهدد سيطرة الغرب الاقتصادية والسياسية على أفريقيا ، لذلك كان لابد أن يذهب نكروما المدافع الرئيسى عن وحدة أفريقيا ٠

وساعدت عدم شعبية نكروما فى بلده فى ذلك الوقت مع المشاكل الاقتصادية التى ظهرت بسبب انهيار سعر الكاكاو ان جعلته فريسة سهلة ، ولم تحتاج وكالات الاستخبارات الغربية الى أكثر من عدد قليل من مخالب القطط من جيش غانا والبوليس وشرطتها لاتمام المهمة ٠

وتختم الكاتبة جان ميلن كتابها : ولكن بعد ٢٥ عاما تذكرت غانا الحكمة التى وردت فى الانجيل القائلة لا كرامة لنبى فى بلده ، وفى الذكرى الأربعين لاستقلال غانا عن الاستعمار البريطانى أقامت الحكومة الغانية احتفال مهيب نقلت فيه جثمان الرجل العظيم الى النصب الجديد الذى شيدته فى نفس البقعة التى أعلن فيها نكروما استقلال بلده فى ٦ مارس ١٩٥٧ ، وأطلقت اسمه على الجامعة ، وهكذا صار نكروما البطل رقم واحد فى غانا بعد ان دار الزمن دورة كاملة ليعيده الى هذا الوضع ٠

سيكوتورى الثائر الهادىء

اذا كان يوجد فى عالم اليوم من يمكن أن يطلق عليه لقب الزعيم الأسطورة ، فهو ذلك الثائر الهادىء « أحمد سيكوتورى » محرر غينيا وأول رئيس لها بعد الاستقلال ٠

« وسيكوتورى » لم يكن فقط الزعيم الذى قاد مسيرة التحرر لبلاده غينيا منذ الأربعينات ، ولا فقط الرئيس الذى ظل يقاوم المستعمرين كالصخرة الثابتة قبل الاستقلال وبعده ، بل كان البطل المدافع دائما عن كل الشعوب المضطهدة ٠

فى مارس عام ١٩٨٤ سكن قلب هذا الزعيم الأفريقى العظيم عن عمر يناهز ٦٢ عاما أثر نوبة قلبية لم تمهله ساعات ، واستراح القلب بعد سنوات طويلة من الكفاح تاركا وراءه بصمات واضحة على منهج العمل السياسى والدبلوماسى فى حل المشكلات الاقليمية والدولية ٠

كان « سيكوتورى » من أبرز القادة فى التاريخ السياسى الأفريقى الحديث ، وكان واحدا من زعماء قليلين ممن استمروا فى الحكم حتى النهاية ، وظل ٢٦ عاما يقود بايمان وصبر مسيرة التحرر لبلاده ، ووقف كالصخرة الصامدة يقاوم كل السهام التى صوبت ضده من الداخل والخارج ٠

لم ينحن أمام مستعمريه ، ولم يسقط أمام مؤامرات الاطاحة به ، ولم يخضع لحملات التشهير به واتهامه بابادته لخصومه السياسيين وظل شامخا لا يلين حتى بعد ان انهى عزلته وانفتح على الغرب ، فقد رفض العلاقات مع فرنسا حتى أعلن « ميتران » ان فرنسا تحتاج الى « سيكوتورى » أكثر من احتياج سيكوتورى اليها ٠

كان وطنيا متحمسا ، وبرز على المسرح السياسى برفض استفتاء ديجول عام ١٩٥٨ ، وأطلق صيحته الشهيرة « لا ٠٠ اننا لن نفرط فى

خقنا الطبيعى والمشروع فى ألاستقلال .. نحن نفضل الفقر مع الحرية على الغنى مع العبودية » .

وأحدثت صيحة « سيكوتورى » صداها فى كل أنحاء غرب أفريقيا ، وقادت الى هدم الجماعة الفرنسية التى صممها ديجول ، ولم يمضى عامان الا وكانت كل المستعمرات قد طلبت الاستقلال عن فرنسا .

لم يغفر « ديجول » « لسيكوتورى » قط هذا الموقف ، ورد ديجول بانسحاب كامل وسريع من غينيا بعد ان دمر موظفوه كل الأجهزة حتى قضبان السكك الحديدية انتزعوها . وتوالت مؤامرات المخابرات الفرنسية للاطاحة بسيكوتورى ، وأدى هذا الى قطع العلاقات بين فرنسا وغينيا عام ١٩٦٥ .

وباعتزاز كبير أغلق « سيكوتورى » أبواب بلده وظل ما يقرب من ١٥ عاما لم يغادره يوما ، رفض أضواء الزعامة ومتع الرئاسة ولبس سرواله الأبيض وجلس تحت الشجرة مع شباب حزبه وطلائعه يلقنهم حب الوطن والانتماء ويواصل حياته المتواضعة ليكون قدوة مقنعة لهم .

وظل « سيكوتورى » موصدا الأبواب حتى أتم بناء حزبه « الحزب الديمقراطى الغينى » . وعندما خرج للمشاركة فى المحافل الدولية كان حزبه قد أصبح التجربة الوحيدة الناجحة فى تاريخ نظام الحزب الواحد فى أفريقيا .

حاولت فرنسا استمالته بعد سقوط « ديجول » ، ولكن «سيكوتورى» رفض أى تقارب مع فرنسا طوال حكم « بومبيدو » اذ كان يرى فيه ساعد « ديجول » الأيمن ومنفذ سياسته .

وبعد وفاة « بومبيدو » جدد « جيسكار ديستان » المحاولة مع سيكوتورى ، ولكن سيكوتورى طلب مقابلا لعودة العلاقات الافراج عن أرصدة غينيا المجمدة فى بنوك فرنسا وطلبت فرنسا دفع تعويضات المشروعات الفرنسية التى أممتها غينيا ، وتوصل الجانبان الى حل وسط اذ أفرج عن ٦٠٪ من الأرصدة لصالح غينيا واستخدم الباقى فى تعويضات الفرنسيين .

وعندما أتى « ميتران » الى الحكم أدرك ان كل ما مر على « سيكوتورى » على مدى عقدين من الزمان من مؤامرات الانقلاب ومن

الضغوط الاقتصادية ومن هجرة الآلاف من مواطنيه ومن عمليات التشهير بانتهاكه حقوق الانســـان كل ذلك لم يجعل « سيكوتورى » يعدل عن سياسته أو يضعف ويلين · فبعث « ميتران » بواحد من صفوة مستشاريه الى كوناكرى يطلب اللقاء معلنا ان خصومة حزبه « الحزب الاشتراكى » ضد سيكوتورى لم تعد قائمة ، وهى الخصومة التى قادها الحزب منذ السبعينيات ·

ودعا سيكوتورى الى زيارة فرنسا ولأول مرة بعد ٢٤ عاما وطئت قدم سيكوتورى أرض فرنسا ، واستقبل فيها بحفاوة لم يشهدها زعيم أفريقى من قبل ، حفاوة أثارت تساؤلات حول ما الذى جعل ميتران زعيم الحزب الاشتراكى يبدى كل هذا الحرص على مهادنة « سيكوتورى » ·

وكانت الأسباب ببســـاطة أن « ميتران » أدرك بحسه السياسى الوجود المتنامى لسيكوتورى فى أفريقيا ، فقد كان الزعيم الغينى واحدا من الآباء المؤسسين لمنظمة الوحدة الأفريقية ، وكان قطب لجنة الحكماء التى شكلت فى السبعينيات لمحاولة حل القضـــايا والمشاكل الأفريقيه بالطرق السلمية وفى الاطار الأفريقى · وكان أحد الزعماء الذين وقفوا بضراوة ضد قيام دولة الصحراء وقاوم بشدة كلا من ليبيا والجزائر فى هذا الموضوع ، وكان صوته جهيرا فى ادانة الوجود الليبى فى تشاد ، وكان له تأثيره الكبير فى وقف جارته « سيراليون » من المشاركة فى تجمع طرابلس عام ١٩٨٣ فى وقت كان انعقاد مؤتمر القمة يتوقف على صوت واحد ·

★★★

ان « سيكوتورى » ليس زعيما قاد مسيرة التحرر لبلاده غينيا منذ الأربعينات فحسب أو ليس فقط رئيسا ظل يقاوم المستعمرين كالصخرة الثابتة قبل الاستقلال وبعده بل هو أيضا بطل للشعوب المضطهده ·

فى أثناء الحرب العالمية الثانية ، وعدت الدول الاستعمارية الكبرى مستعمراتها بالاستقلال شريطة مساعدتها فى الحرب · ومع ان هذا الوعد ضمن للدول الاستعمارية ومنها فرنسا انضـــمام الجنود الأفريقيين الى الحرب معهم بشكل جماعى مؤمنين بأن تحرير أوربا من الاحتلال الفاشى سيتحقق معه فى نفس اللحظة تحرير المستعمرات · الا انه بعد انتهاء الحرب لم تحترم الدول الاستعمارية وعودها باعطاء المستعمرات حرياتها · فلما تكشفت خداع الاستعمار أخذت أفريقيا تنظم صفوفها فى حزم وثقة من أجل انتزاع حريتها بيديها ·

أدركت الدول الاستعمارية وبخاصة فرنسا مدى الخطر الذى يهدد قواعد الاستغلال الاستعمارى· فاحتالت لوضع سياسة امتصاص تقوم على الاعتراف التدريجي للشعوب المستعمرة بحرياتها على ان يظلوا داخل الكيان الاستعمارى · وعرضت استفتاء وهو ما عرف بمشروع ديجول تختار فيه المستعمرات بين الاستقلال الفورى وقبول البقاء ضمن اطار المجموعة الفرنسية ·

وكما سبق القول عندما عرض الاستفتاء كانت غينيا الدولة الوحيدة التى قالت لا · وتفردت عن بقية المستعمرات وعارضت بشدة الاستفتاء وفضلت الانفصال عن المجموعة الفرنسية ونالت استقلالها عام ١٩٥٨ ·

وجدت غينيا نفسها فى وضـــع فريد بالنسبة لدول غرب ووسط أفريقيا الناطقة بالفرنسية · وســـجلت هذه الفترة عمليـــات استفزاز ضد غينيا وشنت عليها حملة نشوية ضارية كانت تستهدف اقناع العالم بوجوب رفض النظام الوليد فى غينيا وضرب الحصار حوله · وادعت الدول الكبرى المعادية ان غينيا وقعت تحت سيطرة حاكم فرد طاغية ·

ولم يكن أمام الرئيس « سيكوتورى » الا أحد أمرين اما أن يغلق الباب على نفسه وعلى بلده ويتفرغ لبناء حزبه (الذى أسس منذ عام ١٩٤٧) واعداد شعبه لمواصلة مسيرة الاستقلال · واما أن يغرق فى جدل الدفاع عن نفسه ·

وفضل « سيكوتورى » غلق الأبواب وظل ما يقرب من خمسة عشر عاما لم يغادر بلده يوما ·

لقد آمن بأن أكثر ما يعرض المستقبل للخطر هو الشـــك الذى يستولى على الجماهير تجاه قيادتهم وقدرة هذه القيادة على الوفاء بوعودها فظل يواصل حياته المتواضعة ليكون قدوة مقنعة لهم ·

وظل سيكوتورى موصدا الباب عليه حتى أتم بناء حزبه الحزب الديمقراطى الغينى وعندما خرج للمشاركة فى المحافل الدولية كان حزبه قد أصبح التجربة الوحيدة الناجحة فى تاريخ نظام الحزب الواحد ·

حاول سيكوتورى منذ الاستقلال ان يصحح أوضاع غينيا الاقتصادية بالاستغلال السريع لثروتها المعدنية فى المناجم ، ولكن الديون بدأت تطغى

على نفقات الأدوات والمهمات المطلوبة لاستغلالها ، وبدأت الديون تزداد وتبتلع الناتج القومي • وتدهورت الأوضاع بسبب عزوف المستثمرين الأجانب عنها وانهيار أسعار المواد الأولية وعبء الخدمات العامة •

فى البداية تحول سيكوتورى الى الكتلة الشرقية التماسا للمساعدة ، وأقام علاقات وثيقة مع الاتحاد السوفيتى الذى احتكر البوكسيت (غينيا تحوز على ثلثى الاحتياطى العالمى منه) وكان انتاج البوكسيت كله يشحن الى الاتحاد السوفيتى بأسعار أقل من السعر العالمى كنوع من الوفاء العينى للديون ، ولكن سيكوتورى لم يحصل على عونا حقيقيا فتبددت أحلامه عن أصدقائه الماركسيين ، وأمام هذه الضغوط تبنى سياسة عدم الانحياز فى العلاقات الخارجية ، وأقام علاقات غربية وعربية وعمل على جذب المساعدات الخارجية لتطوير مصادر ثروة البلاد •

ولكن حتى فى ظل سنوات الانغلاق • وفى أحلك أزمات الحصار الذى فرض على غينيا لم يتخل الثائر « سيكوتورى » عن مناصرة حركات الاستقلال ، وفتح بلاده لها وقدم مساعداته ــ التى كان أحوج ما يكون اليها ــ الى جارته « غينيا بيساو » التى كانت تقود نضالها ضد المستعمر البرتغالى •

والجأ هذا الموقف الاستعماريين البرتغاليين تساندهم فرنسا الى شن عدوان مسلح على غينيا عام ١٩٧٠ ولكن فشل الغزو وانكشف للعالم دور الامبريالية والاستعمار • ويذكر انه منذ عام ١٩٦٠ وعلى مدى عشرين عاما حاولت المخابرات الفرنسية الاطاحة بحكم سيكوتورى ، وهذه المؤامرات هى : عام ١٩٦٠ مؤامرة سميت بالقوى الرجعية ، سنة ١٩٦١ مؤامرة المدرسين ، ١٩٦٣ مؤامرة صفاء التجار ، سنة ١٩٦٥ مؤامرة كبار رجال الأعمال ، ١٩٦٦ مؤامرة الكوادر الفنيين ، ١٩٦٨ مؤامرة العسكرية التى اشترك فيها وزير الدفاع ونائب قائد الجيش ، والمؤامرة الكبرى عام ١٩٧٤ تعرضت فيها غينيا لغزو من الخارج من خصوم النظام ، ثم تلى ذلك مؤامرة الطابور الخامس فى عام ١٩٧٦ التى تزعمها ديالloتيلى الذى أعدم فى المعتقل • وديالloتيلى هو أول أمين عام منظمة الوحدة الأفريقية وكان زعيما شعبيا وشغل منصب وزير العدل وكان مقربا من سيكوتورى وسفيرا لبلاده فى الأمم المتحدة ، ثم اتهم بالاشتراك فى محاولة قلب نظام الحكم واعتقل وأذيع انه مات فى السجن ولكن شهود عيان قالوا انه أعدم •

وهذا الحادث من أهم الأحداث التى زلزلت سمعه سيكوتورى وانطلقت أبواق الدعاية المضادة تصفه بالطاغية الحاكم الفرد الذى يخضع

بلاده بالاضطهاد والارهاب . الحقيقة ان ذلك كان جرحا فى جبين سيكوتورى .

★★★

من اللمحات المشرفه التى تذكر لسيكوتورى استضافته للرئيس الغانى نكروما بعد الاطاحة به ، ولم يكتف بذلك بل منحه سلطات رئيس الدولة والحزب حتى يتمكن عمليا من قمع الثورة المضادة التى تقصف بقوى الثورة التحريرية المناضلة ضد الاستعمار .

فقد أثبت الرئيس سيكوتورى بذلك ان الشعوب الأفريقية المتخلفة أكثر تحضرا وفهما لواقعها وقضية مصيرها من كثير من الدول الكبرى ذات الحضارة العريقة التى تعبىء كل تقدمها لسحق حركات التحرر للشعوب .

وقد استقبل العالم قرار سيكوتورى كحادث شاذ لم يسبق له شواهد فى التاريخ ، ولكن سيكوتورى لم يجد فى ذلك غرابة بل وجده واجبا قوميا وامتدادا لتقاليد أجداده قبائل الفولا القدماء عندما كان زعيم القبيلة يحكم على نفسه بالموت اذا وهنت قوته حتى لا يحل ضعفه فى قوة القبيلة .. هذا الخلق الأفريقى الذى يربط بين الماضى والحاضر لا يختلف الا باختلاف طبيعة العصر . فالبذل والفداء هما السمة الرئيسية فى التقاليد الأفريقية ، وهذا يفسر موقف سيكوتورى ، فما أقدم عليه ليس مناورة سياسية كما وصفها البعض ، وانما هى عقيدة تنبع من تراثه الأفريقى القديم وايمان منه بأن الحرية وحدة لا تتجزأ فهو لا يتصور أن يشعر شعب غينيا بالحرية الا اذا تحررت أفريقيا .. وهو فى ذلك يقول « اننا نعلم ان غينيا ستظل تشعر بالتهديد مادامت أفريقيا ليست حرة كلها .. لنفكر فى الرجل الذى جرح أصبعه فالأصبع وحدها لا تشعر بالألم وانما كل جسد الرجل » .

أفكار سيكوتورى (صيحة التحرر)

كان سيكوتورى نموذجا من الزعماء الذين يمتازون بالوضوح الفكرى ، فلم يكن يؤمن بالأسلوب الميكيافيلى كوسيلة لبلوغ الهدف وانما كان يتخذ قراراته بايجابية وصدق ويبدأ معارك شريفة من أجلها .

بدأ اسمه يلمع على المسرح السياسى الدولى عام ١٩٥٨ عندما وقف ومعه شعب غينيا يتحدى فرنسا ويرفض الاستقلال داخل المجموعة الفرنسية . ولم يكن هذا التحدى من جانب سيكوتورى بالأمر السهل

بل كانت بداية الكفاح الحقيقي ، فقد واجه ضغوطا استعمارية فريدة من نوعها • وكما رفض سيكوتورى النظام الاستعمارى رفض كذلك سياسة التبعية والانحياز ، وأعلن ان مستقبل أفريقيا سيكون أولا وقبل كل شيء طبقا لارادة الأفريقيين ولمشيئة أبنائها وحدهم • وان موقفهم تجاه النظامين الرأسمالى والشيوعي سيتحدد بمدى مساهمتهما لشعوب القارة الأفريقيه لتتمكن من تحطيم الأغلال التى تطوقها وتتحرر من الاستعمار ومن البؤس الاجتماعى والتخلف الاقتصادى •

الأصـــالة الأفريقية

كان سيكوتورى من الزعماء الأفريقيين الذين شغلهم ايجاد وحدة فكرية تربط بين أفريقيا القديمة بتقاليدها الموروثة وأفريقيا المعاصرة بحضارتها الوافدة ، ولكنه في الوقت ذاته رفض مبدأ الاندماج الذى دعت اليه فرنسا لأنه رأى في الحضارة الأفريقية الأصيلة والحضارة الغربية شخصيتين مختلفتين تماما ،وان أية محاولة لايجاد مجتمع مصطنع التركيب عن طريق المزج بينهما ليست سوي محاولة تتعارض مع الواقع الاجتماعى والاقتصادى والسياسى والثقافى ، وهو يقول « انه لسخف كبير من جانب أولئك الزعماء الأفريقيين المندفعين وراء أوهام وفردوس الاندماج التى لا يمكن ان يصلوا اليه بأفكار واقعهم العنصرى الخاص ، ونحن لا نقصد بالواقع العنصرى مجرد الصـفات البيولوجية ولكننـا نقصـد الفروق الأسـاسية التى هى أكثر أهمية والتى لا يمكن أن تنصـهر فى البوتقة الأوربية الأفريقية التى يحلم بها هؤلاء الساسة •• لقد حطم الاستعمار شخصيتنا القومية الى حد جعل بعضنا ينظر بعين الازدراء الى قيمنا وتراثنا وتقاليدنا الأصيلة ، وصور انسانيتنا بأنها مظهر لحياة همجية بدائية لكى يخلق فينا العقد التى تؤدى بنا الى اختيار أسلوب الفرنسة •• لذلك يجب ان نسعى بجهودنا المتواصلة لايجاد طريقنا الخاص للتفكير والتطور والازدهار اذا أردنا ان يتم تطورنا دون مســـاس بشخصيتنا الأفريقية ، ان أيسر طريق لحل مشاكلنـا هو الذى ينبـع من واقعنـا الأفريقى •• وكلما كانت هذه الحلول صادرة من صميم طبيعتها وتصورها النظرى وهدفهـا العلمى كان حـل المشكلات أسهل وأبسط • لأن الذين يشتركون في وضعها لن يكونوا ضائعين فى متاهات التفكير النظرى المجرد البعيد عن واقعهم وظروفهم الخاصة ، هكذا يجب ان تعبر صفاتنا المميزة عن ابداعنا الأصيل في التفكير والعمل ، فان أكثر القوانين ثورية ستظل بلا تطبيق اذا لم يفهمها الشعب ، واذا كانت اتجاهاته وعاداته تتعارض معهـا » •

وبالرغم من دعوته للعودة الى الجذور الفكرية الأصيلة لماضى أفريقيا فهو يرفض بشدة تلك العادات والأساليب القديمة التى تعوق تقدم أفريقيا أو تقيده ، فهو يرفض مثلا ديمقراطية العشيرة أو القبيلة التى تقصر الرأى على أكبر المتقدمين سنا ٠

كذلك ينادى سيكوتورى بتحرر الفرد من كافة القيود الاجتماعية القديمة التى تعوق مسيرة التطور الحتمى للمجتمع ، فهو يرى ان الاكراه والضغط يقللان من امكانية تطوير الشخصية كما يقللان من امكانيات تطور المجتمع ٠

تصفية المتناقضات

على ان أهم معارك التحدى التى خاضها سيكوتورى هى تصفية المجتمع الغينى من التناقضات المركبة القائمة بين مصالح الشعب من ناحية ومصالح النظام الاستعمارى من ناحية أخرى وبين قطاعات المجتمع نفسه ٠

فقد كانت هناك تناقضات داخلية بين طبقات الشعب تتمثل فى المجتمع الزراعى الذى يشكل ٨٠٪ من أهالى غينيا ، فقد انقلب الزراع على الاقطاع الذى خلفه وعضده النظام الاستعمارى بعد ان انتفى النظام الاقطاعى القديم القائم على ان الارض هى الملك الأساسى والطبيعى للقبيلة ٠

وهناك تناقضات فكرية بين صفوة المثقفين الذين تأثروا بالثقافة الفرنسية وأصبحوا غرباء كلية عن حياة الأغلبية الساحقة للشعب ٠

وهناك تناقضات فى المجال الاقتصادى ٠٠ كالتناقضات القائمة فى جميع الأنظمة الاستعمارية والامبريالية الخاصة بنظم الاستيراد والتصدير ومضاربات الأرباح ٠

وتناقضات أيضا فى النظام العسكرى بين الجندى الفرنسى والجندى الأفريقى ، وبين الأفريقيين أنفسهم ٠

هكذا واجه سيكوتورى ــ كما قال ــ صراعا مزدوجا ٠٠ صراع خارجى يتمثل فى الضغط الاستعمارى ، وصراع داخلى لتصفية هذه التناقضات الاجتماعية ، وقد استطاع ان يعبر هذه المرحلة بثبات وحكمة ،

فمنذ اللحظة التى استولى فيها على الحكم بدأ باخضاع الأساليب والأنظمة والأهالى للمقتضيات الجديدة للحيـاة القومية الحرة مستعينا فى ذلك بحزبه الذى صهر فيه كل القوى الشعبية ٠

فلسفة الحزب

وان من أبرز أفكار سـيكوتورى فى التنظيم السـياسى والتكوين الحزبى لأنه لا يؤمن بتعدد الأحزاب ، وانما بنظام حزب واحد يكون بمثابة حركة قومية شاملة تضم كل جماهير الشعب ٠

والأحزاب فى نظره أنواع ثلاثة ٠٠ أحزاب تعيش على أمجاد الماضى ، وأحزاب تعيش فى الحاضر فقط ، وأحزاب تخطط للمستقبل ولا تغفل فى الوقت ذاته أحداث الماضى وتراقب اتجاهات الحاضر ٠

وحزبه « الحزب الديمقراطى الغينى » من النوع الثالث ، وهو يؤكد انه يختلف تماما عن الحركات التى عرفتها غينيا ، وذلك أنه يقوم على أسلوب علمى عماده تحليل المواقف التى تثـار وتحليل أهدافهـا وأسبابها ، لذلك فالحزب يعتمد على المثقفين الذين يكرسون ذكاءهم لخدمة الجماهير ٠

وأهم مبدأ يرتكز عليها الحزب الديمقراطى الغينى مبدأ النقد والنقد الذاتى وان يحدد ما هو الصـواب وما هو الخطأ ٠٠ حتى لا يكون من الصعب مقاومة أعداء الحزب الذين يستخدمونه وسيلة لتحقيق أهدافهم ٠

وعندما كان سيكوتورى يقول هذا الكلام كان يدرك تماما ان نظام الحزب الواحد أحيانا ما يحمل داخله تناقضات فكرية ، لذلك فهو يدعو جميع أفراده على كافة مستوياتهم ان يكونوا على أقصى درجة من اليقظة والثبات والقوة ليقضوا على المحاولات التى تعوق عمل الحزب ونشاطه ٠

الديكتاتورية الديمقراطية :

ولسيكوتورى فلسفة خاصة تسمى الديكتاتورية الديمقراطية ، فهو يقول انه لابد للحـكومة الديمقراطية من سـلطة ديكتاتورية لتنفيـذ برامجها ، فاذا كانت الديكتاتورية التى تزاولها الحكومة تنبثق من ارادة الشعب بأسره ، فان الديكتاتورية تكون ذات طبيعة شعبية ، وتكون الدولة ديمقراطية وديمقراطيتها يمارسها شعب يتمتع بالسيادة القومية ٠

فالدولة الديمقراطيـــة هى التى تقوم على ارادة الشعب ولتحقيق مصالح الشعب ، وبالتالى تستمد قوتها ونفوذها وسلطاتها من الشعب لتصبح بعد ذلك رقيبا عليه ، وبعبارة أخرى تمارس ديكتاتورية تكون قائمة على مصالح ومقتضيات السيادة الشعبية ومبادئها ٠٠ فالديكتاتورية الديمقراطية هى تركيز سلطات السيادة الشعبية على مستوى الشعب ٠

والوحدة الأفريقية فى نظر سـيكوتورى هى الأمل المجسد للشعوب الأفريقية ، ولكن قيامها يتطلب ان تسبقها الوحدة الشعبية على مستوى الاقليم الواحد ٠ كما تتطلب أيضا وعيا جماعيا وارادة مشتركة ووعيا أفريقيا وارادة أفريقية وقد أعلن سيكوتورى مرارا ان غينيا على استعداد ان تتنازل عن سيادتها لصالح وحدة أفريقيا ، وكان سيكوتورى صادقا فى ذلك فقد كان قراره منح نكروما سلطات رئيس غينيا ما هى الا ترجمة عملية لايمانه بعقيدة الوحدة الأفريقية ٠

ان سيكوتورى زعيم كبير سيذكره التاريخ ، ونحن الذين عشنا شموخ الستينات وآمال النهوض بالقـــارة الأفريقية لن تنسى هذا الزعيم الذى قاد حركة « لا » ضد فرنسا والمجموعة الفرنسية ، والذى تطع علاقات بلاده مع اسرائيل غداة حرب يونيو ١٩٦٧ من أجل نصرة الحق والشعب العربى ، أقام تجربة التسيير الذاتى لبناء وطنه ، وكان زعيما أفريقيا مسلما يؤمن بشعبه ومستقبله وبعقيدته ٠

كينيث كاوندا ٠٠ أسد أفريقيا العجوز

« لقد بذلت اقصى جهدى من أجل زامبيا ، واذ كانت قد أخفقت فليس سبب الاخفاق ـ بأى حال ـ أننى لم أحاول بذل كل ما عندى من جهد من أجل شعب هذه البلاد » ٠

كانت هذه آخر كلمات الرئيس « كاوندا » للجماهير المحتشدة حول مبنى المحكمة العليا في العاصمة لوزاكا لمشاهدة حفل تنحى كاوندا وتنصيب الرئيس « فردريك تشيلوبا » ٠

وبعد أن هنأ « كاوندا » خصمه المنتصر استطرد قائلا « هذه هى اول انتخابات فى زامبيا تجرى فى ظل أحزاب متعددة ، وكانت شريفة وسلمية ونظيفة ، وهذا فى حد ذاته انجاز حقيقى يجب أن تفخر به زامبيا » ثم استدار للجماهير وأخذ يلتقط معهم الصور التذكارية ٠

« وكاوندا »هو أول رئيس أفريقى يقبل بهزيمته ويتنازل عن السلطة طائعا عن طريق انتخابات حرة دعا هو اليها وحدد وقتها، وبذلك خرج من الحكم بطريقة سلمية تتناسب مع فلسفته الانسانية الخاصة التى هى مزيج من المسيحية والماركسية ومن التقاليد والمعتقدات الأفريقية ٠

وبسقوط « كاوندا » انتهى جيل كامل من الزعماء العظام الذين حملوا لواء التحرير فى الخمسينات والستينات وقادوا شعوبهم الى الاستقلال ، وذلك بعد أن تقاعد « نيريرى » زعيم تانزانيا ورحل « سيكوتورى » زعيم غينيا ومن قبلهما « نكروما » فى غانا « وجوموكينياتا » من كينيا « وعبد الناصر » من مصر ٠

واذا كانت هزيمة « كاوندا » ـ فى أول انتخابات تجرى فى زامبيا فى ظل التعدد الحزبى ـ تعد رفضا شعبيا له فهذا لا يمحو ولا يطمس الدور الكبير الذى قام به هذا المقاتل الأفريقى لتحرير بلده ، اذا نظر اليه فى الاطار التاريخى العام ٠٠

ان فشل « كاوندا » فى انتخابات الرئاسة أو فقده شعبيته داخل بلده أو عدم قدرته على تحقيق الرخاء لشعبه ، لا يقلل ذلك كله من دوره التاريخى الكبير سواء على المستوى المحلى أو الأفريقى ·

لقد فتح « كاوندا » أراضى زامبيا لحركات التحرير فى الجنوب الأفريقى ، وتحمل من ذلك ردود فعل حكومة جنوب افريقيا العنصرية التى صيرت زامبيا مرتعا لاعتداءاتها ، وأثقل هذا الصراع كاهل بلاده وشكل عبئا لا يجوز تجاهله عند تقييم تجربة زامبيا فى خلال العقود الماضية ·

قد تكون كل تلك الأسباب مما ساهم فى هدم « كاوندا » وقد يكون تفرد « كاوندا » بالسلطة وعدم مشاركة الجماهير فيها من تلك الأسباب التى ساهمت فى هدم هذا الهرم الكبير · ولكنه مع كل ذلك يذكر له أنه خضع لارادة شعبه وسمح بتعدد الأحزاب وسمح باجراء استفتاء على رئاسته وهو الذى حدد موعدها والتزم بها وضرب مثلا رائعا فى كيف ينحنى زعيم كبير وكيف يحترم نتائجها ويعود عضوا عاديا فى مسيرة شعبه بعد أن ظل يقوم بدور البطولة على المسرح السياسى الأفريقى أكثر من ٤٠ عاما ·

ولد « كينيث كاوندا » عام ١٩٢٤ وهو ابن قسيس بروتستانتى بمقاطعة شنسال الشمالية وكان بلده زامبيا يعرف وقتها باسم روديسيا الشمالية ، وتعلم فى مدارس التبشير وعمل بالتدريس فى الفترة ما بين ١٩٤٣ ـ ١٩٤٧ ثم اشتغل بالخدمة العامة · وبدأ نشاطه السياسى بالانضمام الى حزب المؤتمر الوطنى الأفريقى عام ١٩٤٨ وانتخب سكرتيرا عاما للحزب عام ١٩٥٣ ثم انفصل عنه ليكون حزب مؤتمر زامبيا الأفريقى عام ١٩٥٨ · وبعد ذلك بعام فرضت الحكومة العنصرية حظرا على نشاط الحزب كما فرضت قيودا على اقامة كاوندا · وعند الافراج عنه فى العام التالى انتخب رئيسا لحزب الاستقلال الوطنى المتحد · وبعد انتخابات عام ١٩٦٢ أصبح وزيرا فى أول حكومة أفريقية ، وبعدها بعامين فاز فوزا ساحقا فى الانتخابات وأصبح أول رئيس للوزراء فى البلاد ، وبعدها بشهور قلائل أصبح رئيسا للجمهورية وظل رئيسا حتى نوفمبر ١٩٩١ ·

أصبحت زامبيا بقيادة « كاوندا » تعرف فى القارة الأفريقية بأنها واحة سلام تسود فيها حرية داخلية الى حد ما · وحول « كاوندا »

اسمها من روديسيا الشمالية الى زامبيا الاسم الأفريقي ليذكر شـــعبه ويذكر العالم بشخصيتها • واتسمت فترة حكمه بأنها كانت هادئة فلم تشهد زامبيا أى نزاعات فيها قبلية أو أقليمية •

وقد أسهم « كاوندا » بقدر كبير فى تشكيل المواقف الأفريقيه فى المجال الدولى ، ورأس منظمة الوحدة الأفريقية عام ١٩٧٠ ، وصار زعيما لدول المواجهة أى مجموعـة الدول الأفريقيـة المجـاورة لجنوب أفريقيـا وتشمل زامبيـا وزيمبـابوى وبوتسوانـا وانجولا وموزمبيق وتانزانيـا •

فى الســتينات وبداية السبعينات عرف كاوندا بتشـدده تجـاه جنوب أفريقيـــا ، وهـدد أكثر من مرة بالانســحاب من الكومنويـلث البريطانى بسبب الدعم المستمر الذى كانت تقدمه بريطانيا والولايات المتحدة ودول غربية أخرى لحكومة الأقلية البيضاء فى روديسيا الجنوبية (زيمبابوى حاليـــا) وحكومة بريتوريا العنصرية فى جنوب أفريقيا • وطالب بفرض عقوبات اقتصادية ضد جنوب أفريقيا رغم صلات زامبيا البالغة التعقيد بجنوب أفريقيا ، اذ تعتمد زامبيا وهى الدولة القارية على طرق جنوب أفريقيا وسـكك حديدهـا وموانيها لتصــدير معادنها ومنتجاتها • وقام بدور هام فى تأييد الوطنيين فى كل من زيمبابوى وموزمبيق حتى حصلتا على استقلالها • ولعل هذه السياسة التحررية التى آمن بها كانت المعول الأساسى فى محاصرة نظامه والسعى لتقويضه •

قبض كاوندا على السلطة عام ١٩٦٤ ، وفى عام ١٩٧٥ أعلن نظام الحزب الواحد• وظل يحكم بحزب الاستقلال الوطنى المتحد حتى ديسمبر ١٩٩٠ وعنـدما خضـع لمطلب الجماهير وعدل الدسـتور وسمح بتعدد الأحزاب وألغى حالة الطوارىء وحدد موعدا لاجراء الانتخابات الحزبية التى جرت فى أكتوبر ١٩٩١ ، ووافق على أن تعطى الدولة معونات مالية لكل الأحزاب لخوض الحملة الانتخابيـة على أسـاس المسـاواة فى الامكانيات • وعندما سئل حينذاك عما اذا كان سيقبل باقصاء حزبه عن الحكم اذا جاءت نتائج الانتخابات فى غير صالحه أجاب بحزم « اننى ديمقراطى ، واذا قرر شعب زامبيا ان حزبى لم يعد الحزب الذى يريد أن يقوده فسيكون هذا قرارهم وسنقبله ونتصاع له » •

وهذا ما حـدث بالضبط فقـد قبـل « كاوندا » بهزيمته ووصف الانتخابات التى تمت تحت اشراف ما يزيد عن ألفى مراقب محلى وأجنبى

من بينهم الرئيس الامريكى السابق « جيمى كارتر » وفريقه الدولى ، وصف « كاوندا » الانتخابات بأنها كانت نقطة تحول فى التطور السياسى لزامبيا وانها كانت سلمية ومنظمة ، وهنأ منافسه فردريك تشيلوبا ٠ ورد تشيلوبا ٠٠ أن « كاوندا » هو الأب المؤسس لأمتنا ويجب أن يبقى فى قلوبنا ٠٠ انه هو الذى قاد البلاد نحو الاستقلال وسيظل على رأس حزبه وزعيما للمعارضة » ٠

ولكن هذه الكلمات المعسولة سرعــان ما لحسها الرئيس شيلوبا وانقلب على « كاوندا » وألقى القبض عليــــه ، ولم يشفع لكاوندا ســنه الكبير البالغ ٧٣ عاما ولا ماضيه الوطنى المضىء وزج به فى السجن دون أن توضح السلطات سبب اعتقاله ٠

وفى الســجن أضرب كاوندا عن الطعام حتى تعلن السلطات عن سبب اعتقاله ، ومثل أمام المحكمة العليا فى لوزاكا ولكن القاضى لم يجرؤ أن يوجه له أى اتهام ، وقيل ان سبب الاعتقال مرتبط بمحاوله انقلابية فاشلة قام بها ضابط صغير فى جيش زامبيا استولى على محطة الاذاعة وأعلن الاطاحة بالرئيس فردريك تشيلوبا وبسياسته التى وصفها بأنها مدمرة لزامبيا ٠ ولكن فشل الانقلاب وقبض على قياداته ، وكان «كاوندا» وقت حدوثه خــارج البــلاد فى زيارة لزيمبابوى حيث كان يزور أبناءه الذين التجأوا اليها هربا من المعاملة السيئة التى يلاقونها فى زامبيا ٠

واعتقــال « كاوندا » لم يكن أول حــادث يتعرض له من قبــل السلطات الزامبية ، فقد تعرض لمحاولتين فاشلتين لاغتيــــاله الأولى أطلق الرصاص على سيارته فأصابت اطاراتها ، والثانية عندما كان فى طريقه لحضور اجتماع جماهيرى لحزبه فحاصرت الشرطة المكان وألقت قنابل مسيلة للدموع وأحرقت المنصة وأطلقت الرصاص على سيارة « كاوندا » فأصــابته بجرح فى جبينه ، وعندما وصل الى المستشفى قطع التيار الكهربى عن المستشفى ليتأخر اسعافه ٠

وصف « كاوندا » حادث اغتيــاله بأنه من أفاعيــــل أناس مهرة يحترفون القتل ويصوبون بدقة كما حدث مع جون كنيدى رئيس الولايات المتحدة فى دالاس عام ١٩٦٢ ، وان هؤلاء من أعضــاء التنظيم الحكومى الذين جندهم تشيلوبا وأعدهم للضرب والقاء الغاز فى وجوه الجماهير ، ونفى الرئيس تشيلوبا ادعاء كاوندا وقال « ان كاوندا رجل دولة كبير ومحترم ومحبوب ولا يوجد سبب للتخلص منه ونحن ندين له بأشياء

كثيرة ، لقـد كان أول رئيس لدولتنا وله مكانة في تاريخنـا ، ولكنه استطرد محذرا « ان على الذين يطالبون بحرية الاجتماع عليهم أن يتقبلوا حرية الاعتقـال » ٠

كان السبب المباشر في اساءة العلاقات بين كاوندا وتشيلوبا الى هذا الحد المتدني هو عزم كاوندا ترشيح نفسه لانتخابات الرئاسة التى جرت في أكتوبر ١٩٩٦ (وهي الانتخابات الثانية للبلاد ٠ وقد منعته السلطات من خوضها بدعوى ان « كاوندا » ليس زامبي الجنسية وانما هو من أصل مالاوى ، ورد أنصار كاوندا بأن هذا هراء وان تشيلوبا هو الذى ليس مواطنا زامبيا وانما هو زائيرى الجنسية ، ورفعوا دعوى أمام المحكمة العليا الزامبية للطعن فى صلاحية انتخاب تشيلوبا ٠

وهكذا اشتعلت الحرب بين الخصمين وأصـبح شـغل السلطات الزامبية مراقبة « كاوندا » ورصد تحركاته ومقابلاته واتصالاته ، وبات من المألوف القـاء القبض عليـه ثم الافراج عنـه مرة بحجة عقد مؤتمر سياسى دون أن يخطر السلطات أو بزعم انه سافر بدون اذن أو ان أحد أفراد أسرته قاد سيارته بسرعة غير مسموح بها ٠ وهكذا ظل كاوندا يواجه بسيل من تهم واهية هدفها تشويه سمعته وتجميد حركته وشغله بالمشـاكل الصغيرة ، وبقى كذلك حتى وهنت صحته وشـل نشـاطه ، وانتهى هذا المناضل الأفريقى الصلب قائد حركة تحرير زامبيا الذى فتح أراضيه لحركات التحرير فى الجنوب الأفريقى وتحمل من جراء هذا ردود أفعال حكومات الجنوب العنصرية وأثقل بهذا كاهله وشكل عبئا لا يمكن تجاهله أو نسيانه عند تقييم هذا القائد الأفريقى العظيم ٠

فارح عيـديد
امير حرب أم زعيم وطنى

« ان الموت أحيانا يفسح الطريق للسلام » هذا ما قاله أحد مسئولى الأمم المتحدة تعليقا على وفاة الزعيم الصومالى محمد فرح عيديد ٠

كذلك قابلت الولايات المتحدة نبأ وفاة عيديد بنوع من الارتياح وقال نيكولاس بيرنز المتحدث باسم الخارجية الأمريكية « لاريب فى ان غياب عيديد عن الساحة سيساعد على استتباب الســـلام والأمن فى الصومال ووضع حد للنزاع هناك » ٠

وفارح عيديد يصنف العدو رقم واحد للولايات المتحدة فهو الذى الحق بأمريكا أكبر هزيمـــة بعد فتنـــام وأجبرها على مغادرة الصومال عام ١٩٩٤ ، وتكللت مهمتهم بفشل مهين ، مما دعا الولايات المتحدة رصد مكافأة مالية بعشرات الآلاف من الدولارات لمن يقبض عليه حيا أو ميتا ، ومع ذلك لا جبروت القوات المسلحة الأمريكيـــة ولا اغراء المال الوفير جعل صوماليا واحدا يرشد عن مكان عيديد ، وأدت هزيمة الولايات المتحدة — التى انفردت بزعامة العالم بعد انهيار الاتحـــاد السوفيتى — ان تتفادى الخوض فى صراعات أخرى فى العالم ٠

فمن هو هذا الرجل الذى حماه شعبه ؟ هل هو أمير حرب كما يصفه الغرب أشعل نيران الحرب فى الصومال وهدد سلامتها وأمن شعبهما ، أم كان زعيم وطنى ظهر فى غير عصره ، هل هو بطل قومى أم مجرد مجرم حرب ، هل هو محرر الصومال أم مجرد رجل متعطش للسلطة ، زعيم وطنى أم رئيس قبيلة ، قيادة أسطورية أم شخصية دموية كريهة ؟

أيا من كان فقد حملته واشنطن والأمم المتحدة مسئولية دمال الصومال وأزمته الراهنة وسعت لالقاء القبض عليه ومحاكمته كمجرم حرب ارتكب جرائم ضد الانسانية ولكنهم فشلوا فى الايقاع به رغم المكافأة السخية التى رصدوها لمن يرشد عنه ٠

ولفظ عيديد في اللغــة الصوماليه يعني شديد الباس أو صعب المراس ٠٠ وربما تنطبق هذه الأوصاف على حامل الأسم فهو رجل عسكرى من قبيلة الهوية ، شغل منصب سفير الصومال في الهند لسبع سنوات في عهد الرئيس المخلوع سياد برى ، وكان رجل طموح متمدين مغــرم بالآداب ويقرض الشعر ويتكلم خمس لغات منها الانجليزية والايطاليــة والروسية ويستطيع أن يخاطب الجماهير عدة ســاعات فيستحوذ على عقولهم ويلهب أفئدتهــم ويقنع من يســتمع اليــه حتى ولو كان من المعارضين له ٠

هذا الرجل كان يمكن ان يكون رئيساً للصومال اذا اغتنم الفرصة بعد سقوط « برى » وظل في العاصمة مقديشيو ٠ ذلك انه هو القائد الذى أطاح بالديكتاتور السابق ٠ وبعد هزيمة برى في يناير ١٩٩١ وهروبه الى كينيا مصطحبا معه كل احتياطى الذهب الخاص بالدولة ارتكب عيديد خطأه الكبير وبدلا من يدخل مقديشيو ويدعم وضعه فيها فضل مطاردة « برى » الى خارج البلاد ومكن ذلك حليفه وقتها ومنافسه بعد ذلك على مهدى محمد من السيطرة على العاصمة ٠

ومنذ ذلك الوقت ظــل الاقتتال دائــر بين الرجلين للسيطرة على السلطة ، اعتمد عيديد على زعامته والتأييد الشعبى له واستند مهدى على القوى الأجنبية الخارجية التى تحولت أغلبها من قوات تدخلت لانقــاذ الصومال الى قوات مقاتلة تقتل وتفتك بشعب أعزل بائس ٠ وهكذا تحول عيديد من مقاتل من أجل السلطة الى مقاوم ومناضل من أجــل استقلال بلاده وطرد القوات الأجنبية من أراضيها ٠

وهكذا وجد عيديد نفسه يقود الحرب الرابعة في تاريخ الصومال بعد الاستقلال ٠ وكانت هذه الحروب جميعا من أجل التحرر وجمع شمل البلاد ووحدتها ٠٠ فالصومال اقتسمته القوى الاستعمارية وصار خمسة أجزاء ، توزعت بين ايطاليا وانجلترا وفرنسا وأثيوبيــا ٠ كانت الحرب الأولى ضد أثيوبيا وشنت في أعوام ١٩٦٠ ، ١٩٦٤ ، ١٩٧٧ وكانت في اطار استراتيجية عامة تهدف الى جمع شمل أجزاء الصومال الخمســة في دولة واحدة ٠ وبعدها فشل الصوماليون في اعادة توحيد أجزاء بلادهم ٠ اندلعت الحرب الثانية ضد سياد برى بعدما وقع اتفاق سلام مع أثيوبيا عام ١٩٨٨ ، تنازلت بموجبه رســميا عن مطالبة الصــومال باقليــم أوجادين أحد الأقسام الخمسة ٠ وكانت الحرب الثالثة بعد سقوط نظام برى وحدوث فراغ سياسى أثر الاطاحة به مما فتح باب الصراعات القبلية

المدمرة على مصراعيه ولم يستطع أى من الأطراف تحقيق انتصار عسكرى على الآخر وتداعى ما تبقى من أعمدة الدولة ٠

أما الحرب الرابعة فهى التى قادها عيديد ضد الوجود الأجنبى فى الصومال وتدخل القوات الأمريكية فى حملة اعادة الأمل ثم قوات الأمم المتحدة فى حملة يونيصوم ٢ واطاحت بالرئيس سياد برى الذى كان يصور بأنه بانى الدولة الحديثة فى الصومال ، وبدلا من ان يوحد بلاده اندلعت المواجهات القبلية العنيفة ضده سرعان ماتحولت الى حرب أهليـة لازالت تزلزل أنحاء الصومال ٠

الحقيقة ان الرئيس برى لم يسقط فى يناير ١٩٩١ ، فقد سـقط فعليا هو ونظامه منذ ان انفجرت الحرب الأهلية فى البلاد فى مايو ١٩٨٨ بعد فشله فى حرب الأوجادين وأصبحت المشكلة التى تواجه الصومال هى كيفية عودة الوحدة الوطنية للشعب الصومالى وتوحيد جبهات المعارضة لصالح الوحدة الوطنية ٠ بعد أن رجعت عجلة الزمان بالصومال الى الوراء ، وبعد عقدين من حكم الرئيس المخلوع برى أصبح المطلب هو وحدة الشعب الصومالى بدلا من وحدة التراب الصومالى ، وهو الشعار الذى كان أمل الصوماليين عندما قبض « برى » على زمام السلطة فى أكتوبر ١٩٦٩ ٠

عندما قامت ثورة أكتوبر ١٩٦٩ بزعامة سياد برى ، رحب الشعب الصومالى بالانقلاب العسكرى بحماس لينهى مظالم حكم مدنى غير مستقر استمر تسع سنوات منذ نال الصومال استقلاله عام ١٩٦٠ ، ورأى فى قائد الانقلاب محمد سياد برى الزعيم الوطنى الذى سيحقق حلمه فى استقرار الأوضاع فى البلاد وتوحيد التراب الصومالى ٠ وكما سبق القول كانت القوى الاستعمارية قد فتتت الصومال الى خمسة أجزاء ، اثنان وقعا فى قبضة بريطانيا وواحد لفرنسا وجزء لاثيوبيـا والخامس لايطاليا ٠ وفى عام ١٩٦٠ استقل جزءان هما الايطـالى وواحد بريطـانى وأقاما جمهورية الصومال ٠ وبقيت معركة تحرير بقية أجزاء الصومال وتوحيده هو الأمل والحلم للشعب الصومالى ٠

والحقيقة ان محاولة تحقيق هذا الحلم الى واقع كلف برى الكثير، وكانت طموحاته هذه هى جوهر أزماته ، كما كان فشله فى حروب التوحيد أحد العوامل التى بلورت المعارضة ضد نظامه وأطاحت به فى النهاية ٠

عندما تولى سياد برى السلطة عام ٦٩ وجد نظامان متنافسان ... النظام القبلى التقليدى القائم على الرعى والمقايضه والنظام الحضرى الذى ارتبط بأجهزة الدولة ومشاريعها وارتبط انتاجه بالسوق المحلية والعالمية ٠

لم تعمل الدولة على مزج هذين النمطين فى اطار خطة للتنمية . بل ان تدخلها عبر النمط التقليدى الأول اصطدم بزعماء القبائل فى اطـــار عمليات تأميم الصادرات والواردات ، وأدى ذلك الى دخول أجهزة الدوله فى معركة مع شيوخ القبائل وأعدم بعضهم وأضيرت مصالحهم الاقتصاديه وأوضاعهم الاجتماعية بفقدانهم تجارتهم للماشـــية مع أســواق الخليج والسعودية ومصر ، وكانت النتيجة هى التماسك القبلى وعزلته عن أجهزة الدولة والاعتماد على تهريب الماشـــية وتجارتهـــا مع الدول المجاورة ٠ وبالنسبة للنمط الانتاجى الثانى المرتبط بأجهزة الدولة فقد شابه أيضا خلل فى توزيع برامج وخطط التنمية ، تمثل فى اهمال شمال البلاد تنمويا فشيدت مشاريع تنموية فى جنـــوب ووســـط الصومال آبان الحركة الانشائية العمرانية التى قادتها الدولة بمســاعدة الاتحـاد السوفيتى (سابقا) ، بينما ظل الشمال برغم الجهد الفـردى الذى بذله أبنـــاؤه المغتربون ورغم العلاقات التجارية مع جيبوتى ودول الخليج ظل غاية فى التردى والتخلف مقارنة بالجنوب والوسط ، وتزامن مع هذا الخلل فى ادارة وتوزيع مشاريع التنمية مع ما أسماه الشماليون بعمليات تنظيف المناصب العليا فى الادارة الصومالية والجيش من الشماليين ، وترتب على ذلك اثارة النعرات القبلية بين الشمال والجنوب ٠

ومن ناحية أخرى يمكن القول ان النزاع الســـياسى الذى أدى الى الحرب الأهلية فى الصومال لم يكن أصلا بين العشائر فحسب بل كان فى جوهره نزاعا على المصالح بين ثلاث مجموعات اقتصادية فى المجتمع هى الرحل والريفيون والحضر ٠ كما ينبغى التأكيد على أن السياسيين والقادة العسكريين ينتمون الى الشريحة العليا فى النظام الاجتماعى التى تشمل فقط سكان المدن بمن فيهم الأقلية المتعلمه والتى لا تشكل أكثر من ٢٠٪ من السكان ٠ وفى المقابل فان القيادة التقليدية ــ بالرغم من اضعافها طوال مايزيد عن ٣٠ ســنة من الحكم شبه الحديث وتقويض سلطتها طوال أكثر من عقدين من الديكتاتورية العسكرية لاتزال تتمتع بالنفوذ والاحتـرام لدى الأغلبية السكانية من الرحل الذين يشكلون ٨٠٪ من السكان ٠

وبسبب الاحباط لفشل نظام الحكم الحديث المتمثل في المؤسسات الحكومية والدولة لجأ الصوماليون الى نظامهم القديم وهو التنظيم القبلي أو العشائري • ومن جهة أخرى عمل نظام برى على ازكاء الخلافات بين هذه القبائل لتحقيق أهدافه ، وبث عدم الثقة بين مختلف العشائر والفصائل • وقد أدى هذا الأسلوب الى خلق نزعة الشك والريبة ليس بين القبائل فحسب بل ازاء أى سلطة مركزية وأصبح الشعب متشككا في حيدة أية سلطة مركزية ، ويظهر ذلك بوضوح ما قام به الصوماليون من تدمير كافة رموز الدولة وهياكلها ومؤسساتها في سباق حربهم ضد نظام برى •

وبالنسبة للوضع الاقتصادى فقد شهد فترة الثمانينات أزمة اقتصادية تعود للأسباب الآتية :

١ ـ حدثت تغيرات ملحوظة في أسعار تصدير الماشية الصومالية بسبب المنافسة الاسترالية الشديدة على السوق السعودية التى كانت تستوعب ٩٠٪ من الانتاج الصومالى • وأدى خوف الصومال من فقد هذه السوق الى تخفيض أسعارها ، بالاضافة الى قلة الانتاج بسبب انتشار المواجهات المسلحة مع النظام • وترتب على خفض الأسعار وتقليل التصدير انكماش دخل البلاد من العملة الصعبة • كما أثرت حرب الخليج الثانية على استيعاب السوق العربية للانتاج الصومالى مما ضاعف من الآثار السلبية للأزمة على دخول الرعاة والمنتجين والتجار •

٢ ـ أثر الجفاف الذى اجتاح شرق افريقيا وبخاصة القرن الافريقى على انتاج الثروة الحيوانية ، كما هلكت ثروة الموز الصومالى الذى يمثل نسبة هامة من صادرات البلاد •

٣ ـ لجأت أجهزة الصومال بعد ان فقدت جزءا هاما من قدراتها الاقتصادية بسبب الحرب مع أثيوبيا لاستعادة الصومال الغربى الى الاستدانة من المؤسسات المالية الدولية ، في عام ١٩٧٩ بلغ العجز فى ميزان المدفوعات ٢٢٠ مليون دولار ، وارتفع عام ١٩٨٦ الى ٣٧١ مليون دولار ، بينما وصل عام ١٩٨٨ أكثر من ٣٨٠ مليون دولار • ويعادل هذا الرقم الأخير خمسة أضعاف داخل الصادرات الصومالية • وارتفعت نسبة التضخم في نفس العام الى ١١٠٪ فى بلد لاتكفى كل صادراته لتغطية نصف قيمة خدمة ديونه البالغة ٣ مليار دولار • وكنتيجة مباشرة لذلك عم البؤس ليصير الدخل السنوى للفرد ٢٨ دولار ، واستفحلت البطالة واختفت الخدمات الاجتماعية •

٤ ـ ساهمت الهزيمة العسكرية لنظام برى فى حـــربه مع أثيوبيا والتى استمرت من سنة ١٩٧٤ حتى ١٩٧٨ ، ساهمت فى فقدان النظام الشرعية السياسية . وبالاضافه الى ما خلفته هذه الحرب من لجوء أكثر من ربع مليون نسمة الى الشمال الفقير ليزيد من مشاكله مع النظام ، فان قضية الوحدة الصومالية تعرضت لنكسة كبرى بالهزيمة أمام أثيوبيا . ومثلما اشترطت كينيا توقيع اتفاقيـة للحدود عام ١٩٨١ حاولت أثيوبيا اجبار الصومال على الاعتراف بالحدود القائمة فى اتفاقية ابريل ١٩٨٨ كشرط لتطبيع العلاقات بين البلدين ، وقادت تداعيات الهزيمة ونتائجها الى سيطرة العسكريين على المناصب القيادية فى المحافظـــات والادارات الحكومية وصارت المناصب السياسية العليا فى يد الجنوبيين . وبالذات بين أبناء عائلة برى من قبيلة المريجان الصغيرة ، ومثلما تعرضت قضية وحدة التراب الصومالى الى تلك النكسة ، تعرض أيضا الوفاق الوطنى الى الانقسام أمام جبروت الحكم الفردى وتطبيقه لسياسة قبلية . تقوم على تميز قبيلة واحدة ومنحها امتيازات خاصة وضرب الآخرين ، وأدى ذلك الى تدهور الحالة الأمنية وتزايد الاعتقالات . وولد هذا الاضطهـــاد السياسى والاجتماعى الذى اتخذ طابعا عنصريا وقبليا انبثاق الحركات المسلحة للتخلص من النظام القائم .

بروز المؤتمر الصومالى الموحد :

تشكلت جبهة المؤتمر الصومالى الموحد الذى تزعمها فارح عيديد وكان منافسة (على مهدى محمد أيضا عضو بارزا فيها) تشكلت عام ١٩٨٩ فى روما من تجمع سياسيين قدامى وضباط سابقين من قبائل الهوس فى وسط البلاد وحول العاصمة مقديشيو ومن الجنود المنسحبين من الجيش الصومالى . وأعلنت قوات المؤتمر بقيادة فارح عيديد الحرب على سياد برى واستطاعت مع القوى الأخرى (المتمثلة فى ثلاث جماعات رئيسية مقاتلة هى الحركة الوطنية الصوماليـــة التى تسيطر على الشمال ، والجبهة الديمقراطية لانقاذ الصومال التى تسيطر على الاقليم الشرقى والجبهة الوطنية لتحرير الصومال التى تسيطر على الاقليم الغربى) ، استطاع المؤتمر الصومالى الموحد بهذه القوى وبارادة الشعب من الاطاحة بالرئيس برى والسيطرة على العاصمة وطرده منها . ولكن ما ان استولى المؤتمر على السلطة حتى انشق الى فصيلين أحدهما بزعامة فارح عيديد والثانى بزعامة على مهدى محمد .

فبعد ساعات من الاطاحة بالرئيس برى قامت جماعة من قادة المؤتمر بالسيطرة على راديو مقديشيو ، دون موافقة الجنرال عيديد الذى كان

يقود المعركة ضد القوات الحكومية • ودون علمه أيضا ، وكذلك دون موافقة اللجنة المركزية للحزب • واستطاعت هذه الجماعة التى تمثل الطبقة الثرية ـ فهم أساسا من رجال الأعمال والتجار والأغنياء ـ استطاعوا مع تأييد سياسى وعسكرى قليل ان يقبضوا على السلطة ويعينوا على مهدى محمد رئيسا للصومال خلفا لسياد برى • ولم يقبل ذلك الجناح العسكرى الذى يقوده فارح عيديد ورفض هذا التصرف وقال انه لم يؤخذ رايه فى موضوع تعيين رئيس الجمهورية وان سياسة الأمر الواقع هذه لا يقبلها مهما كانت العواقب •

التدخل الأجنبى :

دار الاقتتال بين الرجلين ، اعتمد عيديد على زعامته والتأييد الشعبى له واستند على مهدى محمد على القوى الأجنبية الخارجية التى تحولت من قوات تدخل لانقاذ الصومال الى قوات تقتل وتفتك بشعب أعزل بائس ، وتحول عيديد من مقاتل من أجل السلطة الى مدافع عن استقلال بلاده ومجاهد لطرد القوات الأجنبية من أراضى الصومال ، وهكذا وجد نفسه يقود الحرب ضد الوجود الأجنبى للقوات الأمريكية فى حملتها التى سمتها اعادة الأمل (يونيصوم ١) ثم قوات الأمم المتحدة فى حملتها يونيصوم ٢ •

وقصة الوجود الأجنبى فى الصومال ، تعود الى فترة الحرب الباردة عندما كان للاتحاد السوفيتى مواطىء اقدام قوية فى منطقة القرن الأفريقى التى تمثل شرق أفريقيا وجنوب الجزيرة العربية ومدخل البحر الأحمر • وكان للاتحاد السوفيتى نفوذا قويا فى اليمن الجنوبى وفى أثيوبيا (أيام حكم مانجستو) وفى الصومال (سياد برى) فلما انهار الاتحاد السوفيتى وبدأت الحكومات المعتمدة عليه فى القرن الافريقى تتساقط الواحدة تلو الأخرى ، أرادت الولايات المتحدة ان ترث هذا الميراث وتدعم نفوذها فى هذه المنطقة الخطيرة • وجاء دور الصومال •

ومن جهة ثانية فان حركة جارنج الانفصالية فى السودان كانت فقدت دعمها الكبير الذى يأتيها من اثيوبيا بسقوط مانجستو ، وبدأت حكومة السودان المركزية تسيطر على الجنوب وتكبد جارنج هزائم هددت بتصفية حركته تصفية نهائية ، ولم يرض هذا السياسة الأمريكية بطبيعة الحال ، ونظرت الولايات المتحدة الى الصومال ان تكون موطىء قدم لها لتمد نفوذها الى السودان ولتدعم حركة الجنوب الانفصالية ...

بدأت الولايات المتحدة تتحـــرك ، تدعـم الحروب الاهليـــة فى فى الصومال وشنت حملة دعاية واسعة على الصومال وشعبه بانه لايستطيع ان يحكم نفسه بنفسه ، ويتردى فى وهاد الجوع والعرى والقتل المتبادل فى حركة أشبه بالانتحار الجماعى ، وبدت الولايات المتحدة فى صورة المنقذ المخلص « ميكى ماوس » الذى يرد الشر ويدفع الصومال الى الحضارة والوخـــاء ٠

وتحت شعار انقاذ الصومال نزلت القوات الأمريكية أرض الصومال سنة ١٩٩٢ فى عملية سمتها اعادة الأمل ، ولكن هذه العملية آلت سريعا الى عملية جلب الموت وما بدا من انها عملية تهدئة تحولت الى حرب دامية واسعة النطاق بين القوات الأمريكية الغازية والقوات الوطنية ٠ وبينما كانت الطائرات الأمريكية المروحيـــة تطلق النار على النســـاء والأطفال الأبرياء كان رجـــال عيديد يحملون جثث الطيـــارين الأمريكيين الذين حصدتهم النيران ويجوبون بها الشوارع كنـــوع من مواكب المذلة لأمريكا ، وكان مشهد القتلى الأمريكيين وصورهم عبر شاشات التليفزيون الأمريكى كافية لأن تجبر كلينتون على اعلان سحب القوات الأمريكية من الصومال وانهاء عملية اعادة الأمل ، بعد ان خشيت ان تصبح الصومال فيتنام أخرى وسلمت الولايات المتحدة المهمة للأمم المتحدة بأن تقوم بدورها فى اخضاع الصومال وهو ما عرف بعملية يونيصوم ٢ ٠

والمؤسف ان الأمم المتحدة عنـــدما استلمت الأمر شجعت فصـــائل مقاتله لم تكن موجودة أصـــلا أثنـاء الصراع من أجل الاطاحة ببرى ٠ كما يصعب القول بأن أيا من هذه الفصـــائل تمثل أى شخص ســوى رؤسائها ، واعترفت بهم لاضعاف عيديد والجنرال جسى وهما القيادتان الأساسيتان اللتان أطاحتا بديكتاتورية برى ٠

وتحقيقا لهذه الغاية أعملت القوات الدولية القتل والتدمير وحدث الصدام الدامى بينها وبين عيديد ٠ كان الصـــدام الأول عنـــدما نسفت القوات الدولية مقر عيديد ومركز قواته وقتـــل فى هذا الاشـــتباك ١٤ صوماليا ٠ ولكن عيديد أفلت ونجا من هذه الغـــارة ٠ ثم أصدرت الأمم المتحدة أمرا بالقبض عليه وقامت قواتها بتمشيط المدينة بالطائرات الهليكوبتر تفتش فى كل أنحاء المدينة عن الرجل ٠ (ودمرت هذه الغارة مقر اذاعة مقديشيو الذى كان واحدا من المؤسسات القليلة جدا التى حوفظ عليها من المجموعات المقاتلة أثناء الحرب الأهلية وذلك لأنها ليست مجرد محطة راديو وانما هى أيضا مقر وزارة للاستعلامات وهى أيضا دار

للمحفوظات الوطنية والارشيف والمكتبة الوطنية الصومالية التى تجمع آداب الصومال وثقافاتهم ٠٠ ان هذه الثروة القومية التى حطمتها قوات الأمم المتحدة باغارتها على اذاعة مقديشيو قد دمرت الى الأبد ثروة لايمكن استعادتها) ٠

ورغم الحصار الذى فرض على عيديد فقد كان الصحفيون يجدونه بسهوله ويجرون معه الاحاديث ، وكانت خطبه وأقواله تتناقل فى الشوارع وبين الجماهير ، ومع ذلك عجزت مخابرات الولايات المتحده والامم المتحدة عن ملاحقته ٠

ثم حدث الصدام الثانى بين قوات عيديد والأمم المتحدة عندما حاولت قوات الأمم المتحدة مستخدمة الهليكوبتر تدمير أماكن سلاح عيديد ٠ وقد تكون هذه السياسة العمياء فى التدمير من الجو أضرت ببعض رجال عيديد وذخائرهم ولكنها تسببت فى قتل المئات من أفراد الشعب الأبرياء واستفزت المواطنين العاديين الذين شعروا انهم يهاجمون من قوات أجنبية غريبة ، وبدت قوات الأمم المتحدة تمثل قوات احتلال وتحولت من مخلص لهم الى محتل لأرضهم ، وصارت عمليات يونيصوم ١ و ٢ فى عيون الصوماليين عمليات جلب للموت ، وتفجرت للاشتباكات العنيفة بين قوات الأمم المتحدة وبين المواطنين الصوماليين العاديين ٠ ولم يعد فى مقدور قوات الأمم المتحدة ان تسير فى شوارع مقديشيو وكان عليهم أن يستخدموا الهليكوبتر فى تنقلاتهم العادية حتى لايظهروا أمام الشعب الكاره لهم ٠ هذا الوضع الذى أصبح مستحيلا فى مقديشيو جعل الأمم المتحدة تطلب رأس عيديد ٠ ولكن فشلت كل الجهود الدولية ان تقبض عليه أو تستميل أحدا من الصوماليين للارشاد عنه وكشف مكانه وهو أبلغ دليل على ان عيديد أصبح يمثل بالنسبة لشعبه بطلا قوميا تحميه الجماهير ، فلم يفشى أحد أمره رغم المكافأة لمن يرشد عنه ٠

والحقيقة ان الأمم المتحدة عندما تدخلت فى الصومال لم يكن لديها هدف واضح سوى القبض على عيديد ٠ وقد انتقد ممثلها الخاص محمد سحنون هذا التدخل وطالب بايضاح الأهداف السياسية للعملية ، وقال ان هناك ٣ آلاف طفل صومالى على الأقل يموتون وقوات الأمم المتحدة تقف متفرجة وقد طرده بطرس غالى الأمين العام للأمم المتحدة وقتها ٠

ثم أرسل الأمين العام للأمم المتحدة مستشارا آخر هو « شنمايا جارنجان » الذى قام بجولة خاصة فى الصومال أعلن بعدها (هو أيضا

أن الأمم المتحدة تتصرف بشكل غير سليم في الصومال وان عمليه يونيصوم ٢ عجزت ان تفعل شيئا سوى قتل المئات من الأبرياء ٠

وأمام هذه الشهادات وتدهور الوضع الأمنى للقوات الدولية حاولت الأمم المتحدة احتواء الأمر بعقد مؤتمرات سياسية للقوى الوطنية ٠ ولما كان عيديد أحد أطراف هذه القوى وبما انه مطلوب اعتقاله بتهمة ارتكاب جرائم حرب ضد الانسانية فقد نشأت عن ذلك مشكلة قانونية معقدة اضطرت الأمم المتحدة فى سبيل حلها الى الغاء قرارها باعتقال عيديد وعاد حرا طليقا وصار يمثل شعارا ورمزا للقومية الصومالية التى تدافع عن نفسها ضد القوات الأجنبية التى تطالب بدمه ، وأصبح بطلا قوميا ورمزا لدفاع الصومال عن نفسها ضد التدخل الأجنبى وزادت شعبيته بين أنصاره ، فزار دولا عدة لقى فى معظمها استقبال الرؤساء وزاد هذا قناعته بانه الرئيس الوحيد للصومال ٠ ولكن لم يكتب لعيديد ان يحقق هذا الحلم فقد أزعج سلوكه الرئاسى أقرب الأشخاص اليه وممول آلته الحربية « عثمان على حسنى » الملقب « عطو » فانشق عليه وتحالف مع خصمه اللدود « على مهدى محمد » الذى نصب نفسه أيضا رئيسا للصومال ٠ وفى معركة مع فصيل على مهدى جرح عيديد وضاعف من شدة اصابته بمرضه بالسكر ، ثم أعلن وفاته متأثرا بجراحه ٠

★★★

لا جدال ان عيديد كان قوة رئيسية في الصومال وكان رئيس الفصيل الكبير الذى ينطوى تحته قبائل كثيرة ، البعض يعتقد ان وفاته ستترك فراغا سياسيا وان اختفاءه سيحدث المزيد من التردى ويدفع الى مجابهات جادة بين القوى والفصائل المختلفة ، فى حين يأمل البعض الآخر ان يسمح زوال عيديد فى جمع الفصائل المتنافسة على مائدة مفاوضات تهيء لوضع حد للنزاع فى الصومال ٠ ولكن الأمر ليس على هذا النحو من السهولة والبساطة فقد علق هيرمان كوهين وزير الشئون الافريقية فى حكومة بوش التى تم لديها التدخل الأمريكى فى الصومال ، علق قائلا ان القضية ليست مائدة مفاوضات ومصالحات واجماع بين الفصائل وانما هى قضية شكل الحكم فى الصومال ، اذ يجب ان يتوفر بديل عن المركزية القوية التى كانت تفرضها حكومة برى ، فاذا وجدت حكومة ضعيفة تسمح بدور فعال للعشائر يمكن التوصل الى نظام مستقر فى الصومال ٠

الحقيقة ان الدور الذى قام به عيديد فى الصومال يعيد الى الازهان الزعامات الافريقية التى استطاعت ان تقاوم الاحتلال الأجنبى وتعيد صورة الزعامات الوطنية التى ظهرت بعد الحرب العالمية الثانية وقاومت وتصدت للاستعمار مثل نكروما وسيكوتورى وجومى كينياتا ونيريرى وغيرهم من جنوب الصحراء . واذا كان عيديد لم يمتد به العمر ليحقق حلم استقلال بلاده ولم شمل ترابها فهذا لا ينفى عنه انه كان زعيم التف حوله شعبه وحماه من القوات الأجنبية عندما طالبت برأسه . واذا كان موته قد يفتح الطريق الى السلام كما تقول الولايات المتحدة ، فالسؤال أى سلام سيكون ؟ هل سلام يحترم السيادة الوطنية لشعب الصومال أم سلام « بكس رومانا » السلام الرومانى الناتج عن هيمنة منفردة لامبراطورية واحدة على العالم كله كما كانت روما فى فترة ما قبل الميلاد .

الرئيس خاما

شيخ للقبيلة فى الرابعة من عمره ٠٠ خريج الجامعات البريطانية ٠٠ زوج لبريطانية فى شبابه ٠٠ ثم رئيسا للجمهورية ٠٠ ظل يحارب فكرة القبلية حتى الموت ٠٠ وعندما مات أصبحت المشكلة صراعا قبليا حادا ٠

هو الرئيس « سيرتيس خاما » رئيس بتسوانا الذى مات فى يوليو ١٩٨٠ ، وأحدث نبأ وفاته تكهنات وتساؤلات حول مشكلة الاستقرار فى بقعة تموج بالاضطرابات والقلاقل ٠ وبتسوانا دولة أفريقية صغيرة المساحة والامكانيات والتعداد ، لكن وضعها الجغرافى داخل حدود جنوب أفريقيا فرض عليها ان تصبح بؤرة للأحداث سواء شاءت أم لم تشأ ٠

كانت بتسوانا احدى المحميات البريطانية الثلاث التى تقع داخل حدود جنوب أفريقيا وعندما أعلنت بريطانيا عزمها على الانسحاب من القارة الافريقية ومنح مستعمراتها الاستقلال ، حصلت بتسوانا على استقلالها عام ١٩٦٦ فى هدوء ٠ وأصبحت جمهورية يتولى رئاستها الرئيس الراحل « سيرتيس خاما » ٠ ويقال ان بريطانيا كانت وراء وصوله الى الحكم فهو حفيد زعيم قبيلة « باما نجوانا » التى يبلغ تعدادها نصف سكان الدولة وكان « خاما » قد صار رئيسا للقبيلة وهو فى الرابعة من عمره ٠ وعندما سافر الى انجلترا لاستكمال دراسته تزوج من بريطانية وادى هذا الى انقسام داخل قبيلته واقصائه عن رئاستها ٠

وفى عام ١٩٥٦ عاد « خاما » الى بلاده ، وبتأييد من الادارة البريطانية الحاكمة عين فى الجمعية التشريعية ، ثم أصبح رئيسا للوزراء وانتخب رئيسا للجمهورية منذ عام ١٩٦٦ ٠ ومنذ تولى الرئاسة أعلن انه سينتهج سياسة بعيدة عن النظريات السياسية ٠ ولكنه أصر على استمرار النمط الغربى للحياة فسمح بتعدد شكلى للأحزاب مع الاستئثار بالسلطة وأعيد انتخابه رئيسا ثلاث مرات متتالية رغم مرضه وضعفه وعجزه عن مزاولة عمله ٠

عندما تولى « سيرتيس خاما » حكم البلاد كانت مشكلة الصراعات القبلية على أشدها ٠ ورغم أنه من قبيلة « البامانجوانا » أكبر القبائل فى

بتسوانا ، وهذا وحده كاف لكى تسود قبيلته الا أنه للحقيقة والتاريخ وقف باصرار ضد التحاملات الطائفية والمشاعر العرقية ، واختار عددا من أبناء قبيلة أخرى هى « الباكالانجا » فى حزبه الحاكم وعين بعضهم فى وظائف هامة فى جهاز الدولة متحديا بذلك قبيلته فى رفضها لهذا المسلك ٠

وتمثل قبيلة « الباكالانجا » ١٥٪ من تعداد البلاد ، وهى ليست أصلا ، من بتسوانا فهى من زيمبابوى ولكنها تشكل حاليا أقلية قوية لها لغة متميزة وثقافة موحدة وكثير من رجالها صاروا من كبار رجال الأعمال الناجحين وموظفين فى الادارة الحكومية ٠

وحتى الاستقلال كانت العلاقة بين هذه القبيلة الوافدة وبين أغلبية السكان الذين يتكلمون لغة « التسوانا » يشوبها كثير من العداء والعنف ، ولكن ما اتبعه الرئيس « خاما » من سياسة عاقلة مع الأقليات القبلية وقبوله تعيين عدد منهم فى وظائف حساسة جعلت ظاهرة الخلافات القبلية تختفى فى العلانية ٠ وصارت أقرب الى الأسرار الوطنية الواجب رعايتها بدقة ٠ ولم تناقش قط نقاشا مفتوحا فى أى جهاز من أجهزة الدولة ٠

ولكن فجأة برزت على السطح وبشكل حاد مشكلة التعصب القبلى ، وشهد برلمان بتسوانا مناقشات حامية تبادل أعضاؤه خلالها العبارات الغاضبة تتهم المحسوبية القبلية فى الوظائف والتعليم ، وأصبح البرلمان ساحة للاتهامات العرقية واثارت الخلافات القبلية بحيث صعب على الحكومة احتواؤها أو الرد عليها ٠ وكل ما فعلته الحكومة انها ركزت جهدها فى الضغط على المنشآت الانجلو أمريكية فى البلاد لتتبع فى التعيين نظام الحصص من الجماعات القبلية المختلفة ٠

ومما زاد حدة الخلافات القبلية تضخم عدد اللاجئين الى البلاد من جنوب أفريقيا ومالاوى وموزمبيق وانجولا وليسوتو ٠ وكانت الحكومة قد أنشأت فى عام ١٩٧٨ معسكرا فى منطقة تعرف باسم « دوكوى » ليكون مقرا مؤقتا لايواء اللاجئين من روديسيا أثناء حرب التحرير ٠ وباستقلال روديسيا (زيمبابوى) وعودة اللاجئين اليها ، رغبت السلطات فى بتسوانا ان تحول هذا المعسكر الى مركز للاجئين القادمين من جنوب أفريقيا والذين زادوا بشكل ملحوظ فى أعقاب اضطرابات « سويتو » التى حدثت فى يونيو عام ١٩٧٦ وأغلب هؤلاء المهاجرين طلاب وشباب فى سن العشرين ٠ ولكن هؤلاء رفضوا ان يتجمعوا فى معسكر واحد أو يتركزوا فى مكان يكون فى متناول جنوب أفريقيا ٠ وقد رفضوا بشدة

طلب الحكومة فخيرتهم أما التوجه فى سلام الى المعسكر أو أن يقصوا عن البلاد · وهددت الحكومة ٧٠٠ شخص منهم بتسليمهم الى سلطات جنوب أفريقيا اذا لم يمتثلوا للأمر ·

وتوتر الوضع أكثر عندما صعدت جنوب أفريقيا هجماتها وعدوانها على الأهالى لقمع الثورة الأهلية فى داخلها فتدفقت أعداد كبيرة من اللاجئين الى بتسوانا ، زادوا الأمور تعقيدا ، وأنحى الساسة باللائمة على المهاجرين واتهموهم بتحريض الجماهير ضد السلطة الحاكمة رغم انه لا توجد شواهد تثبت هذا الزعم ·

وعزا السياسيون كل ما يواجهونه من اضطرابات وتظاهرات وقلاقل الى طلبة جنوب أفريقيا اللاجئين واتهموهم بانهم مصـــدر النشـــاطات المعادية · وفى الوقت نفسه استفادوا من هذا الوضع وطلبوا من برامج الأمم المتحدة للتنمية زيادة المعونة لبتسوانا ومدها بمواد غذائية لمواجهة مشاكل البلاد ·

وفى هذه الظروف الصعبة مات « سيريتس خاما » بينما تتصاعد الصراعات القبلية التى وهب حياته للكفاح ضدها ·

ان خاما نموذج للرؤساء الأفارقة الذين آمنوا بالفكر الغربى وحكموا على النمط الغربى من تعدد أحزاب فى وقت كان الحزب الواحد هو النظام السائد فى أغلب دول أفريقيا ، ووقف باصرار ضـــد القبلية والعرقية ، ولكنه لم يستطع ان يقيم حكما ديمقراطيا سليما لأن التعدد الحزبى كان شـــكليا واســـتأثر هو بالسلطة ، ولم يستطع ان يقضى على القبليـــة لأنه كبت رغبات شعبه ·

الكاباكا فى أوغندا
يبعث الممالك القديمة

سمعنا عن امراء وملوك فى أوربا استردوا عروشهم بعد الاطاحة بهم أو بذويهم وظلوا فى المنفى سنوات ثم عادوا ملوكا على بلادهم ، ولانزال نسمع عن المطالبين بالعروش ، أما فى أفريقيا ـ فلعلها أول مرة يسترد فيها أمير مملكته ، جرى ذلك فى أوغندا والجديد ان هذا الأمير عاد ملكا على شعبه وليس ملكا على مملكته التى لم يعد لها وجود ٠

ففى حفـل مهيب تكلف أكثـر من ٢٠٠ ألف دولار توج الأمير رونالد موبندا موتيبى الملقب برونى واعترف به الكاباكا رقم ٣٦ لشعب الباجندا ، وذلك بعد ٢٩ عاما من عزل والده عن عرش باجندا ٠

ومملكة باجندا هى احدى الممالك الخمس التى تكونت منها أوغندا ، وحتى نهايات القرن الماضى لم يكن على خريطة أفريقيا شىء يسمى أوغندا وانما أطلق عليها البريطانيون هذا الاسم عندما فرضوا الحماية على هذا الجزء من أفريقيا عام ١٩٠٠ ٠ وكانت باجندا التى تقع شـــمال بحيرة فكتوريا أرقى هذه الممالك التى تكونت منها أوغندا الحالية وأكثرها تقدما، وأدهشت الرحالة البريطانى برتون مكتشف منابـع أعالى النيـل لما رآه فيها من مبانى جميلة وطرق منظمة وزراعة متطورة حتى انه شبهها بالريف البريطانى ٠

ويعود التاريخ المعروف لمملكة الباجندا الى بدايات القرن ١٦ عندما تأسست فيها مملكة اوتوقراطية سيطرت على القبائل المحيطة بها وحكمتها بقبضة حديدية ، وكان ملكها يطلق عليه الكاباكا يعاونه مجلس مكون من رؤساء القبائل والعشائر يسمى الكيكويو ٠ ولم يكن الكاباكا يمكنه أن يبرم أمرا دون أن يعرض على مجلس الكيكويو ويحصل على موافقتهم ٠

وفى نهايات القرن الماضى وبالتحديد فى عـام ١٨٩٤ أعلنت الحماية على أوغندا ، وظلت أوغندا تحت السيطرة البريطانية حتى حصلت على

الاستقلال عام ١٩٦٣ وأصبح الكاباكا والد الأمير رونى رئيسا للدولة • ثم أطيح بالملكية وأعلنت الجمهورية فى أوغندا عام ١٩٦٦ وتولى ملتون أوبوتى الذى كان رئيس الوزارة رئاسة الجمهورية • ومنذ ذلك التاريخ ظل الأمير رونى يحلم بالعودة الى بلاده ، وظل شعب الباجندا يحلم أيضا بعودة الكاباكا . ويقال أن قبيلة الباجندا لعبت دورا كبيرا فى الاطاحة بأوبوتى اذ كانت من أكبر خصومه ومعارضيه •

ظل مستقبل ملكية الباجندا موضع شك حتى تولى الرئيس موسوفينى السلطة فى يناير ١٩٨٩ فأشار الى انه سيعيد الملكية لشعب الباجندا ، ولكن ظل ذلك مجرد وعد حتى وفى به بعد مفاوضات جرت بين الأمير رونالد الملقب برونى وبين الحكومة الأوغندية شهدت أثناءها العاصمة كمبالا تظاهرات الآلاف من الباجنديين المناصرين للملكية المطالبين بالعودة لها واسترداد حقوقهم وما كانوا يمتلكون •

فى ٣١ يوليو ١٩٩٣ تحقق حلم شعب الباجندا وعاد الأمير رونى موتيبى ليعلن عودة الملكية فى احتفال مهيب •

جاء المحتفون من كل أنحاء البلاد وبعضهم حضر من الخارج ، وبدأ عدد منهم رحلاتهم قبل يوم الاحتفال بأسابيع ، ومشى البعض على أقدامهم وركب البعض الدراجات ووصل أكثرهم بالحافلات والسيارات وعربات الأجرة والطائرات • كانت الرحلة من كمبالا تتجه الى مقر الاحتفال فى تلال بودو ، وما لبث ان صار هذا المكان تيارا هادرا من البشر •

فى ذلك الصباح كان حوالى ٢٠٠ ألف أوغندى يحيطون بمنطقة ماشيبوكا المقدسة فى تلال بودو ، تجمع هؤلاء جميعا بهدف واحد هو مشاهدة تتويج الكاباكا الجديد الملك الروحى والزمنى لشعب الباجندا ، ووسط الغبار وتحت شمس أوغندا الشديدة كان الناس يتحلقون ويتصافحون يرحب بعضهم ببعض ويلتقى الأصدقاء ويرقصون ويشربون ويتكلمون كانوا يبتسمون ويضحكون ويقدمون الطعام والشراب والترحيب بالجميع ، فقد كان تتويج صاحب الجلالة رونى (رونالد موتيبى) بوصفه الكاباكا السادس والثلاثين لباجندا اعادة لربط شعب الباجندا واسترجاع قوة تماسكهم التى تميزت بها على مدى ألف سنة من التاريخ القديم ، والآن ــ مرة أخرى ــ يعودون وكأنهم أناس من الماضى •

ان تاريخ الباجندا اضطرب عندما أطاح بالقوة الرئيس ميلتون اوبوتى بالملك وليام فردريك موتيسا والد رونى ، ووقعت أوغندا فى الفوضى تحت حكم اوبوتى ثم حكم خلفه عيدى أمين ، وتناثر الباجندا فى أنحاء البلاد وبعضهم أتبع الملك فى المنفى •

ومات الملك موتيسا فى المنفى فى بريطانيا بعد ثلاث سنوات من الاطاحة العنيفة به ، مات فقيرا مكسور القلب ، ولكن باحترام بالغ ٠

عندما ولد رونى موتيبى عام ١٩٥٣ كان أباه موتيسا مغضوبا عليه من حاكم أوغندا البريطانى سير اندرو كوهين لوقوف موتيسا فى وجه الحكم الاستعمارى ٠ وكان رونى الطفل الثالث عشر من ستة عشر طفلا لوالـده ٠

أعد رونى منذ نعومة أظفاره للقيام بمهام خاصة ، وكان أبوه يصحبه معه وهو فى الثالثة من عمره فى غزوات الصيد ، وكان طفلا سريع الفهم يحاكى والده ويعيش مع حرسه ويعتبرهم أصدقاءه ، وقد تعلم بسرعة شديدة كيف يتعامل مع الدبلوماسيين ٠

فى عام ١٩٦٢ أرسل موتيسا ابنه رونى الى انجلترا ليتعلم ، وفى ذلك الحين كانت الأزمة فى أوغندا بلغت ذروتها ، واقتحم ملتون أوبوتى قصر الكاباكا واجبر موتيسا على التنحى والسفر واللجوء الى انجلترا ٠ وعندما مات موتيسا ورفض أوبوتى ان يعاد جسده ويدفن فى باجندا كما توجب العادات ، واعد له ضريح مؤقت فى انجلترا ٠ وبعد مراسيم دفنه أعلن مؤيدى الملك السابق ان ابنه رونى البالغ من العمر ١٤ عاما هو الكاباكا التالى ، ووضع الصبى بعض الأغطية على جسد أبيه كدلالة على انه قد خلفه ٠

شعر أوبوتى بحساسية شديدة لهذا الاعلان ، فحذر رونى من العودة الى بلاده وهدده بأنه اذا وضع قدمه فى أوغندا فسيقبض عليه على الفور ، ولكن لما تولى عيدى أمين السلطة بعد ان أطاح بملتون أوبوتى سمح لجثمان الملك السـابق موتيسـا أن يعود الى أوغندا ويدفن فيها طبقا للعادات المرعية ، وتكمله للطقوس أعلن أحد كبار الباجندا رسميا ان رونى موتيبى هو الكاباكا الجديد ٠ ولكن لم تتخذ اجراءات التتويج لأن الملكية كانت قد ألغيت فى أوغندا ٠

ظل رونى فى انجلترا يكمل دراسته فى كامبردج ، وابدى اهتماما بالعلوم العسكرية وطلب من الحكومة البريطانيـة السـماح له بالالتحاق بكلية عسكرية ليتدرب فيها ولكن طلبه لم يقبل حتى لا تتوتر العلاقات البريطانية بالنظام فى أوغندا ٠

وبقى رونى فى كامبردج مدة قليلة درس فيها الصحافة ، وكتب فى صحف متنوعة ووسائل نشر عديدة ، وكانت هذه المدة فترة عصيبة

بالنسبة له اذ كان ملكا بغير تاج وذا مملكة بغير وطن · ولكنه كان يتصرف كما لو كان ملكا ·· كان واثقا من نفسه وكان يميل الى المزاح والفكاهة شديد الاهتمام بالموضوعات التى تتعلق بافريقيا ، وكانت تحليلاته عنها عميقة ، كما كان يهتم أيضا بعرض الكتب ويختارها بعناية ويعرف جيدا الكتاب الذى يثير الاهتمام · وقد قام بعرض مذكرات زعيم جنوب أفريقيا التقليدى بوثوليزى التى جذبت الانتباه وكشفت عن الصراعات الحادة بين قبائل جنوب أفريقيا ·

كان عام ١٩٧٦ نقطة تحول فى حياة رونى اذ انغمس فى الصراع الدائر من أجل تخليص أوغندا من الحكم الديكتاتورى ، وساعد رونى حركات المقاومة التى كانت تحارب بأسنانها وأظافرها من أجل تخليص أوغندا من ملتون أوبوتى بعد أن عاد الى الحكم مرة أخرى ، ومن منفاه أيد رونى عددا من حركات التحرير التى طلبت منه المساعدة ، كما بذل مساعى فى تنقية الخلافات بين جماعات المقاومة ، وانجذب بشكل خاص الى موسوفينى واهتم به رغم ان موسوفينى كان وقتها ضعيفا ولا يزال يحتاج الى الوقت لكى يستطيع أن يواجه اوبوتى ، ولكنه كان بمثابة الحصان الفائز الذى لعب عليه رونى فساعده وأيده حتى نجح موسوفينى بالاطاحة باوبوتى وتولى السلطة ·

عاد رونى موتيبى الى أوغندا وقضى وقته فى العمل مع الجماعات المحلية وتجديد العلاقات القديمة والتجوال فى المناطق التى دمرتها الحرب الأهلية ، وبعد ثلاثين عاما وفى تلال بودو اذن للملك أن يتوج من جديد على عرش الباجندا وجاءشعبه ليستعيد تاريخه · وتجمعت كل قبائل الباجندا البالغة ٥٢ قبيلة وحضر كبراؤها ومن يمثلهم ليقدموا المراسم للأمير الذى صار ملكا ·

تعود مراسم التتويج الى زمن موغل فى القدم الى عصر الكاباكاكنتو سنة ١٣٠٠ الذى ينظر اليه كمؤسس لمملكة الباجندا · وتذكر الأسطورة أن الأمير كنتو مؤيدا من خمسة من قبائل الباجندا حارب أخاه بمبا وهزمه ودفن رأس أخيه المهزوم فى ناكيبوكو ، وفى هذا الموقع نبتت شجرة كبيرة تشكل جذورها ما يشبه العرش وتعرف بنامولوندو أى المقعد الملكى للسلطة ·

يبدأ الاحتفال بالكاباكا والكاتيكيرى (رئيس الوزراء) مع جيشهم يقتربوا من المكان المقدس ويقابلهم سيمانوب صانع الملك الذى يسألهم

عما يريدون فيجيبون ان النار تشب ونحن آتينا بالأمير الذى أختير ليكون الملك الجديد · ويشتبك سيمانوب وجماعته المسلحون بالعصى من عيدان قصب السكر وأوراق الموز كدروع يشتبكون مع الكاباكا فى صراع رمزى ثم يهزمون ويتبعدون فيواصل الأمير سيره لقمة التل ·

وطبقا للعادات فان الأمير المتوج المنتصر يجرح فى المعركه ويتجه الى قرية بوانيكا ليغتسل وينظف نفسه من الدم ، ويجرى ذلك فى سرية ثم يظهر الكاباكا من موانيكا محمولا على أعناق أعضاء من قبيلته بوفالو ، ثم يدعى ليقف على العرش التقليدى ويسلمه سيمانوب والملكة الأخت ملابس احتفالية خاصة مصنوعة من جلد النمر ثم يعطى عددا من الرماح ودرع ليدافع عن الباجندا وعن مملكته ، ثم تجرى الذبائح كرمز لكرم الكاباكا على شعبه ·

وبتتويج الكاباكا بواسطة كبار رجال قبيلته يبدأ دق الطبول التى تعرف باسم ماجوجوزو وهى أصوات عنيفة تصاحبها زغاريد آلاف النساء الحاضرات ، وهذه الطبول الخاصة لا تدق الا فى حضور الكاباكا ·

ويعطى الكاباكا عهوده للقبيلة والشعب ويحمل منتصرا بواسطة قبيلته بوفالو عائدا الى مونيكا ، وفيها يجرى احتفال آخر بالغ السرية تجفف فيه دموع الحزن على أبيه المتوفى · وبعد فترة قصيرة يبدأ احتفال آخر يسمى الاحتفال المسيحى حيث يخلع الكاباكا ملابسه التقليدية ويرتدى سترة خاصة ترمز الى التتويج الرسمى ·

وخلال اجراءات هذه الطقوس كان رونى تبدو عليه ملامح الجدية والوقار ، وظهر بوضوح انه رجل عصرى ذو أفكار عصرية الا انه فى الوقت نفسه يؤكد على أهمية احترام الطقوس التى تنبعث من جذور ثقافية عميقة تستبقى وحدة الباجندا فى عالم سريع التغير ·

حضر حفل التتويج الرئيس موسوفيتى الرجل الذى أعاد الكاباكا الى شعبه وظهر كضيف شرف محفوفا بالتقدير ، وذهبه موسوفيتى لأبعد من ذلك فأمر بأن يسترد رونى قصر والده الذى كانت قيادة الجيش اتخذته مقرا لها ، وأمر ان يعود القصر الى استخدامه الطبيعى باعتباره مقر الكاباكا ، خاصة ان الملك الجديد لا يملك منزلا خاصا وكان يقيم فى بيت جدته ·

قال رونى انه سيبتعد عن السياسة وانه يرغب فقط في تحديث مملكه الباجندا من الناحية الاجتماعية والاقتصادية ، وانه سيهتم بالزراعة وتشجير البلاد حتى تعود واحة خضراء كما كانت فى العهود الماضية • وأنه ضد الأعراف والتقاليد القديمة الخاطئة • وقد تمرد فى زواجه ورفض أن يختار له كبار القبيلة زوجته واختار هو زوجة له وأعلن انه سيستمر فى العيش معها ومع ابنه منها • ولكن بعض التقليدين من كبار الباجندا لا يعترفون بزواجه هذا ويقولون ان هذا الأمر سيثير أزمة حقيقية وأن على من يتولى العرش ان يخضع للتقاليد والأعراف التى تبقى لشعب الباجندا تميزه واستمراريته •

ومن جهة أخرى فان استرداد الوضع الملكى فى أوغندا يواجه معارضة من كثير من شباب الباجندا الذين يرفضون العودة الى الماضى وهم أبناء الجيل الجديد الذين اعتنقوا المسيحية وتعلموا تعليما حديثا وانفتحوا على العالم الخارجى ، وهم يذكرون ان الكبار من الباجنديين التقليديين لا يزالون يؤمنون بالآلهة : لوبال وأمندو وهذا يتعارض مع المسيحية ، كما أن هناك شعائر تتعلق بالملك تخطاها الزمن وصارت لا موضع لها فى أوغندا الحديثة • فمثلا يتساءلون هل سيصر الملك على أن يركع له رعاياه وينحنون على الأرض أمامه ؟ وهل سيصر على حقوقه الجنسية على رعاياه الاناث ؟ وهل سيسمح بالسحر وعبادة الأوثان ؟ •• ومن الناحية السياسية هناك أبناء شعب الباكنتو الذين يدعون انهم مؤسسوا أمة الباجندا ، ويريدون هم أيضا التمتع بمميزات الباجنديين وهذا ما يسبب انقساما داخل القبيلة • وهناك من يريد أن يتجاوز الكاباكا الوضع الثقافى ليصبح قائدا سياسيا وهذا يشكل جذور الصراع داخل أوغندا • وكان قد اتفق خلال المفاوضات التى جرت بين الحكومة ورونى أن ينحصر دور الكاباكا الجديد فى احياء الثقافة والتقاليد البوجندية دون أن ينغمس فى السياسة أو ان يكون له دور سياسى ، وهذا ما أعلنه رونى فى احتفالات تتويجه ولكن ذلك لا يرضى شباب الباجنديين •

عيدى أمين .. مهرج أم زعيم

لم تثر شخصية أفريقية اهتمام الرأى العام بقدر ما أثارته شخصية الرئيس الأوغندى السابق « عيدى أمين » . فقد دأبت الصحافة الغربية على الكتابة عنه بشكل يثير السخرية والحنق عليه .. قاهر الامبراطورية البريطانية .. ظهر .. اختفى .. عاد تقدم تقهقر .. ترك العاصمة .. اختبأ .. وهكذا تصوره كظاهرة من ظواهر التخلف .

فمن هو عيدى أمين ؟ أهو مهرج أم زعيم وطنى شـــاء أن يؤكد استقلال بلاده ؟

الحقيقة أن « عيدى أمين » شخصية معقدة تحتاج الى نظرة متعمقة لتقييمها . فهو من أغرب الرؤساء الذين حكموا فى القرن العشرين . ومن أكثرهم جـرأة فى اتخـاذ قرارات غير متوقعـة لا شأن به بالقوانين الدولية ولا بالسلوك الدبلوماسى ، وهو لا يبالى بسمعته ولا يهتم كثيرا بما يوصف به وما يطلق عليه ، جذب الأنظار بتصرفات تخلط الجد بالهزل ومواقف جريئة لا تؤمن بسياسة أوغندية ثابتة فالسياسة فى نظره فى تغيير مستمر حسب مواقف الدول منها . ومن هذا المفهوم كانت ردود فعـله حادة وحـازمة . طرد النفوذ الصـهيونى والأمريكى والبريطانى والكندى لتدخل هذه الدول فى سياسته ، وطرد الأسيويين الذين كانوا يسيطرون على عصب الحياة الاقتصادية فى أوغندا كمحاولة لتحرير اقتصاد البلاد من الجاليات الأجنبية التى وصـفها بانها عميلة للاستعمار .

وكان هذا الاجراء ـ طرد الأسيويين ـ الذى اتخذه « عيدى أمين » فجر استيلائه على السلطة نقطة البداية فى محاربة الغرب له . انطلقت أبواق الدعاية الاستعمارية فى الهجوم عليه بل وفى الهجوم على كل اجراء يتخذه بلد أفريقى لتحرير اقتصاده ، وذلك عن طريق التركيز على ان كل اجراء يقصد به ضرب المصالح الأجنبية انما هو لون من ألوان التفرقة العنصرية يمارسه السود ضد البيض !!

وقرار طرد الأسيويين قرار لم تتخذه أوغندا وحدها بل سبقتها دول شرق أفريقيا فكينيا اتبعت سياسة تدريجية لاستبعاد الاسيويين عن مجالات الاقتصاد ، سحبت تراخيص الاتجار من غير المواطنين وتشددت في منح اذونات الاقامة · وتجنبت تانزانيا مثل كينيا الاشارة الى مسألة العنصر واتبعت سياسة التأميم وأصدرت قانونا بتحريم الاقطاع وكان هذا ضربة قوية للجالية الآسيوية أكثر من أى جالية أخرى · وكادت أوغندا تسلك نفس الطريق ففى مايو ١٩٧٠ أعلنت حكومة « ميلتون أوبوتى » الرئيس الأوغندى الذى أطاح به « عيدى أمين » فى بداية عام ١٩٧١ ، أعلنت أنها عازمة على أفرقة الاقتصاد بحيث يصبح مع عام ١٩٧٧ أفريقيا تماما ، وفرضت قيودا على تجارة التجزئة وطالبت من غير المواطنين أن يحصلوا على تراخيص لممارسة هذا النشاط وحدت من منحها لهم ، وأخذ الأسيويون من غير المواطنين فى الرحيل عن أوغندا بمعدل ألفى شخص كل شهر ·

ولم تستطع الدول الغربية أن تهاجم هذه الاجراءات وقتها فلا يجرؤ أحد على القول بأن التأميم اجراء عنصرى ، حتى جاء قرار الرئيس « عيدى أمين » بطرد جميع الآسيويين فاستغلت الدوائر الغربية هذا الاجراء بشن حملة عنيفة عليه ، وبدأت المؤامرات والانقلابات ومحاولات الاغتيال ضده · ففى عام ١٩٧٢ قام المنفيون الأوغنديون أنصار الرئيس السابق « ميلتون أوبوتى » الذين لجأوا الى تانزانيا بمحاولة انقلاب فاشلة ، وتمت مصالحة بين أوغندا وتانزانيا أدت الى نزع سلاح رجال « أوبوتى » ومنعهم من التدريب فى تانزانيا · وكان يمكن أن يعود حسن الجوار بين البلدين الأفريقيين الا أن الرئيس « عيدى » اتخذ قراره الثانى الذى أثار تانزانيا وهو الخروج من منظمة شرق أفريقيا الاقتصادية التى كانت تتزعمها تانزانيا ، وأدى هذا الانسحاب فى النهاية الى حلها · يضاف الى ذلك استضافة تانزانيا لأوبوتى وأنصاره فأخذ الخلاف يتعمق بين الرئيسين نيريرى وأمين ·

ثم كان اجراؤه الحاد الثالث بتصفية الجيش الأوغندى التقليدى بأسلحته الغربية وبناء جيش جديد بأسلحة شرقية مع اقامة علاقات وثيقة مع الدول الاشتراكية ، ولكنه وقع فى خطأ تشكيل هذا الجيش عنصريا فاعتمد على بعض القبائل من الشمال وخلق نوعان من الميليشيا الخاصة المتميزة من كل القوى الشعبية ، فأثار ذلك عناصر الجيش الوطنى القديم وانضمت أغلب قياداته الى صف أوبوتى ·

واتجه « عيدى أمين » بعد أن قطع كل أوصال الصلة بالعالم الغربى الى العرب والدول الاسلامية فقطع علاقاته باسرائيل وأقام جسرا لعلاقات وثيقة مع بعض الدول العربية واعتمد فى سياسته على الأقلية المسلمة فى أوغندا رغم انها أقلية لا تزيد عن ١٥٪ من تعداد السكان ودفع بها الى المراكز القيادية وشكل مجلسا اسلاميا فاستفز ذلك مشاعر الباجندا التى تشكل الأغلبية فى أوغندا ٠

واجه « عيدى أمين » فوق هذه المشاكل صفعة قوية لاقتصاد بلاده، وذلك بانهيار سعر البن وهو المصدر الوحيد للعملات الأجنبية التى يعتمد عليها اقتصاد أوغندا ٠ فبعدما كان فى عام ١٩٧١ أى عند تسلم أمين السلطة يبلغ ١٥٠ مليون دولار سنويا بلغ عام (١٩٧٩) سبع ملايين فقط (فى الوقت الذى تم تهريب جزء كبير منه) ٠ ولا يخفى ان انهيار سعر المحاصيل الأولية أو الامتناع عن استيرادها من أهم وسائل الضغط على دول العالم الثالث التى تعتمد على المحصول الواحد ٠ فما من دولة حاولت السيطرة على انتاجها أو مواردها الأولية والتمسك باستقلال اقتصادياتها الا وهوجمت فى تجارتها الخارجية ٠ والشواهد على ذلك كثيرة لعل أبرزها امتناع الغرب عن شراء محصول الكاكاو من غانا حتى سقط نظام نكروما الوطنى ٠

المهم ان « عيدى أمين » حوصر اقتصاديا وسياسيا واعلاميا ٠ وضيق عليه الخناق وهو صاحب الدولة القارية المحرومة من السواحل ومن امكانيات التنمية فأصبح الرئيس أمين أشبه بمن وقع فى مصيدة مهما قفز فقزاته محدودة لا تعينه على الفكاك من ورطته ٠

لم يهتم « عيدى أمين » بحصاره ، كما لم يهتم بما شاع حوله ولم يحسن حساب علاقاته الدولية وأصبحت سياسته مترددة ، فلم يعد هناك مبادىء ثابتة للسياسة الأوغندية وانما هى ردود أفعال لما يواجهه فانتشرت قوى معارضة متنوعة ضده حتى بلغ عدد المنظمات المعارضة له سبعا اتحدت جميعها فى جبهة واحدة ٠ فعمل « أمين » على البطش بها والقاء التهم جزافا على كل شخصية سياسية معارضة فى أوغندا ٠ ولم تؤد هذه السياسات الا الى تزايد المعارضة حتى أصبحت أغلب الشخصيات السياسية المعارضة ملتفة حول الرئيس السابق أوبوتى الذى قاد الحرب ضد « عيدى أمين » ٠ وكانت هذه العناصر من أقرب رجال أمين ٠ يضاف الى ذلك الفقر الشديد الذى يعيشه أهل البلاد وامتناع سيارات نقل البترول عن الدخول عبر كينيا الى أوغندا فأصبحت

البلاد في محنة حقيقية • وأصبح نظامه وشيك السقوط بين ليلة وأخرى حتى سقط ، وعاد أوبوتي الى الحكم ليسقط مرة أخرى على يد الرئيس موسوفيني •

ومهما قيل عن « عيدى أمين » فهو نوع من الزعامات القبلية التي شاءت ان تحقق لبلدها درجة ما من الاستقلال الحقيقي ، ولكنه سلك في ذلك أسلوبا بدائيا ولم يحاول أن يخفض الرأس أو يتراجع أمام الضغوط الخارجية فتجمعت عليه السهام وكانت سهام الصحافة الغربية أشد السهام ضراوة • ولم يكن لدى الرئيس « أمين » ما يرد به سوى اتخاذ مزيد من الاجراءات الفجة كسجن أحد الصحفيين البريطانيين والحكم عليه بالاعدام ولم ينقذه الا اعتذار الحكومة البريطانية رسميا • ولم يكن مثل هذا الاجراء سوى تعبير أنفعالي لما يعانيه « عيدى أمين » من الصحافة العالمية التي تخلق من البعض أبطالا ومن آخرين أقزاما •

بوكاســا الطاغيــة

سقط « جان بيدل بوكاســا » امبراطور أفريقيا الوسطى فى أكتوبر ١٩٧٩ • أطاح به انقــلاب غير دموى أثنــاء عودته من ليبيــا ، قادة « ديفيد داكو » الرئيس السابق الذى حكم البلاد منذ استقلالها فى عام ١٩٦٠ حتى عام ١٩٦٥ •

وبسقوط « بوكاسا » اختفى من المسرح السياسى شخصية من أقبح الشخصيات التى اساءت الى أفريقيا ، فقد كان نظامه يقدم دليلا على اتهام العنصريين والاستعماريين بأن الأفريقيين لايصلحون أن يحكموا أنفسهم •

جمع « بوكاسا » بين انفلات عيدى أمين وارهاب شاه ايران ودموية سوموزا • ويبدو أنه كان يدرك وهو يعد نفسه للسفر الى ليبيا ان الانقلاب آت لامحالة لذلك جمع معه كل ثروته ومجوهراته الثمينة •

جاء بوكاسا الى السلطة أثر انقلاب عسكرى وقع عشية رأس السنة عام ١٩٦٥ ، قاده ضد « ديفيد داكو » • وظل شخصية حاكمة نكرة حتى شدت غرابة تصرفاته وسكره اهتمام الصحافة الغربية •

كان بوكاسا قبل ان يصل الى السلطة جنديا فى الجيش الفرنسى • خدم فترة فى فتنام • وأنجب هناك فتاة جعلتــه اضحوكة أفريقيا عندما أيقظ بوكاسا الشعب والسلك الدبلوماسى لاستقبال ابنته (مارتين) فى مطار « بانجى » ثم اكتشف انها ابنة مزيفة وأن هناك فتاة ثانية بنفس الأسم جاءت هى الأخرى •

فى فترة حكمه أصبحت العاصمة « بانجى » من أكثر مدن العالم خوفا وارتعادا •• ففى عام ١٩٧٢ أعلن « بوكاســا » ان اللصوص سيعاقبون بقطع آذانهم وأيديهم • وقاد بنفسه جنوده حيث قاموا بضربهم حتى الموت ، وفى اليوم التالى عرضت جثث القتلى والجرحى فى وسط « بانجى » ••

في عام ١٩٧٤ أعلن « بوكاسا » اعتناقه للماركسية ، وقام برحنه الى عدد من الدول الاشتراكية رومانيا والاتحاد السوفيتي والصين و كوريا وتايوان • وفى عام ١٩٧٥ ذهب الى ليبيا وأعلن اعتناقه للدين الاسلامى وغير اسمه الى صلاح الدين • وبعد عدة أسابيع عندما لم تصله الدولارات الليبية أعلن ارتداده عن الاسلام وعاد الى اسمه الأول جان بيدل •

وفي ديسمبر ١٩٧٧ نصب نفسه امبراطورا مدى الحياة • ولكن قبل ان تتم امبراطوريته عامها الثانى بدأ عرشـــه يهتز وساد الشعور بأن « بوكاسا » انتهى • ولم يكن هذا الشعور نابعا من أحلام شعب افريقيا الوسطى الفقير ، ولكنه كان يستند الى ظاهرة السخط المعلن التي أخذت تنمو ضده ، ومن تصرفاته الشاذة مثل الامر الذى أصدره ان يرتدى كل تلاميذ المدارس زيـا موحدا يشترى من محل تمتلكه زوجته الامبراطورة ، وهو المحل الوحيد الذى يحتكر بيع هذا الزى الغالى الثمن • فقام التلاميذ الصغار بمظاهرات احتجاج على القرار الامبراطورى وسرعان ما انضم اليهم الجماهير الساخطة •

عندما اشتدت المظاهرات طلب « بوكاسا » من صديقه « موبوتو » رئيس دولة زائير المجاورة العون العسكرى ليستطيع اعادة الأمور الى نصابها • وشوهدت القوات الزائيرية تحرس الشوارع بينما وضع قواته المسلحة داخل الثكنات • وقيل وقتهـــا ان هذه الانتفاضة كانت أكبر اضطراب داخلى يحدث فى هذا البـلد المغلق منذ ان نصب « بوكاســـا » نفسه امبراطورا •

وبسبب الفساد وسوء الادارة وفقدان الكفاءة ســاءت الأوضــاع الاقتصادية وأفلست البلاد تماما • وحدث انحطاط خطير فى كافة قطاعات الاقتصاد التى تجلب للدولة عوائدها وانخفض انتاج الماس من ٥٠٠ ألف قيراط الى ٣٠٠ ألف ، والقطن من ٤١ ألف قنطار الى ٢٧ ألف ، والبن (وهو أحد المصادر الأساسية للتصدير) من ١٢ ألف الى ١١ الف طن • وترتب على ذلك ان لم تعد للدولة ميزانية سنوية ، اذ اعتادت على وضع ما يسمى بالميزانية الشهرية تخصص كل شـــهر للنفقات الضرورية • وتوقفت الدولة عن دفع رواتب موظفيهـــا فتجددت المظاهرات • وثـار الامبراطور غضبا بسبب قذف الأطفال المتظاهرين لعربته بالحجارة فأمر بقتلهم ، أطلق عليهم الرصاص وطعنوا بالحراب وتركوا يحتضرون حتى الموت ، وقيل انه اشترك هو بنفسه فى المذبحة التى راح ضحيتها ١٠٠ تلميذ صغير حسبما ذكرت الصحافة •

وقد ركزت المذبحة الأنظار على سوء الأوضاع في افريقيا الوسطى ٠ علق « جورج بوكاسا » ابن الامبراطور « بوكاسا » المنفى فى باريس والذى كان قد سحب منه لقب الأمير بعدما اختلف مع أبيـــه حول تجارة العاج فاعتقله الأب ثم طرده من البلاد ٠ علق الأمير قائلا « ان ما يجرى فى البلاد لايمكن تصديقه ٠٠ ان الناس يعيشون فى رعب ولا يجرؤون على الكلام أو الاعتراض خشية الاعتقال ٠٠ وان الأجور لم تعد تدفع ٠٠ ولم يعد ثمة أحد حرا ولا أحد يزور أصدقاءه خشية أن يعتقل فى أى وقت ٠٠ ان الجيش لم يعد له وجـــود ولم يبق ســـوى الحرس الامبراطورى ٠٠ وان أولاد الامبراطور أنفسهم البالغ عددهم ٣٠ يقيمون فى سويسرا فيما عدا اثنين منهم اعتقل أحدهما أثناء المذبحة » ٠

اثر الانقلاب هرب « بوكاسا » الى فرنسا التى صنعته وساندته فى أحلك سنوات فساده وقسوته ، ظن انه سيجد فيها عيش رغد أو على الأقل حياة ميسورة ولكنه لم يلق سوى خشونه فى المعاملة وشظف فى العيش وعاش فى تقتير مادى حتى انه عجز عن دفـــع فواتير الكهـــرباء والماء فى القصر الذى كان يقيم فيه فى ريف فرنسا ٠

منذ أن أطيح به ظل « بوكاسا » يردد انه مستعد للعودة الى بـــلاده ومواجهة عقوبة الاعدام التى صدرت ضده غيابيا عام ١٩٨٠ ، وان الحكومة الفرنسية هى التى تخشى عودته لأنه يعرف أسرارا كثيرة عنها ولديه الكثير الذى يفشيه عن فضيحة الماس التى أودت بالرئيس جيسكار ديســـــتان وبسببها وصل ميتران الى السلطة ٠

وفى عام ١٩٨٥ استطاع بوكاسا الهرب من منفاه بفرنسا بمساعدة أمريكية وعاد الى بلاده بمحض ارادته وسلم نفسه لسلطاتها وصرح بأنه لايخشى أن ينفذ فيه حكم الاعدام وانه جاء ليثبت براءته أمام العالم وانه لم يكن من آكلة لحوم البشر ولا متعطشـــــا للدماء وانه بـــرىء من مذبحة الطلبة ، ومن القصص الخيالية الملفقة التى تروجها عنه الصحافة الغربية بأن ثلاجته كانت تمتلىء بالجثث الآدمية وانه كان يتلذذ بأكل لحم معارضيه وكان يختار كل يوم قطعة منها لغدائه وأخرى لعشائه ٠ ولم تتورع صحيفة « محترمة » مثل الديلى تلجراف البريطانية من ان تكتب على لسان القنصل البريطانى فى ذلك الحين (ويدكو برمان) ان بعض وزراء أفريقيا الوسطى اكتشفوا عقب مأدبة أقامها لهم « بوكاسا » قبل الاطاحة به بأيـــام انهم التهموا لحم أحد زملائهم ، هذا رغم ان الشرطى الفرنسى الذى كلف بالقبض

على بوكاسا صرح لدى وصـــوله فرنســا ان بوكاسا لم يكن أبدا سفاحا أو متعطشا للدماء كما تصوره الصحافة ·

أعيدت محاكمة « بوكاسا » وحكم عليه بالسجن ٢٠ عاما ولو كان ارتكب الجرائم التى اتهم بها لما أفلت من حبل المشنقة ·

وبعد ثمان ســنوات فى سبتمبر ١٩٩٣ أطلقت السلطـات سراح « بوكاسا » وأدهش هذا الاجراء المفاجىء الجميع ، ولكنـــه دلل على ان تخفيض الحكم بالاعدام ثم الافراج عنه والاستقبال الذى لاقاه عند خروجه من السجن فقد التف حوله أكثر من ثلاثة آلاف من مؤيديه وهتفوا باسمه ، كل هذا كان مؤشر على صدق كلام « بوكاسا » بأن السلطات الفرنسية هى التى ساهمت فى اقصــائه بعد حملة تشـــهير بررت أمام الرأى العام العالمى الاطاحة به ·

ان الدول الكبرى واجهزتها ومخابراتها وتدخلاتها فى شئون الدول الصغرى أمر معروف ووارد ، كذلك الذى لايمكن تجاهله أو انكاره ان « بوكاسا » كان حاكما فاسدا يكفى ما أنفقه من خزائن بلاده الخاوية من أجل الاحتفالات بتنصيبه امبراطورا ، ولكنه أيضا لم يكن أفسد ولا أسوأ من غيره من الحكام الذين نالوا تأييد ومساندة الغرب لهم حتى الممات مثل موبوتو رئيس زائير الذى حكم أكثر من ٣٥ عاما وجرائمه معروفه بدءا بمقتل الرئيس لومومبا وانتهاء بالمذابح التى راح ضحيتها ألف قتيل ، وهى مذبحة جنوب كاساى ومذبحة باندوندو ومذبحة الطلبة فى مومباشى· هذا فضلا عن اختلاسه المال العام وكانت ميزانية البلاد توضع باسمه فى بنوك الخارج · وظل موبوتو يلقى التأييد والعون الدوليين ·

ولكن خطيئة « بوكاسا » انه كان يلعب على المكشوف ·· لم يهرب أموال بلاده للخارج كما فعل رؤساء أفارقة لم يفرقوا بين المال العام والمال الخاص ولا بين أملاك الدولة وثرواتهم الخاصة وأشرفت خزائن دولهم على الافلاس بينما حساباتهم فى البنوك الأجنبية تتزايد بتزايد فقر بلادهم ، وانما كان ينفق ثروة البلاد على ملذاته وعلى الهدايا لرؤســاء الدول ليساعدوه فى البقاء فى السلطة مثلما فعل مع الرئيس الفرنسى ديستان ·

وعندما أطيح ببوكاسا لم توجد له ثروات فى الخارج سوى قصر فرنسا الذى التجأ اليه وعجز عن دفع نفقات ادارته فقطعت عنه الكهرباء والماء عدة مرات ٠

وليس هذا دفاعا عن « بوكاســـا » فقد كان حاكما جاهلا ظالما غبيا أحمق وصل الى رئاسة البلاد فى غفلة من الزمان بمساندة فرنسا المستعمر القديم لبلده التى اختارته وأعدته لهذا الدور ، وعندما حاول ان يمارس قدرا ضئيلا من السلطة أطاحت به وشنت حملة ضارية لتشويه وتسوىء سمعته التى ليس لها أصلا رصيد ٠

الملك « سوبهوذا »

بقايا زعامات اندثرت

في أغسطس ١٩٨٢ فقدت مملكة سوازيلاند (احدى المحميات التى تقع داخل جنوب أفريقيا) ملكها سوبهوذا الذى مات عن عمر يبلغ ٨٣ عاما مخلف وراءه خمسون زوجة و ٤٠٠ من الأبناء ٠٠ هذا الملك الملقب بأسد أفريقيا يعد من بقايا الزعامات القبلية التى اندثرت التى كانت تنسج حولها الأساطير ، فقد استمر يرتدى جلود الحيوانات ويتزين بريشها حتى الممات ورفض طوال حياته أن يغيره حتى وهو يقابل ملوك ورجالا مستعمرية البريطانيين ٠

وكما كانت حيـــاته مثارا للتندر فان مماته لم يمر دون خيـــال أيضا ، فقد دفن في مقبرة داخل احدى الكهوف منتصبا برمحه ودرعه !! وفى رواية أخرى ان الملك لم يدفن فالتقاليد الملكية فى سوازيلاند تترك جثمان الملك الى ان يتحلل ولا يبقى منه سوى عظامه ٠ وان زوجته الأولى الملقبة « بانثى الفيل » هى التى تدير شئون البلاد حتى تتم طقوس الموت واختيار الملك الجديد ٠

ورغم طول عمر وحــكم « سوبهوذا » فانه لم يحقق حلمه بتوسيع مملكته وضمه الأراضى التى اقتطعت منها ٠ وكان « ســـوبهوذا » يطالب باقليمين يقول انهما ضما بطريق الخطأ من جنوب افريقيا فى بدايات هذا القرن عندما رسمت السلطات البريطانيـــة الحدود بين البلدين ٠ وهى أجزاء ظل يسودها الحكم الملكى السوازى حتى نهايات القرن التاسع عشر٠ ولايزال سكانهما يتكلمون لغة السوازى ويدينون له بالولاء كزعيم قبلى ٠

ومملكة « سوبهوذا » أى سوازيلاند تقع داخل حدود جنوب أفريقيا وهى أصغر دولة فى أفريقيا الجنوبيـــة اذ لاتزيد مساحتهـا عن ١٧٫٥ ألف كيلو متر مربع وسكانهما لايزيدون عن ٥٥٠ ألف نسمة ٠ واضافة هذين الاقليمين لهذه الدولة الصغيرة معناه ان عدد ســكانها سيتضاعف

ومساحتها ستزيد بما لا يقل عن الثلث • والأكثر من ذلك ان ضم الاقليم الجنوبى سيحول البلاد من دولة قارية بلا سواحل الى دولة لهـــا منفذ صغير على المحيط الهندى •

والمنطقتان مجال النزاع هما « كونجوان » التى تقـع شـــمال سوازيلاند وهى منطقة ريفية فقيرة كانت تنفى فيها حكومة جنوب افريقيا كل عام عشرات الآلاف من الافريقيين غير المرغوب فيهم • وكان عدد سكانها حتى عام ١٩٧٠ لايتجاوز ٧٠ ألف ويقدرون الآن بين ٢٢٠ ألفا و ٣٠٠ ألف • والمنطقة الثانية هى « انجوانوما » وتقع فى الجنوب الشرقى لسوازيلاند وسكانها حوالى ٦٦ ألف أغلبهم يفضل البقاء جزءا من جنوب افريقيا على الانضمام الى سوازيلاند •

وعندما أعلن الملك عن نيته المطالبة بضم الاقليمين شمل الرأى العام فى البداية نوع من السرور ، ولكن سرعان مازال هذا الشعور بعد ان تبين ابعاد الموضوع ، فهو وان كان من الناحية النظرية يعد مطلبا وطنيا الا انه يحمل فى طياته مؤامرة خطيرة على الوطنيين الافريقيين فى جنوب افريقيا كان يمثل تواطؤا مع حكومة بريتوريا لتحقيق أهدافها العنصرية (ملحوظة حتى بعد ان تخلصت جنوب افريقيا من النظام العنصرى وأصبح لها حكومة وطنية لايزال الوضع كما هو) •

تتلخص ابعاد المؤامرة كما اتضحت ، ان جنوب افريقيا هى التى أوحت الى الملك « سوبهوذا » بالمطالبة بتوحيد أراضى مملكة السوازى ، وهى تهدف ان يتيح لها هذا الضم تجريد كل من ينتمون الى قبائل السوازى من أى ادعاء يتعلق بحقوقهم السياسية فى جنوب افريقيـــا • وقبـائل السوازى تنتشر فى طول دولة جنوب أفريقيا وعرضها وأغلبيتها لاتعيش فى المنطقتين المراد ضمهما ولم يذهبوا يوما الى واحدة منهما • وهؤلاء مواطنون ولدوا منذ أجيال فى مناطق مختلفة فى جنوب افريقيا وليست لديهم نية الهجرة ولا رغبة فى ترك حقوقهم فى المواطنة فى جنوب افريقيا وهم يكافحون من أجل حقوقهم السياسية على الأرض التى ولدوا فيها •

وعندما أعلن الملك عن هذا المشروع ثار جدل ونقاش داخل سوازيلاند وانقسمت الآراء الى ثلاثة اتجاهات :

● الجيل القديم يميل الى تأييد الملك • وهم يتساءلون مندهشين كيف يمكن ان يكون مشروع كهذا مرفوضـــا وهو يكســب لسوازيلاند

بالوسائل السلمية أرضا وبشرا • وفضلا عن ذلك فاذا كانت هذه الأقاليم القبلية تنتمى الى سوازيلاند فان سكانها لن يعانوا من التفرقة العنصرية التى كانت تطبقها عليهم جنوب افريقيا •

● والقسم الثانى يرحب بضم الاقليم الجنوبى لأنه سيصل بينهم وبين البحر • ولكنه يرى فى ضم الجزء الشمالى امرا غير مفيد بالمرة لانها أرض بور مزدحمة ذات منظر جميل ولكن ليس لها مستقبل اقتصادى •

● أما الشباب السوازى المثقف فهم يرون فى الأمر اهدارا لمبدأ سياسى ، فان حصول سوازيلاند على هذين الاقليمين سيخلق مستودعا جديدا تلقى فيه حكومة جنوب افريقيا بغير المرغوب فيهم من الافريقيين • وهذه العملية تجرد هؤلاء من حقوق المواطنة وتساهم فى دعم السياسة العنصرية التى كانت تطبقها حكومة بريتوريا قبل الاستقلال •

على ان مشاعر الغضب الحقيقية تفجرت داخل المنطقتين ، فأهلها ليست لديهم الرغبة فى ان يكونوا أجزاء من ملكية تنتمى الى العصور الوسطى • وهم يرون انهم أبناء جنوب أفريقيا ويريدون ان يبقوا جزءا منها يكافحون من أجل مستقبلهم الديمقراطى فيها •

كذلك يعارض هذا المشروع غالبية السوازيين الذين يعيشون فى جنوب افريقيا • ويعللون ذلك بأن قبول هذا المبدأ سيمكن بريتوريا من تحقيق سياستها الخاصة باقامة أوطان محلية تؤدى الى اعتبار ٢١ مليونا من الافريقيين المواطنين فى جنوب أفريقيا أجانب وتصبح الأقلية البيضاء فى جنوب افريقيا وهم ٤٫٥ مليون أغلبية لا من الناحية الفعلية كما هو الحال بل من الناحية الشرعية كذلك •

وقبل موت الملك بأيام قلائل أصدر وزير خارجيته تصريحا حذر فيه الرأى العام من ان مسألة الحدود يعالجها الملك بنفسه بمشورة حكومته • وحذر الرأى العام من ان يستمع الى أى شىء يقال فى هذا الشأن الا ما يصدر عن جلالة الملك •

ويقال إن الملك مات كمدا بسبب معارضة شعبه له ولسوء فهم الجيل الجديد الذى بلغ به ضيق الأفق حسب تصوره الا يقبل ان تتسع

مملكته · ان « سوبهوذا » ينتمى بمفهومه وعقليته الى الجيل القديم الذى يعتز بالقبلية قبل القوميه ·

وعلى أية حال فقد مات الملك قبل ان يحقق مشروع الوحدة ، ومات المشروع بموته ، فلم يتحمس خلفه له اذ خشى ما قد يحدثه من تحولات اجتماعية واقتصادية داخل البلد الموسـع وما قد تفضى اليـه من نتائج يصعب التنبؤ بها ·

ماركـــوس جارفى

مبدع شعار « أفريقيا للأفريقيين »

فى مايو ١٩٤٠ نشرت الصحافة العالمية نعى ماركوس جارفى الذى يعد من أهم الشخصيات فى تاريخ حركة الجامعة الافريقية . ولكن جارفى لم يكن قد مات كان منفيا فى لندن وقرأ نعيه وعلق ساخرا لقد اماتونى بعدما عجزوا عن موت أفكارى .

وماركوس جارفى هو الزعيم الأسود الجاميكى صاحب دعوة « أفريقيا للافريقيين » الذى يعد أكثر الزعماء السود اثارة للجدل . حورب فى حياته وأنكر فى مماته وتكاتفت جهات عديدة فى ان تطبق الصمت عليه وتفقد الثقة فى رسالته التى كانت تتلخص فى توحيد الزنوج فى جميع أنحاء العالم فى جنس واحد قوى . وكون جماعة جعل شعارها « أفريقيا للافريقيين فى الوطن وخارجه » . وفى ظل هذه الفكرة لم يهدأ يوما عن تكرار صيحته « استيقظى يا افريقيا .. استيقظ أيها الجنس القوى فانك تســـتطيع ان تحقق ما تريده .. انها مجرد بضع سنوات حتى يتيسر للزنوج ان يسيطروا على أفريقيا كما سيطر البيض على أوربا ، ولا أحد يعرف متى تحين ساعة صحوة أفريقيا ولكنها آتية مثل أعصار ولسوف تحل هنا بيننا » .

لم يكن جارفى أفريقى المولد ولم ير والده ولا أجداده أفريقيا قط ، كذلك لم تكن الرابطة الجسدية أو سمة اللون الا مجرد علامة ولكن الجوهر الحقيقى لايمانه بأفريقيـــا وأبنائها هو التراث الاجتماعى المشـــترك للعبودية والتفرقة العنصرية والمهانة . اكتشف جارفى هذه الحقيقة فامضى حياته للدفاع عن الجنس الأسود واحياء كبرياءه وتحريره من عبودية البيض . واقتنع بان العنف هو الوسيلة لتحقيق ذلك محبـــذة حتى ولو صدر من عدوه ، كان العنف فى نظره الطريق المؤدى لأهدافه وكان يقول ان الشعار الذى يجب ان يتمسك به الزنوج فى جميع أنحاء العالم هو القوة لا القانون والسلطة لا العدالة .

لم يكن جارفى يهدف باستعمال العنف للوصول الى المساواة بين الزنجى والأبيض بل قطع شوطا آكبر من ذلك فالأفريقى فى نظره هو أرقى الأجناس يقول « أننا لا نطالب بالمساواة بالرجل الأبيض .. أننا نطالب بالسيادة والتفرقة على الجنس البشرى كله » . وهكذا اختلطت أفكار جارفى بالعنف والعنصرية حتى أطلقت على حركته « الصهيونية السوداء » ، فقد كان لا يعترض على جمعيات البيض الارهابية مثل « كلوكلوكسى كلان » لأنه رأى ان أعمالها تشعل نار الوطنية والحماس عند الزنوج . وأدى هذا الفكر الصارخ المتطور المتحدى الى هدم مصداقية أفكاره وحورب من أجلها . والحقيقة ان جارفى كشخص والجارفية كحركة حملت عددا من المتناقضات فكان يدين النازية لمعاداتها السامية ولكنه توحد بشدة مع الفاشية الأوروبية وكان معجبا بالدكتاتورية وبوعودها بالقوة والنظام والدولة الفعالة ، وكان يذكر بفخر ان موسولينى وهتلر نقلوا برنامج منظمته .

انتشرت أفكار جارفى بين زنوج الولايات المتحدة فى وقت علا فيها نجم الأفكار الفاشية ، وكان يفتخر ويقول « نحن الفاشيون الأول فقد نظمنا الرجال والنساء والأطفال وربيناهم لتحرير أفريقيا ، ان الجماهير السوداء أصلها الوحيد انما يتجلى فى هذه القومية المتطرفة ، لقد اقتبس موسولينى الفاشية منى ، كثيرا ما سألت أين هى حكومة الرجل الأسود وأين ملكه ومملكته وأين رئيسه وبلاده وجيشه ورجاله الكبار ؟ لم يمكننى ان أعثر عليهم ولهذا فقد أعلنت أنا أننى سأعمل على خلقهم » .

حاولت جهات كثيرة ان تسكته وان تفقد الثقة فى رسالته التى كانت تقوم على الاعتداد العنصرى والاكتفاء الذاتى للاقتصاد الأسود والاستقلال السياسى فى أفريقيا . وبالرغم من هذا العداء فان جارفى نجح فى ان يجعل جماعته من أكثر الحركات السوداء تأثيرا بين الزنوج فى الولايات المتحدة كما جعلها قوة ايجابية ضد استعمار أفريقيا .

ولد ماركوس جارفى فى جاميكا عام ١٨٨٧ من عائلة زنجية من سلالة العبيد الافريقيين الذين كونوا جماعات مستقلة فى مناطق الجبال النائية فى جاميكا فى القرن الثامن عشر . وهذا التراث قد يكون أضاف شيئا إلى الكبرياء العرقى الذى تميز به جارفى وسياساته الانفصالية التى هوجم من أجلها . وفى جاميكا عمل جارفى فى الطباعة وانخرط فى الحركة النقابية وأنشأ صحيفة تعارض الاستعمار البريطانى أطلق عليها « العالم الزنجى » ، وسافر الى أوربا وأمريكا الوسطى قبل ان يؤسس جمعية الاصلاح الزنجى المتحدة فى جاميكا . وبعد عامين بدأ رحلته فى

أمريكا الشمالية لجمع التمويل اللازم لحركتـــه ثم نقل مقر الجمعية الى هارلم ومنها انتشر تأثيره ٠

وفى نيويورك أنشـــأ جارفى « الفرقة الدولية الافريقية » وجمعية ممرضات الصليب الأسود وشركة بواخر النجمة السوداء التى يعود على سفنها الزنوج الأمريكيين الى أفريقيا الوطن الأم كما أصدر صحيفة « العالم الزنجى » عام ١٩٢٠ ورأس تحريرها ٠ وفى نفس العام أعلن جارفى قيام امبراطورية الزنوج فى نيويورك لتضم جميع هذه المنظمات السابقة وهو يقول « ليس لهذه الامبراطورية أرضا ولكن رعاياها يعدون بالملايين وهم موزعون فى جميع أنحاء البسيطة ، لماذا يكون للبيض رئيسا يسكن البيت الأبيض فليكن لنا بيت للسود ولأكن أنا رئيس السود فى جميع أنحاء العالم » ٠ وفى أغسطس ١٩٢٠ عقد جارفى برلمانه الأول بمناسبة ذكرى تحرير العبيد وقال فى هذا المؤتمر العاصف « دعونا نعمل من أجل الغاية الوحيدة لنا فى أن نصل الى تكوين أمة حرة وقوية تصبح كوكبا ساطعا بين نجوم الأمم » ٠ وفى نهاية المؤتمر أعلنت وثيقة اعلان حقوق الشعوب الزنجية فى العالم التى أشارت الى وجوب اقامة اخوة عالمية بين أبناء الجنس الزنجى ، والمساعدة فى تنمية الشعوب والجماعات الزنجية المختلفة واقامة أمة مستقلة تضم أبناء هذا الجنس وهيئات وأجهزة فى المدن الهامة لتمثيل جميع الزنوج ٠ وبجانب هذا أقام جارفى للزنوج « الكنيســة الافريقية الارثوذكسية » وتساءل « أمن المعقول ان تسمى ملاكا ذلك الرجل الذى يهاجمك فى بيتك ويطاردك فى أرضك ويصطادك كما تصاد الحيوانات ويضع الاغلال فى عنقك ثم يبيعك بالرطل فى الأسواق العامة ؟ ثم أمن المعقول ان تسمى ضحية هذا الرجل شيطانا ؟ لماذا اذا يكون لون الملاك أبيض ولون الشيطان أسود ؟ » وبناء على هذا رسم جارفى فى كنيسة الشيطان باللون الأبيض والملاك باللون الأسود ٠

كانت استراتيجية جارفى للتقدم بالشـــعب الأسود تتحصل فى انقاذ أفريقيا من الاستعمار الأبيض ، وكان جارفى مقتنعا ان الفرصـــة الوحيدة للعنصر الأســـود كي يسيطر على مصـــيره ويتخلص من التمييز العنصرى فى الســـياسة والاقتصاد هو ان ينشىء فى أرض أفريقيا الأم جماعة مستقلة ذات اكتفاء ذاتى « اننا نعتقد فى حق الزنوج الموروث فى ان يحكموا أنفسهم فى أفريقيا ، وأن الجهـــود التى ينبغى ان تبذلهـــا « جمعية الاصـــلاح » يجب ان تتجه الى انشـــاء أمة زنجية مستقلة فى قارة أفريقيا » ٠ ومن أجل هذا الهدف ســـعى جارفى الى اقامة ما يشبه الوحـــدة بين أمريكا وأفريقيـــا عن طريق هجـــرة الزنوج الأمريكيين الى أفريقيا واقامة دول لزنوج العالم الجديد فى القارة الافريقية شبيهة

بليبيريا . وكان يدعو الزنوج الأمريكيين الى أن يتوجهوا الى القارة الافريقية ليسهموا فى تقدمها ، وقد خطى خطوة عملية اذ بعث خطابا الى السلطات الليبيرية لتمنحه أرضا يستوطن فيها الزنوج الأمريكيين ، الا أن جهوده باءت بالفشل .

وبصرف النظر عن هذه الأفكار الجامحة فان دعوة أفريقيا للافريقيين كانت ذات تأثير مزدوج . الأول انها زادت زيادة كبيرة من الشعور بالتراث العرقى ومن الأخوة بين السود فى نصف الكرة الغربى (الأمريكتين) ، ولأول مرة استشعر زنوج أمريكا والكاريبى الفخر والكبرياء بأصولهم الافريقية ، فقد كان يبشر باعادة الاكتشاف الروحى والوجدانى للتراث الأسود العام . كتب فى افتتاحية صحيفته عام ١٩٢٥ « لقد اتى الوقت للزنوج كى ينسوا الانبهار بالأجناس الأخرى وعبادة البطولات فيها ولكى يتطلعوا الى خلق البطولات بين ذويهم » .

أما التأثير الثانى لرسالة جارفى فقد اضاءت أفريقيا وساعدت القادة الوطنيين الأوائل فى أن ينفضوا القيود النفسية والمعنوية التى فرضها الاستعمار وان يتخذوا الخطوات لاكتشاف تراثهم . وكان الوطنيون الكينيون فى كينيا يجتمعون ليستمعوا الى صحيفة جارفى « العالم الزنجى وكانت تقرأ بصوت عال ثم ينتشر السامعون فى الغابات لابلاغ رسالة جارفى لمن لم يسمعها من السكان هناك .

وقد كان « لجمعية الاصلاح » الزنجى وجود قوى فى لاجوس (نيجيريا) . وفى منتصف العشرينات كان فى جنوب أفريقيا ثمانية فروع حيث وجد مناضلون عمال وزعماء لحزب المؤتمر الوطنى الافريقى وقد اعترف هؤلاء بتأثير جارفى عليهم . وفى الكونغو حملت بعثات التبشير رسالة جارفى الى داخل الكونغو ، وعلق الرئيس الغانى الراحل كوامى نكروما بقوله « ان كل الأدب الذى تعلمته والكتاب الذى فعل الكثير ليشعل حماسى كان كتاب فلسفة ماركوس جارفى وآراؤه » .

وفى بلاد الفرانكوفون فى غرب أفريقيا كانت السلطات الاستعمارية تحذر من نفوذ جارفى بحيث ان ضبط انسان يحوز صحيفة « العالم الزنجى » كان يعرضه للعقاب .

الخوف من الكبرياء الأسود :

ان الخوف من الجارفية ونظرياتها عن الكبرياء الأسود لم تكن محصورة فى السلطات الاستعمارية فى أفريقيا . ففى ١٩١٩ حاولت

السلطات الأمريكية ابعاد جارفي من أمريكا ، ولكنه لم يخالف ولم يعتد على أي قانون من قوانين الفيدرالية ، وبقى اضطهاد الحكومة له حتى تركها نهائيا عام ١٩٢٧ ٠

وأيضا كان هناك عدد من المنظمات السوداء التى تعارض جارفى ومن أهمها « الجماعة الوطنية لتقدم الشـــعب الملون » التى طالبت بابعاده ، اذ اعتبرت دعوة جارفى الى العودة الى أفريقيا نزعة انفصالية ونوع من أنواع الخيانة السياسية عندما كان السود فى أمريكا يكافحون من أجل المساواة فى وطنهم ٠

على ان أهم نقد وجه الى جارفى كان من الداعية العظيم للجامعة الافريقية ديبوا الذى قال « ان رسالة جارفى كانت استسلاما فالصراع عنده غير مجد لذا ينبغى العودة الى أفريقيا ومحاربة الرجل الأبيض هناك »٠ وقد واجه جارفى ذلك « بانه اذا كانت العنصرية البيضاء لم تسمح قط للسود بالمساواة الحقيقية ولا بتكافىء الفرص فى أمريكا فان الانفصال هو الحل الوحيد » ٠

واليوم اذا جاز الحكم على حركته ، فقد كانت متمشية فى ذلك الوقت مع التيارات الفاشية التى سادت العالم ومع أحوال الزنوج داخل الولايات المتحدة وبقايا آثار عصر الرق التى كانت ماتزال ماثلة فى الأذهان، والدليل على هذا ان جارفى استطاع ان يجمع من حوله أنصار كثيرون ، وانه برغم العنصرية الواضحة التى تميزت بها حركته فقد كان لها أثرها فى الاعـــلاء من كرامة الشـــعوب الملونة وتأثيرها على بعض الزعامات الافريقية التى تأثرت كثيرا بفكرة « استيقظى يا أفريقيا » ٠ وكان جارفى مع كل هذه الثورية ساذجا سياسيا واقتصاديا فقد انهارت المشروعات الرأسمالية السوداء التى دعا اليها بسبب الفساد وسوء الادارة ٠

ولكن هذا القصور فى شخصية جارفى وفى تنظيماته لا يؤثر على انجازه البارز ، وهو اذا لم يكن اداريا ولا اقتصاديا ولا سياسيا فقد كان شيئا أكثر تفردا ، كانت له رؤية حقيقية وكان قادرا على الهام السود بأن يحاولوا انجاز ما كانوا يؤمنون انه فوق مقدورهم ، فقد أعاد الضـــمير والوعى الأســـود الى الانطلاق نحو الكبرياء العرقى ومســـاعدة النفس والتضامن ٠ ومنذ وفاته منذ أكثر من خمسين عاما فان هذه الرســـالة الجوهرية لاتزال تحيا وتزدهر ٠

دى بوا ٠٠ أبو الجامعة الإفريقية

فى احتفال مهيب ، احتفلت حكومة غانا فى أغسطس ١٩٨٦ بنقل رفاة « دى بوا » وزوجته « شيرلى جراهام » الى الضريح الذى أعد لهما فى قلب العاصمة الغانية بجوار المركز الرئيسى الذى انشىء تخليدا لذكراهما الذى يسمى « مركز دى بوا التذكارى للثقافة وفكر الجامعة الأفريقية » ٠ وذلك بمناسبة الذكرى ٢٣ على وفاة « دى بوا » ٠

واذا كان « دى بوا » ليس أفريقى المولد الا انه وزوجته اتخذا من غانا موطنا لهما منذ عام ١٩٦١ وظلا بها حتى توفى دى بوا فى ٢٧ أغسطس ١٩٦٣ ودفن فيها ولكن فى مكان بعيد ٠ أما زوجته « شيرلى » الفنانة الموسيقية والكاتبة التى ألفت احدى عشر كتابا أشهرها عن « عبد الناصر » ونيريرى وعن قبائل الزولو ، فقد ظلت تعمل فى غانا بعد وفاة زوجها مديرة للتلفزيون الغانى حتى وقع الانقلاب العسكرى ضد نكروما عام ١٩٦٦ ٠ فسافرت الى الصين وماتت هناك ٠ وفى عام ١٩٨٤ قام ابنهما « ديفيد » بنقل رفاتها الى غانا لترقد بجوار زوجها « دى بوا » ٠

وكان رئيس دولة غانا « رولنجز » قد أعلن فى يونيو ١٩٨٥ انه خصص مقر « دى بوا » الذى كان يعيش فيه ليكون مركزا لاحياء فكر الجامعة الأفريقية ٠ وفى نوفمبر ١٩٨٥ أعلن الرئيس الغانى ان مركز « دى بوا » قد صار أثرا من الآثار القومية ، وهو مركز يضم معرضا لمخلفاته وقاعات للمحاضرات وعروضا للسينما ومكتبة ضخمة لتخدم الباحثين الذين يدرسون تاريخ وتطور الجامعة الأفريقية وهو التراث الذى خلفه « دى بوا » لتتاح معرفته والاطلاع عليه من الجيل الحاضر والأجيال المقبلة ٠

فمن هو هذا الرجل الذى نال كل هذا التقدير من حكومة غانا ؟ انه الدكتور « ادوار بورجارت دى بوا » الذى يلقب بأبى الجامعة الأفريقية ، فهو أول من نادى بفكرة الجامعة الأفريقية منذ بدايات هذا القرن ، قبل أن تظهر هذه الدعوة بين أبناء القارة نفسها ٠ وكانت

أفكاره هي من أضاء الطريق لقيادات حركات التحرير الوطني الافريقي من أمثـال نكروما وجومو كينياتا وازيكوى ونيريرى وكاوندا وغيرهـم . وتبلورت فيما بعد في منظمة الوحدة الافريقية .

ولد دى بوا في فبراير ١٨٦٧ بولاية ماسو شوستس من أب زنجي وأم ترجع جذورها الى عبيد هولندا وهو من أبرز الشخصيات في تاريخ أمريكا في الدفـاع عن الجنس الأسود وتحريره من عبودية البيض ، وتعتبر أعماله على قدر كبير من حيث القدر والكفاءة وهي تبلغ ١٩ كتابا ومئات المقالات والمحاضرات و ١٥٠ ألف ورقة من وثائق وملاحظات ومسودات ورسائل تتناول ظروف الحياة والحاجات والطموحات الخاصة بزنوج أمريكا وشعوب أفريقيا . هذه الأعمال تعتبر خير شاهد على عظمة هذا الرجل . وقد نال « دى بوا » التقدير من كل أنحاء العالم ما عدا وطنه أمريكا . فقد ألقت حقيقة انه زنجي من أصل أفريقي ظـلالا من التجاهل عليه وعلى أعماله وآثاره . وكان دى بوا يشعر بهذا التجاهل وعبر عنه في مرارة في عيد ميلاده الحادى والتسعين من راديو بكين بقوله « لقد كنت في وطني مدة نصف قرن تقريبـا لا شيء غـير زنجي حقير » .

وقد اتهم دى بوا في عهد مكارثى سـنة ١٩٥٣ بتهمة النشـاط المعادى لأمريكا بسبب دعوته من أجل السلام ودفاعه عن علاقات الصداقة والتعاون مع الاتحاد السوفيتي والصين ، فلما برىء من هذه الاتهامات سافر هو وزوجته الى غانا حيث دعاه الرئيس الراحل « كوامي نكروما » الى غانا ليشرف على اعداد دائرة معارف أفريقية . وهو المشروع الذى حلم « دى بوا » به كثيرا . فمنذ عام ١٩١٩ وهو يخطط لانشـاء دائرة معارف أفريقية . ولكن المشروع عاقه قيام الحرب العالمية الأولى . وفي عام ١٩٣٤ اختارته جامعة أطلانطا ليرأس تحرير مشروع جديد لاعداد ونشر دائرة معـارف الزنوج . وقضى دى بوا عشر سنوات في جهود شاقة لتحقيق هذا المشروع ولكن نقص التمويل حال دون اتمامه .

يرتبـط اسم الدكتور « دى بوا » في التاريخ لحركـة الوحـدة الأفريقيـة بمؤتمـرات الوحـدة الأفريقيـة التى ترأس معظمهـا . وفي أول هذه المؤتمرات التي عقد في لندن في يوليو سنة ١٩٠٠ قدر لدى بوا أن ينشر أفكاره على نطاق واسع لأول مرة ، وفيه قال قولتـه الشهيرة« ان قضية القرن العشرين هي قضية الاختلافات اللونية ، قضية

العلاقة التى تقوم بين الأجناس الأميـــل الى البشرة الفاتحة والأجناس الأميل الى البشرة الفاتمة فى آسيا وأفريقيا وجزر البحار » .

آمن « دى بوا » ان البشر جميعا متساوون وانهم جميعا يسهمون فى التراث والحضـــارة البشريـــه على مر التاريخ بما فيهم الشـــعوب الافريقيه يقول « فمن أعماق الغابة السوداء عرفت الانسانية صـــناعة صهر الحديد وازدهرت التجارة والزراعة فى الوقت الذى كانت تعيش فيه اوربا فى حالة الوحشية ، وانه بناء على هذا الدور المتكافىء الذى تلعبه جميع الأمم فى التطور الحضارى فيجب المساواة بين جميع أبناء البشر .

ورأى دى بوا ان تحقيق العدالة والمساواة للزنوج الأمريكيين لن يكون الا اذا أخرج الزنوج قضيتهم من حدود التفكير الاقليمى وربطوها بقضية الشعوب الأفريقيـــة كلها . ونبه زنوج أمريكا الى أن القضـــايا الأفريقية هى قضاياهم وان فى استقلال أفريقيا ووحدة شعوبها الطريق لانهاء التفرقة العنصرية . واستمر دى بوا ينادى بأن يسهم المثقفون والفنيون الزنوج فى أمريكا بخبراتهم فى مشروعات التنمية فى أفريقيا .

كانت أهم عناصر الوحدة أو الجامعة الأفريقية عند « دى بوا » هى حق تقرير المصير للشعوب ، والحرية الفردية والاشتركية الديمقراطية كأسس لنظم الحكم فى « البان أفريقية » . ومن الناحية التنظيمية أنشأ « دى بوا » عندما ألف حركة نياجرا عام ١٩٠٥ مكتبا خاصا بها للدعوة للجامعة الأفريقية ، كان يتبـــادل منه الرســـائل مع المثقفين من زنوج أفريقيا . وكان يحاول أن يحظى بتأييد الطبقة العاملة فى جميع أنحاء العالم لهذه القضية ، وذلك بتوثيق جهوده وأفكاره مع أنصار الجامعة الأفريقية فى جميع أنحاء العالم .

مؤتمرات الجامعـــة الأفريقيـــة

لم تأت منظمة الوحدة الأفريقية من فراغ . ولم تقم فقط بفضل جهود الزعامات والقيادات الأفريقيـــة التى قادت شـــعوبها الى التحرر والاستقلال . وانما كانت حصيلة جهود وكتابات ولقـــاءات ومؤتمرات عقدت منذ بدايات القرن ، وكان دى بوا من رواد هذا النشاط والدعوة الى الرابطة أو الجامعـــــة الأفريقية ، ووهب حياته وجهده ونضاله فى الدعوة لها .

يقول دى بوا فى مذكراته « ان أفريقيا بلا شك هى وطنى ، ومع ذلك فلم ير والدى ولا والد والدى أفريقيا على الاطلاق · كما لم يعرفا معناها أو اهتماما بها ·· ولكن الرابطة الجسدية هى أقل الروابط وسمة اللون غير هامة نسبيا سوى انها مجرد علامة ·· ان الجوهر الحقيقى لهذه القرابة هى التراث الاجتماعى للعبودية والتفرقة لعنصرية والمهانة » ·

وقد تعرف « دى بوا » على ماهية الجامعة الأفريقية فى عام ١٩٠٠ عندما دعاه محام من ترنداد هو هـ· ويلز الى لندن لحضور أول مؤتمر يعقد للدعوة لفكر الجامعة الأفريقية · وفيه تنبأ « دى بوا » بأن مشكلة القرن العشرين هى مشكلة اللون ، علاقة الملونين بغير الملونين فى أفريقيا وآسيا وأمريكا وجزر البحار ·

وبعد ما يقرب من عقدين ، وبالتحديد فى عام ١٩١٩ عقد فى باريس المؤتمر الأفريقى العالمى الثانى للجامعة الأفريقية برئاسة « دى بوا » ·· وعلى منصة المؤتمر هتف « دى بو » لقد عقدت العزم أن نجعل أفريقيا تسمع شكواها للعالم » ·· ولكن برغم هذا الحماس انتهى المؤتمر دون أن يشير فى قراراته الى حق الأفريقيين فى الاستقلال · واكتفى بنص « على أن يكون للمواطنين فى أفريقيا حق الاشتراك فى الحكومة بمجرد أن يسمح تطورهم بذلك » ·

وفى بروكسل عام ١٩٢١ عقد المؤتمر الثالث للجامعة الأفريقية ، وكان المطلب الرئيسى الذى طالبا به الجنس الزنجى عن طريق الطبقة المستنيرة فيهم ، هى اقامة حكم ذاتى محلى للجماعات المتأخرة يزداد باطراد كلما زادت خبرتهم ومعرفتهم حتى يصبح حكما ذاتيا ·· وقد ركز « دى بوا » فى خطابه للمؤتمرعلى العلاقة بين الأجناس والديمقراطية بقوله « ان أول مبادىء الحكمة فى العلاقات بين الأجناس هو ايجاد هيئات سياسية بين الشعوب المغلوبة على أمرها ، ومن الواجب أن تعم شريعة الديمقراطية العالم كله » ·

وفى عام ١٩٢٣ عقد المؤتمر الرابع للجامعة الأفريقية فى لندن ولشبونه معا · وكان أهم مطلب فى قراراته هو « أن يكون للأفريقيين صوت فى حكم بلادهم » ·

ويعد المؤتمر الخامس للجامعة الأفريقية آخر المؤتمرات التى دعا اليها وأشرف عليها « دى بوا » وعقد المؤتمر فى نيويورك عام ١٩٢٧ ٠ ثم حالت الحرب العالمية الثانية دون مواصلة عقد هذه المؤتمرات ٠ ولكن فى الوقت نفسه انتشرت أفكار التحرر والاشتراكية التى تبناها الطلبة الأفريقيون الذين كانوا يدرسون فى الخارج فى انجلترا بالذات ٠

وفى عام ١٩٤٤ انضمت ١٣ منظمة خيرية وطلابية وسياسية وكونت معا ما يسمى بالاتحاد الفيدرالى ٠ وفى العام التالى ١٩٤٥ دعا هذا الاتحاد الى المؤتمر الأفريقى العالمى السادس وعقد فى مانشستر بانجلترا ٠ ولأول مرة يقود المؤتمر زعامات أفريقية شابة من أمثال « نكروما » ٠ وقد بارك « دى بوا » هذا النشاط وظهر فى المؤتمر اشيب الشعر يبدو وكأنه ناسك ٠

وفى هذا المؤتمر ظهرت الأفكار المتطورة للجامعة الأفريقية ٠ وطالب المجتمعون بالحكم الذاتى والاستقلال لأفريقيا السوداء ٠٠ وجاء فى وثيقته ٠٠ اننا عاقدون العزم أن نكون أحرارا ٠٠ واذا كان العالم الغربى مصمما أن يحكم الجنس البشرى بالقوة ، فان الأفريقيين قد يضطرون أن يلجأوا للقوة كملجأ أخير فى محاولتهم لنيل حريتهم ٠٠ اننا ظللنا شعبا صابرا ردحا طويلا من الزمن نضحى ونكد عن طيب خاطر ، ولكننا لسنا راغبين فى الهلاك جوعا بينما نقوم بدور الكادحين لكى نقيم بعرقنا أود ارستقراطية زائفة واستعمار منبوذ » ٠

وكان المؤتمر السادس هذا نهاية مرحلة تبناها بدرجة كبيرة مفكرو الزنوج والطلبة الأفريقيين فى أرض الغربة ، لتنقل بعد ذلك الى وطنها أفريقيا ٠٠ وتحت شعار أفريقيا للأفريقيين بدأت الجهود لتكوين منظمة الوحدة الأفريقية ٠

وكما انتقلت فكرة الجامعة الأفريقية الى أرض الوطن الأم أفريقيا ، انتقل « دى بوا « الى أفريقيا واستقر فى غانا ٠ وفى عام ١٩٦٣ منحه المجلس الرئاس الغانى لقب مواطن غانى ٠٠ وفى ٢٧ أغسطس من نفس العام توفى «دى بوا » عن عمر يناهز ٩٥ عاما ٠ توفى قبل أن يشهد مولد منظمة الوحدة الأفريقية التى نشأت فى ذات العام ٠ وهى الفكرة التى وهب حياته للدعوة لها ٠٠ ولكن جهوده لم تذهب هباء ولم يطوها النسيان ٠٠ وكرم « دى بوا » كأحد أبناء أفريقيا العظام ٠

الجــزء الثانى

فنانون وكتاب

آموس توتولا

ملك الأسطورة

رحل الروائى النيجيرى المبدع آموس توتولا ، مات دون أن يذكره أحد أو تشير اليه احدى وسائل الاعلام التى تتلهف على خبر تصنع به حكاية وتنسج حوله أسطورة ، ولكنها عندما مات ملك الأسطورة تجاهلته .

وتوتولا هو أول كاتب من غرب افريقيا يعرف على نطاق دولى ويحظى بشهرة عالمية منذ عام ١٩٥٢ ، عندما نشر رائعته « مدمن نبيذ البلح » .. فى وقتها احتفى النقاد والغربيون بهذه القصة ووصفها الشاعر البريطانى دايلون توماس » ان هذه القصة الشيطانية موجزة مرعبة ساحرة تخلب اللب ، صاحبها خيالى حالم ذو عبقرية لايرقى اليها الشك وكتاباته ملاحم نثرية ، انه ملك الأسطورة بلا منازع .

توتولا لم يتلق تعليما عاليا ولا منتظما وانما درس فقط بضع سنوات متقطعة فى التعليم الأولى ، فهو ليس من هؤلاء الكتاب الأفارقة الذين تلقوا تعليما جامعيا وسافروا للخارج وساحوا وجالوا وانفتحوا على ثقافة الغرب وحصلوا على معارفه ، لم يكن توتولا من هذه الصفوة وانما جاء تميزه من شمولية معرفته بتراث بيئته من حكايات وأساطير ، وكان هذا التراث غير المكتوب هو المعين الذى نهل منه أفكاره وخيالاته وهو معين لاينضب ، وأعاده وصب مادته وشكلها على نحو جديد مبهر مما جعله يصبح أول كاتب يعرف من غرب افريقيا .

ولد توتولا عام ١٩٢٠ لأبوين مسيحيين من قبيلة اليوروبا فى مدينة ايبوكوتا بنيجيريا .. وعندما كان طفلا كان يجمع رفاقه الصغار فى الليالى المظلمة ويحكى لهم حكايات عن العفاريت وعن ساحرات الغابة وجماجم الموتى التى تتكلم ، وكان يثير فيهم بحديثه الغريب الخوف والتشوق للمجهول .

عندما بلغ السابعة لم تستطع أمه الفقيرة ان تتحمل مصاريف تعليمه ، فالحقته بالعمل عند أحد موظفى الحكومة على ان يرسله الى المدرسة بدلا من دفع راتب له .. واستمر توتولا يعمل كخادم وتلميذ عند هذا الرجل الطيب حتى انتقل الرجل الى العاصمة فاصطحبه معه وألحقه بمدرسة لاجوس الابتدائية .. ظل توتولا فيها عامين ثم لم يستطع مواصلة الدراسة لأن مديرة المنزل كانت ترهقه بالعمل فتجبره قبل الذهاب الى

المدرسة – التى تبعد ميلا عن البيت – ان يقطع أخشاب الوقود ويغسل الصحون ويطحن التوابل ويملأ الماء من المضخة حتى تسمح له بالذهاب الى المدرسة فكان يصلها دائما متأخرا ٠٠ وكان عليه ان يراجع دروسه فى فسحة المدرسة اذ يستحيل استذكارها فى البيت ٠

هذه القسوة الشديدة جعلت توتولا يترك مخدومه ويرجع الى قرينه ويعمل حطابا فى قطع الأخشاب ، ثم مزارعا ثم حدادا ٠٠ وفى عام ١٩٤٨ عاد الى لاجوس والتحق بوظيفة ساعى بريد فى وزارة العمل وحرره ذلك من قيود مواعيد الحضور والانصراف ، فاسترجع هواية طفولته وهى تأليف القصص ، ولكنه لم يعد يرويها على أقرانه بل أخذ يسطرها على قصاصات الورق ٠

فى يوم قرأ توتولا اعلانا فى صحيفة عن دار نشر فعكف على كتابة قصته الأولى « مدمن نبيذ البلح » وذهب بمخطوطه الى الدار المعلنه فابلغه أصحابها انهم بائعوا كتب وليسوا ناشرين ، ونصحوه بأن يبعث بها الى مؤسسة فابور بلندن ، وكانت المفاجأة ان نشرتها المؤسسة عام ١٩٥٢ مع مجموعة قصص أخرى استلهم أفكارها من حكايات شعبية من التراث الشفهى لليوروبا (وقد أعيد طبع هذه المجموعة فى باريس وأمريكا) ٠

بين الأساطير والحكايات الرمزية

تتالى انتاج توتولا بنفس الاسلوب الذى يستقى مادته من الأساطير والحكايات الرمزية باسلوب فذ فريد ٠٠ تقول د ٠ رضوى عاشور فى دراستها الممتازة عن توتولا : « اذا كانت الضغوط المادية أدت الى عدم قدرة توتولا على مواصلة التعليم أو حتى القراءة المنهجية المتصلة ، فان حصيلته المحدودة الثقافة كان يقابلها ثراء كبير فى المعرفة التى تقدمها المجتمعات ذات الثقافات الشفهية حصيلة من الحكايات والأساطير والحكم والأمثال استوعبها توتولا بشكل فريد مع قدرة على جذب اهتمام القارىء ، ومهارة فى الصياغة والتصنيف يقدم جزءا على آخر أو يضيف أحداثا غير جوهرية تثرى ما هو جوهرى ٠٠ وهو فى الحالات جميعا يمتع قارئه بقدراته البلاغية فى التشبيهات الموفقة والمدهشة ، انه كمطرب الجماعة التى يمتعها بفنه وهو أيضا حامل حكمتها ومعرفتها وخبراتها التاريخية ٠

والحقيقة ان توتولا عاش مادته قبل ان يسجلها ، ولم تكن النتف العديدة من الفولكلور والطقوس والمعتقدات التى تضمنتها كتاباته مجرد احداث يتذكرها ولكنها كانت تجارب خبرها بالفعل سواء كانت من معرفة فردية أو تقاليد وأعراف عرقية ٠ كذلك كانت مؤلفات شكسبير كثير منها تكرار لمؤلفات سابقة فى عصره أو قصص سيارة تجرى على ألسنة العامة

أو حكايات موروثة يمزج فيها مخترعات خيالية بأحداث وهمية وأساطير قديمة ، وكان هذا سر خلود انتاجه على مر العصور •

حين صدرت أولى روايات توتولا « مدمن نبيذ الملح » استقبلها النقاد النيجيريون بفتور ، رأوا انها لم تأت بجديد فهي ليست سوى مجموعة من الحكايات الشعبية التقليدية المعروفة لديهم ، بالاضافة الى اللغة الانجليزية الركيكة التى كتبت بها ، في حين كانوا يتوقعون من أول رواية نيجيرية ان تمثلهم خير تمثيل لدى الرجل الأبيض ، فجاءت حكايات توتولا بلغته الركيكة المبثوثة بلكنة افريقية تشكل حرجا للمتحذلقين من أهل بلده •

تبدأ قصة « مدمن نبيذ البلح » بالمدمن يتحدث بلسانه ، يقول : « شربت نبيذ البلح منذ كنت صبيا في العاشرة ، وكان أبي أغنى رجل في بلدتنا أنجب ثمانية أولاد أكبرهم أنا ، كانوا جميعهم عمالا ماعداي فلم يكن لدي عمل في حياتي سوى شرب النبيذ ومجالسة الأصدقاء للشراب ، كنت فقط خبيرا في شرب النبيذ أتناوله في الصباح حتى الليل ومن الليل حتى الصباح ، ولم أكن أستطيع ان أشرب ماء عاديا أو أى سائل فيما عدا النبيذ ، وحين لاحظ أبي ادماني تعاقد مع ساقي نبيذ ماهر من أجلي ، كان عمله الوحيد هو ان يقوم باستخراج النبيذ من جذع النخيل ويصبه لي طوال اليوم •

ولهذا وهبني أبي مزرعة نخيل تحتوى على آلاف من النخيل ، كان الساقي يستخرج منها كل صباح مائة برميل من النبيذ أشربها كلها ، ظللت على هذا الحال خمسة عشر عاما حتى مات أبي فجأة • وبعد وفاته بستة أشهر ذهب الساقي يوما الى حقل النخيل وتأخر عن عودته فاستدعيت اثنين من أصدقائي وذهبنا الى الحقل نبحث عنه فوجدناه جثة هامدة تحت نخلة ، وعرفنا انه سقط منها ومات وهو يواصل صب النبيذ •

أول ما فعلته حين رأيته ميتا ، ان تسلقت نخلة أخرى وصببت منها نبيذا وشربت حتى ارتويت ثم حفرت أنا وصديقاى حفرة تحت النخلة ودفنا فيها الساقي ، وبعدها عدنا الى البلدة •

في صباح اليوم التالي لم يكن لدى نبيذ أشربه ، وطوال النهار لم أشعر بالسعادة التي كنت أشعر بها من قبل ، جلست مهموما حتى أصدقائي الذين يشاركونني الشراب لم يأتوا وتركوني وحيدا لأنه لم يعد لدى ثمة نبيذ •

ظللت هكذا أسبوعا واشتدت بي التعاسة فخرجت الى البلدة أبحث عن ساقي نبيذ آخر ، ولكنني لم أستطع الاهتداء الى الساقي المناسب الذى

يرضى أن يصب لى النبيذ حسب احتياجى ، وحين أدركت صعوبة وجوده خطر لى ما كان يقوله شيوخنا من أن من مات فى هذه الدنيا لايذهب الى الجنة مباشرة وانما يعيش فى مكان ما من هذه الدنيا ، فقررت ان أبحث عن المكان الذى ذهب اليه ساقى لاقنعه بالعودة معى ، وبدأت رحلتى فى البحث عن مدينة الموتى التى استغرقت عشر سنوات » ٠

وهكذا فى ايجاز صور توتولا بداية حياة بطل روايته ٠٠ وما كان عليه من رخاء وصحبة أصدقاء ثم تبعها بتصوير الانهيار المفاجىء لعالمه بوفاة ساقيه وعزلته أو بالأدق ابتعاد أصدقائه ، وقراره بالبحث عنه وارتياد عالم الموتى لكى يعود به ٠

والموت فى المعتقدات القبلية لايستتبع فناء الميت ، فاذا قضى الموت على الجسد فان الروح تبقى وتنتقل الى عالم آخر ، وهذا العالم الآخر ليس بعيدا عن عالم الأحياء لذلك تظل الروح هائمة على مقربة من أهلها وعشيرتها وصلتها بالاحياء لا تنقطع واهتمامها بما يجرى بينهم لايزول ٠٠ بهذا المعتقد يبدأ المدمن رحلته باحثا عن مدينة الموتى ٠٠ وفى الطريق يتصارع مع مخلوقات عجيبة وحيوانات مفترسة ٠

ويمضى البطل يقول : « صادفت بيتا فى شرفته طبلة صغير قرعتها فسمعت صوتا يسألنى ان كنت حيا أم ميت ، فاجبت : أنا مازلت حيا ٠٠ وهنا ظهر لى الموت وصحبنى الى الداخل ، وجدت البيت يمتلىء بهياكل عظمية لمخلوقات بشرية وجماجم وأطباق وصحون كلها من هياكل عظمية ٠٠ كان الموت يقيم فى هذا البيت بمفرده ، ولم يكن أحد يعيش بالقرب منه حتى حيوانات الغابة وطيورها كانت بعيدة جدا عنه ٠٠ وحين أردت النوم صحبنى الموت الى حجرة منفصلة وأعطانى غطاء من قماش أسود ، كان بالغرفة سرير مخيف مصنوع من عظام بشرية ، وانتابنى شعور بأن الموت يبيت لى أمرا فلم أستطع النوم على السرير ونزلت تحته ٠٠ وكانت المفاجأة فى منتصف الليل ، رأيت شخصا يدخل الحجرة فى حذر وفى يده عصا ثقيلة واقترب من السرير المفترض انى أنام عليه وضرب بكل قوته السرير بعصاه ثلاث مرات وخيل اليه انه قتلنى ٠

يقول الناقد البريطانى جيرالد مور (الذى عمل أستاذا فى جامعة نيجيريا ومن هنا جاء اهتمامه وقدرته على تقييم الأدب الافريقى) « هذه البساطة المباشرة التى تروى هذا الحادث هى مثال للرعب المستأنس ، فمغامرة المدمن ليست مجرد رحلة فى الغابة الافريقية ولكنها رحلة فى الخيال ، فى اللاوعى فى عالم الأرواح الذى يتعايش فى كل مكان مع عالم الواقع الحى » ٠

وما أن يبدأ المدمن مغامرته حتى تظهـــر الشخصيات المألوفة فى الأساطير ، الشخوص الذين يفرضون عليه أنواعا معينـــة كثمن لاعطائه معلومات عن مكان الساقى الميت ، والمرأة الرقيقة الوفية التى يتزوجهـا المدمن ، والوحش المفترس الذى ينبغى عليه ان يذبحه كى يرفع اللعنـــة عن الجماعة ويحررها من عبء التضحيات البشرية السنوية ، والسحرة والمخلوق الجائع الذى يبتلع المدمن وزوجته (وهى فكرة بطن الحوت الذى يظهر منه البطل وقد ولد من جديد) وفرار المدمن من بطن المخلوق بأن يضربه من الداخل ببندقيته ثم يتلمس طريقـــه الى الخـارج مستخدما خنجرا ، وعندما يخرج المدمن من بطن المخلوق يكون قد وصل الى مشارف مدينة الموتى ٠

وهناك يلتقى المدمن بساقيـه الذى يحكى له كيف وصل بعد موته الى المدينة ، وكيف قضى فترة تدريب ، ولم يدخلها الا حين أصبح مؤهلا كرجل ميت تماما ٠ وأخبره ان الموتى لايمكنهم ان يعودوا مع الاحيـــاء ولايمكن للاحياء ان يعيشـوا مع الموتى لذلك فعليـه الرجوع الى بلدته ، ولكنه لايتركه يرجع صفر اليدين ، فيعطيه بيضة سحرية تؤدى له أى شىء يطلبه منها ٠

يأخذ المدمن طريق العودة الذى يكون كطريق الذهاب مليئا بحيوانات تعترض سيرة بوحشية ، وبمخلوقات الجبل التى تتململ ضـيقا لوجوده وتشرع فى مطاردته ، فيحول المدمن نفسه الى حصاة صغيرة ويلقى بنفسه فى النهر الذى يفصل هذه المخلوقات عن بلدته ٠٠ ويتفق هذا مع قواعد الأساطير بأن مطاردى البطل لايستطيعون ان يعبروا النهر ٠

حين يصل المدمن الى بلدته يجدها فى حالة قحط ومجـــاعة بسبب شقاق دب بين الأرض والسماء ، قررت السماء على أثره منع الأمطار عن الأرض ، فيستخدم المدمن بيضته فى ســـقى واطعام أهل بلدته والقرى المجاورة ، ويدوم الرخاء شهورا ثم تقع البيضة وتنكسر ، فيعود القحط ويهجر الناس المدمن مرة أخرى ويتركونه وحيدا بعد ما لم يعد لديه شىء يمنحه لهم ٠٠ وبعد جهد ينجح المدمن فى ان يلصق البيضة ولكنه يفاجأ حين طلب منها طعاما انها تنهال بالسياط عليه ٠٠ ورغبة فى الانتقام من سلوك الناس يعلن لهم ان البيضة الســحرية عادت صالحة وحين يجتمع الحشد بأمر المدمن البيضة ان تأتى ســحرها فتنهال بالسياط عليهـم وتنتهى الرواية ٠

تقول د · رضوى ان توتولا بقصصه أعاد اكتشاف تربة الأدب الشعبى مستفيدا من دور الراوى فى المجتمعات التقليدية ذات الثقافة الشفهية حيث تتبدى مهارته فى اعادة صياغة الحكايات المعروفة لدى الجماعة ، وان رواية « مدمن نبيذ البلح » تقدم صورة لفلسفة اليوروبا عن الوجود فلا فاصل بينها وبين الوجود الانسانى وغير الانسانى فهناك وحدة تجمع الحى والميت أسلافه والأرواح والآلهة ·· والانسان يمكن أن يتواصل مع الآلهة وأسلافه من الموتى كما يمكنه ان يتواصل ويتصارع مع الأرواح والمخلوقات غير الانسانية ·· وتوتولا يستخدم بمهارة المخلوقات والأحداث الخرافية التى تكتظ بها حكايات اليوروبا الشعبية ويعبر بها عن رؤياه الخاصة ·· وهو يتميز بقدرة غير عادية على تصوير خوف الانسان والعذابات التى يتعرض لها نتيجة لقسوة الوجود عليه وقسوة الطبيعة وقسوة الآخرين ، ولعل توتولا استمد بعض هذه القدرة من عذاباته هو شخصيا أثناء طفولته ، كما تتبدى مهارته أيضا فى قدرته على سرد أكثر الأحداث لامعقولية باسلوب واقعى وبكلمات بسيطة ودمج الحكايات الفانتازيا بكل جموح خيالاتها مع تفصلات الحياة المعاشة ·

ويعلق د · على شلش على أدب توتولابقوله : « لم يدخل الاستعمار قارتنا ليجدها قاعا صفصفا كما تزعم دعاياته ·· لقد عرفت القارة حضارات وثقافات عميقة الوجود والأثر فى وجدان شعوبها وسلوكهم اليومى ، ونحن اذا عبرنا الصحراء وتوغلنا جنوبا لانجد رمالا وغابات وانما يطالعنا بشر عندهم من التراث الأدبى والفنى ما عند « السادة » البيض ، ولهم نظرتهم العامة فى الأمور مثل ما للسادة المزعومين ، فالانسان الافريقى له فلسفته الخاصة القائمة فى جانبها المادى الدنيوى على العمل والمشاركة والتعاون وحب الخير وفعله · وجانبها الميتافيزيقى القائم على السحر ووحدة الوجود والاعتراف بالعالم الآخر واحترام الموتى والتوسل اليهم وبهم الى الخير ·· واذا تطرقنا الى عالم الأدب وجدناه تراثا هائلا من الأساطير والحكايات والأمثال الشعبية والملاحم ·· والأدب الافريقى لم يتصل بهذه الثقافات اتصال السائح ولكنه امتزج بها واتخذ من أدواتها صورا وموضوعات ودلالات ضمنها ابداعه الأدبى وكانت بمثابة الخلفية الطبيعية للصورة التى أبدعها خياله وسجلها قلمه ·· حقيقة ان الأدب الافريقى ظل بمعزل عن التسجيل والتدوين حبيسا يؤدى دوره فى صمت حتى مطلع هذا القرن حيث بدأت براعم الأدب المكتوب تتفتح عبر القارة وانتشر عطرها وأموس توتولا هو واحد من أهم هؤلاء وأوائلهم ·

والحقيقة ان ما يحفل به أدب توتولا من ضروب الجمال وما يتوافر له من عناصر الابـداع الفنى بلا كلفـة ولا تزيين ، يقودنا الى فلسفة عميقة الجـذور عن الغيبيات وظـواهر الطبيعة ، ومن هنـا كانت أهميتـه ، فهو وثيقة مهمة تستحق التأمل والدراسة لأنها أولا وقبل كل شيء تصوير فني لموقف الانسان الأفريقي من الحياة والموت والأحداث من حوله ، وتعبير عن ذاته ووجدانه وأحاسيسه ومشاعره ٠

موسيقيون مجهولون
فيلا أنيكولا وصمويل ريدج

مهرجان « كورا » هو مهرجان للموسيقى الأفريقية يقام فى مدينة جوهانز برج بجنوب أفريقيا ، وتأمل جنوب أفريقيا أن يصبح مهرجانا سنويا للاحتفاء بالموسيقى والموسيقيين الأفريقيين ، ويعمل على تنمية الموسيقى الأفريقية وعرضها على العالم ٠

وبصرف النظر عن منح الجوائز للأعمال الموسيقية ، فان المهرجان يستهدف أيضا تشجيع الآباء والأطفال للنظر بجدية الى الموسيقى والاهتمام بمستقبل الموهوبين منهم ٠ واذا كانت موسيقى البوب الأمريكية والبريطانية تقام لها مهرجانات سنوية وتزدهر بذلك كل عام وتكسب جوائز ، فان لدى الأفريقيين من الأعمال الموسيقية ما لا يقل جودة فنية عنها ، ولديهم العديد من الموسيقيين فى مناطق أفريقيا الخمس ، وغاية المهرجان ان يعمل على المساعدة لاشهارهم وأيضا لكى يتعرف بعضهم على البعض ٠

جوائز المهرجان ضئيلة تتراوح بين ألفين وخمسة آلاف دولار ، ولكن القيمة الأدبية للفائزين كبيرة فهى تكسبهم شهرة وتخرج أعمالهم من نطاق المحلية والاقليمية الى العالمية ، وتحقيقا للعدالة فان القائمين على المهرجان يقسمون قارة أفريقيا الى خمسة أقسام : الشمال والجنوب والشرق والغرب ووسط القارة ٠ وخصصت لكل قسم جوائز لأحسن موسيقى رجل وأحسن فنانة امرأة وأحسن مجموعة أشرطة موسيقية وأحسن البوم ٠٠ الخ ٠

المؤسس والمنتج والمنفذ لمهرجان كورا هو « أرنست ادجوفى » ، ليس موسيقيا وانما رجل أعمال ثرى جمع ثروته من التجارة فى ناميبيا ، وتعاونه فى انجاز هدفه شعبة اليونيسيف فى أنجولا ، يقول « اننى ككل الأفريقيين أحب الموسيقى ولكنى لا أستطيع أن أنتجها ومساهمتى لها أن أجوب أنحاء أفريقيا واكتشف الفنانين » ٠ وهو لا يشترك فى أى لجنة

من لجان التحكيم أو الاختبارات أو الاختيارات ، وانما دوره ينحصر في الدعاية للمهرجان وعقد الاتصالات مع محطات التليفزيون العالمية وتشجيع محطات التليفزيون في أفريقيا لكى تذيع أعمال المهرجان • وهو يهدى بعضها مجانا لأن هذا النشاط كما يقول لا يقصد به الربح ، وحصيلة المهرجان توجه للمساهمة في تغطية مصاريف الطيران وانتقال المحكمين وغيرهم الذين يدعون الى المهرجان •

والحقيقة التى لا تنكر أن وجه الحياة في القارة الأفريقية يحفل بالرقص والأنغام ، والموسيقى تتصل بحياة الناس اليومية ، فالإفريقى فنان بطبعه ، لغته الأولى كانت لغة الطبول وبطولاته الشعبية يدور بعضها حول الموسيقى والرقص • والمثل الأفريقى يقول « اذا دقت الطبول في جزيرة زنجبار رقص على أنغامها أهالى شرق أفريقيا » •

وكل بلد أفريقى غنى بموسيقاه المتميزة وان كانت موسيقى زائير هى الأكثر شهرة وشعبية في الدوائر العالمية •

عبرت الموسيقى الأفريقية حدود القارة وانتشرت وملأت البوماتها وأشرطة كاسيتاتها أنحاء كثيرة من العالم وأخذت عنها أوربا موسيقى الجاز ، ومع ذلك ظلت توصم بالبدائية والصخب ، وكثير من عباقرتها الموسيقيين مجهولون وينكر أعمالهم داخل حدود بلادهم وخارجها أما لأنهم عارضوا نظمهم الغاشمة وانحازوا لشعوبهم البائسة أو لأنهم جاهروا بانحيازهم لزنوجيتهم ودافعوا عن حقوق السود والأصالة الأفريقية ••

فيلا انيكولا بوكوتى

من هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر أو التفضيل الموسيقى النيجيرى فيلا انيكولا بوكوتى ، والعبقرية الموسيقية صموئيل كولى ريدج السيراليونى الأصل ، وهو من الموسيقيين الأفريقيين القليلين الذين عرفت أسماؤهم مع انتشار موسيقاهم •

وفيلا انيكولا بوكوتى له شهرة عالمية والبوماته تملأ أوربا ومبيعاتها تحقق أعلى توزيع ، وهو يصنف على انه من أعظم موسيقى القرن العشرين ، كان شخصية فريدة ومثيرة للجدل أذيع خبر وفاته أكثر من مرة قبل ان يتوفى فعلا في نهاية شهر أغسطس عام ١٩٩٧ •

عندما سقط فيلا مريضا في يونيو ١٩٩٧ رفض أن يفحصه الأطباء ورفض نصيحة أخاه الأكبر وزير الصحة النيجيري السابق بالانتقال الى المستشفى الا في أيامه الأخيرة عندما أجبر على ذلك ، ورفض أيضا أن يتعاطى الدواء الغربي فكان يزدريه ويكتفي بعلاج الوصفات الشعبية والأعشاب ٠

ولد فيلا في أكتوبر عام ١٩٣٨ لاحدى عائلات اليوروبا المعروفة ، وكان والداه من المناضلين ضد الاستعمار بعنف ، عمل أبوه واعظا (وهو الذى أسس اتحاد المعلمين النيجيرين) ، وكانت أمه « فوغلايو » شخصية بارزة في الحركة الوطنية ومن أنصار كوامي نكروما ، وقد استقبلها الرئيس ماوتسي تونج في الصين وحصلت على جائزة لينين للسلام ، وهي أول امرأة نيجيرية تحوز رخصة لقيادة السيارات في بلدها ، وابن عمه الأديب المتمرد وول سوينكا الحائز على جائزة نوبل في الأدب ٠

أرسله أبوه الى لندن عام ١٩٥٩ ليدرس الطب ولكنه بدل ان يسجل اسمه في كلية الطب قيد اسمه في كلية ترينتي للموسيقى ، وكون أول فرقة موسيقية له في لندن سماها كولا لابيدوس ، وآزره ابن عمه وول سوينكا الذى كان يدرس في جامعة ليزر ببريطانيا فكان يؤلف له الكلمات وكان فيلا يلحنها ويغنيها ٠

في المهرجان الأول للفن الأفريقي الذى أقيم في نيجيريا على مدى شهر عام ١٩٧٠ ، أدهش فيلا الحاضرين عندما وقف على المنصة وقال ان اسمه شأن لغته مستعار من السادة الذين استعمروه ، أما اسمه الأفريقي اسم أسلافه الغالين فمفقود بلا رجعة لذلك فقد قرر تغيير اسم عائلته « راموم » الذى يحمل لفظا استعماريا وجعل اسمه انيكولابو ، وهي كلمة تعنى بلغة « اليوروبا » الشيء الكبير الذى لا يمكن لكائن بشرى أن يغلبه ، وأصبح اسمه فيلا انيكولا بوكوتي ٠

حققت الموسيقى لفيلا شهرة وثروة ضخمة ، وأغنيته الشهيرة « لماذا يعاني الرجال السود » كان لها تأثير عميق في الضمير الانساني ، ولكن تمرده ومواقفه السياسية هما ما جعل منه نجما كبيرا عبر أفريقيا وهو ما أضر به أيضا ، كما جعله اعتزازه بسواده وبالفلسفة والأصالة الافريقية شخصية مخيفة لكثير من الأوربيين ، وفي الوقت نفسه جعله محبوبا وبطلا بين أهله ومواطنيه ، وهذا ما أزعج السلطة النيجيرية وأدى

بها الى سجنه . ولكن السجن لم يسكت صوته ولم يدفعه للصمت ، وظل شوكة فى حلق النظم العسكرية النيجيرية المتعاقبة حتى وفاته .

فى عام ١٩٧٤ اقتحم البوليس نادى شراين الموسيقى الذى كان فيلا يملكه وذلك بادعاء البحث عن المخدرات ، وكان نادى شراين واحة للحرية جعله فيلا أشبه بحديقة هايد بارك ، فيه تتجمع المعارضة ويجد فيه المرء سباحة للفضفضة والاعتراض والحلم . وبعد الافراج عن فيلا قرر أن يجعل اسم النادى « جمهورية كلاكوتا » امعانا فى معارضته للنظام والعسكرى وازدراء له ، وفى عام ١٩٧٧ اقتحم جنود الرئيس النيجيرى السابق أوباسنجو جمهورية كلاكوتا » واعتقلوا فيلا مرة أخرى ، وكانت حجتهم هذه المرة رفضه الاشتراك فى مهرجان الموسيقى الأفريقى الذى جرى فى لاجوس ، وخلال هذا الاقتحام قذف الجنود بأمه من النافذة مما تسبب فى مقتلها وأحدثوا به اصابات أضعفت من قدرته على عزف السكسافون بعد ذلك .

وبعد الافراج عنه نفى الى غانا ، ولم يعد فيلا الى نيجيريا الا بعد ان ترك العسكر السلطة سنة ١٩٧٩ وتولى الحكم شيخوشاجارى ، ولكن هذا الحكم المدنى كان قصير العمر وسرعان ما قام الجنرال « أباشا » بانقلابه ، وعادت نيجيريا من جديد فى قبضة العسكر ، فاختلف « فيلا » مع النظام العسكرى وأعلن معارضته له وشكل حزبا سياسيا سماه حزب الحركة الشعبية المرتقبة . وخاض معارك ومشاكل مع السلطات مما حدا بهـا الى اعتقاله هو ونحو مائة شخص آخر . وعندما تدهورت حـالته الصحية أفرجت عنه . وذكر متحدث باسم الحكومة ان « فيلا » يحتاج الى جراحة خطيرة وان الحكومة ستتكفل باجرائها ، ولهذا رفض فيلا العلاج حتى لا يكون لأحد فضل عليه . ومات كرجل حر فى يوم عيد ميلاد أخيه الأصغر بيكو الذى يقضى الآن حكما بالسجن مدته خمسة عشر عاما بتهمة محاولة التآمر بالاطاحة بحكومة الجنرال « أباشـا » العسكرية .

صمويل ريدج

واذا كان « فيلا « قد لقى الاضطهاد من حكام بلده فان صمويل ريدج الذى سبقه فى الزمان لقى الاضطهاد من العنصريين البيض الذين عاش بينهم ، وعندما دفن جثمانه عام ١٩١٢ حاولوا أن يدفنوا معه أعماله

وموسيقاه ويمحو ذكراه من الوجود · ونجحوا فى ان تصبح هذه العقريه الموسـيقية غير معروفة ، وهو الذى كان يوصف من جانب نقاد وقته « أعظم الموسيقيين حساسية » ، « انه من الطراز الأول مع بتهوفن وبرامز وفاجنر » ، « الموسيقى مبعوث السماء » · ولكن لماذا عومل صمويل بهذه القسوة ؟ السبب الوحيد أنه كان أفريقيا أسود عاش فى بريطانيا ·

أعاد المجد والتقدير لصمويل كولى ريـدج فيلم وثائقى أعده مخـرج من جنوب أفريقيا هو « ايان هول » لقناة التليفزيون البريطانية ·

وايان هول مؤلف موسيقى وعالم متمكن وله موقف سياسى · قدم الفيلم بقوله « ان التجاهل غير الطبيعى لمنجزات صمويل كولى ريدج يثير الشك لأنها منجزات لا يمكن ان تتجاهل · ان صمويل سقط ضحية لمناخ ايدلوجى كان سائدا فى وقته وهو المفاهيم النخبوية والعنصرية للطبقة الحاكمة البيضاء فى عصره التى صممت على الغاء الوجود الأسود والانجاز الأسود · الغاء ذلك من مسرح التاريخ » ·

والحقيقة ان الفيلم هو عمل أكثر من أن يوصف بأن يكون مجرد توثيق لموسيقى عظيم ، بل كان شهادة عن الشجاعة غير العادية لصمويل ريدج فى مواجهة المعارضة الكاملة له والكراهية والتحامل لكونه أسود · فقصته هى قصة بطولة بشرية ·

ولد صمويل ريدج عام ١٨٧٥ لأب من سيراليون وأم انجليزية ، وكان أبوه دانيال قد ذهب الى انجلترا ضمن جماعة من الشباب الأفريقى لطلب العلم ، وبعد ان أكمل الأب دراسة الطب فى الكلية الملكية للأطباء والجراحين وهى ذات مستوى عال ، عمل كممارس عام فى لندن وكان طبيبا ممتازا ، ولكنه أدرك ان الطريق مستحيل فى مواجهة الكراهية التى اتسم بها العصر الفكتورى فى انجلترا للأجانب وبخاصة السود ، واكتشف الأب أن الكثير من الانجليز وقتها معبئون بالتحامل الامبريالى ، ولا يرتاحون لفكرة أن زنجى يعتبر مساويا لهم ، ولأنه لن يستطيع أن يتغلب على ذلك فقد ترك انجلترا عائدا الى بلاده وترك زوجته وابنه الوحيد صمويل يواجهان المناخ العنصرى ·

شب الطفل الأسود الصغير ونما وسط بحر من الوجوه البيضاء ، وبينما كان زملاؤه الأطفال ومن هم فى مثل سنه ينطلقون ويلعبون كان هو ينزوى جانبا فى فناء المدرسة يلعب على الكمان التى لم تكن تفارقه

أبدا ، وشعر مدرس الموسيقى بموهبته فطلب منه أن يستمع الى عزفه ، ورغم خوف الطفل الذى لم يكن يتعدى سبع سنوات وخجله وشعوره بالدونية بسبب لونه وباعتباره أجنبيا فقد عزف قطعة صعبة على الكمان ، عزفها عزفا صحيحا وبغير أخطاء ففرح به مدرسه وعرض عليه أن يعطيه دروسا بغير مقابل • ومن هذه اللحظة بدأت الظاهرة الموسيقية تتشكل لتظهر فى بواكير القرن العشرين •

ومع هذا التميز ظلت حياة صمويل صعبة وغير مريحة ، فقد كان هو التلميذ الأسود الوحيد فى المدرسة ، وكان يواجه بكراهية ومحرجات شديدة ، كان التلاميذ ينادونه بلفظ « المتفحم » وحاول بعضهم أن يشعل النار فى شعره ليعرف ما اذا كان شعره الفلفلى قابلا للاحتراق أم لا • ولكن بقدر هذا الخجل والحساسية البالغة لوضعه كان يتفوق عليهم ، وكان الوحيد الذى يختار لكى يقدم معزوفاته لضيوف المدرسة وفى حفلاتها •

عندما أنهى المرحلة الأولية ووجه بمشكلة أخرى ، فقد كان عليه أن يحصل على النقود لاعاشته وفى نفس الوقت عليه أن يستمر فى دراسته الموسيقية •• والحقيقة أن أمه الانجليزية التى وقفت دائما كالصخرة بجواره كفلت له تعلم العزف على البيانو لتطمئن أكثر على مستقبله الموسيقى •

وفى هذه الفترة الحرجة فى حياة الصبى شاء القدر ان يسمعه أحد المياسير فى لندن هو الكولونيل ووترز الذى أعجب بامكانيات الصبى وعرض أن يتكفل بنفقات تعليمه الموسيقى •• وواجه الكولونيل معارضة ونقدا شديدين من الصحافة ورجال المجتمع الذين حذروه من هذا العرض وقالوا له ان نمو العقول الزنجية يتوقف فى مرحلة مبكرة ومن ثم فان مساعدته لصمويل هى تبديد للجهد والمال •

ولكن الكولونيل مضى فى تقديم عونه وبعث بالصبى الى الكلية الملكية الموسيقية ، ورفض فى البداية مدير الكلية قبوله قائلا ان عنصر الصبى يجعله غير قادر على تفهم الدرجات العليا للفن والموسيقى ، وتحت ضغط الكولونيل وافق المدير على قبوله • ولكن هذه الضغوط والظروف التى واجهت صمويل جعلته يتعثر فى الدراسة بما بدا معه ان المظهر العرقى أثبت صوابه وصحته •

ولكن الأقدار أخذت بيده فقد سمعه بالمصادفة السير « تشارلز ىورد » الذى تأكد فور سماعه انه وضع يده على عبقرية تتشكل فتبنى هذه الموهبة الطبيعية ، وعلمه كيف يكون الانضباط والانتظام وكيف يسيطر على نفسه ويتخطى الصعاب من أجل ان يحقق هدفه ·

وبدأ صمويل فى التطور ·· لم يكن يرضيه الا بلوغ المنتهى ، كان يلقى فى النار بأصول مؤلفاته الموسيقية ليحث نفسه للوصول الى مستوى أحسن ، وكان أصدقاؤه يعارضون سلوكه هذا فكان يرد بأن الأعمال التى لا ترضيه تماما يجب ان تلقى فى النار ، مع ان هذه المسودات كانت على قدر كبير من العبقرية ، وقد التقط أحدهم واحدة منها وأنقذها من الحريق ، وأصبحت هذه المسودة فيما بعد من أحسن وأكثر المؤلفات الموسيقية شعبية ·

ظل صمويل يؤلف المقطوعة تلو الأخرى ، كان مصير غالبيتها النار حتى صار بارعا فى التأليف · وفى احدى المرات قال لقد آن الأوان لكى أتقدم للشهادة الموسيقية ونالها بجدارة · وحصل على جائزة ليزلى الكسندر عامين متتاليين وذاع اسمه وبدغ صيته كل الدوائر المهمة فى عالم الموسيقى ·

جاءته الفرصة الكبرى من الموسيقى الانجليزى الكبير السير ادوار جار ، فقد طلب من السير أن يؤلف قطعة موسيقية لتعزف فى أحد الأحداث الموسيقية الكبرى ونظرا لانشغاله وارتباطه بعروض أخرى ولتحمسه للشاب صمويل فقد كلفه بعملها بدلا منه ·

أدرك الموسيقى الأفريقى ان هذه هى فرصته الذهبية فاشتغل طويلا وبجدية حتى أعد القطعة المطلوبة ، وقاد العزف فى احتفال « جلوسستر » الذى حضره صفوة المجتمع والموسيقيون الأوربيون الكبار ، ورغم انه ورد فى الاعلانات ان قائد الأوركسترا سيكون أنجلو أفريكان ، فقد ظن الناس ان ذلك يشير الى رجل أبيض ولد فى أفريقيا ، ومن ثم كانت المفاجأة عندما وقف صمويل أمام الجمهور ورأوه رجلا أسود البشرة مجعد الشعر فساد صمت رهيب ثم بدأ الهمس يتردد ان القائد زنجى ، وأخذوا يتشككون فى مقدرته ويتساءلون ما نوع الموسيقى التى يمكنه ان يعزفها ·

ثم بدأ صمويل يعزف مقطوعته الموسيقية ·· كانت ملهمة وجريئة وجديدة ومتناغمة بشكل أزهل الحاضرين ، وفى نهاية العرض اخذ

تصفيقهم يصم الآذان واستعيد العزف مرة ومرة أخرى وتحقق الجمهور من أن نجما جديدا كبيرا قد ولد ٠

وصل صمويل الى جلوسستر موسيقيا مغمورا وتركها وهو عبقرية مشهورة ٠ فكتبت عنه صحف بريطانيا وأوربا وأمريكا ٠ وذكرت قصته ومدى ما حصل عليه من نجاح ، وتوالت عليه الدعوات كثيفة وسريعة خاصة بعد ان عزف فى قاعة البرت بانجلترا أمام الآلاف المؤلفة ، وأصبح نجم حفلات الأوساط الاجتماعية العليا واحتفى به النقاد ٠ وألف المزيد من القطع الموسيقية وقاد فرقا كثيرة وعين أستاذا للتأليف الموسيقى فى كلية ترينتى وأستاذا للنغم فى مدرسة الموسيقى والفن ، وقال عنه الناقد الموسيقى الكبير فى ذلك الوقت « جوزيف بنت » « ان صمويل كولى ريدج هو رجل الساعة » ٠

وعلى الرغم من هذه الألمعية ونجاحات صمويل المتتالية فقد ظل فى أعين الكثيرين وبعض النقـــاد هـو الزنجى الملون ٠ فالمجتمع الأبيض والعنصرية التى كانت سائدة فى عصره لم تقبله أبدا ٠ أدرك صمويل ذلك جيدا كما سبق ان أدركه أبوه ، وتحقق من ان الخلاص ونجاحه الحقيقى فى العودة الى جذوره التى انقطع عنها وان عليه أن يسعى لكى يعرف هويته الأفريقية ويقاتل لاظهارها والفخر بها فهذه هذه رسالته الحقيقية ٠ وحثه على ذلك صديق عمره الدكتور وليام دى بوا الأب الروحى للجامعة الأفريقية وبالذات كتابه « روح الشعب الأسود » الذى وصفه صمويل بأنه أعظم كتاب قرأه على وجه الاطلاق ٠

ترك صمويل بريطانيا ، وقام بثلاث جولات ناجحة فى الولايات المتحدة ، وقابل فيها فنانين ومفكرين سود وافتخر بأسلافه ولكنه لم ينس قط مدى الظلم الذى مورس ضده والذى ذاقه فى حياته ، وقاد فرقا موسيقية فى الولايات المتحدة وكان من الممنوع وقتها على السود أن يشتركوا فى مثل هذا النشاط ٠ ودعاه على العشاء الرئيس الأمريكى « تيودور روزفلت » ، وقدم صمويل له مظلمة عن السود الأمريكيين

وخرج من دائرة الموسيقى الكلاسيكية الغربية التى برع فيها ، وبدأ يؤلف الأغانى القوية التى تتحدث عن الكبرياء المفقود للعرق الأسود ، وحاول ان يصنع للموسيقى السوداء ما صنعه « جريج » للموســيقى النرويجية وما صنعه « دفوراك » للموسيقى البوهيمية ٠ وأنتج ٢٤ لحنا زنجيا ، وصار واحدا من أشهر الموسيقيين الغنائيين ، ولكنه لم يحصل

على قرش واحد من حقوق التأليف فلم يكن أبدا طامعا فى ثروة اذ كان همه الشاغل هو ان يتحدث عن حقوق السود ٠

فى بداياته ٠٠ كان يقول عن نفسه انه مواطن بريطانى أولا وأسود ثانيا ، فصار يعتبر نفسه أسود فى الأساس ، وكتب بحماس فى الصحف البريطانية يدحض بعنف الدعاوى التى تحاول ان تثبت نقص الرجل الأسود ، ووهب نفسه للعمل الكبير وهو احياء الزنوجة من خلال الفن ٠ وفى حياته اللامعة القصيرة كتب ٨٢ قطعة موسيقية أغلبهـــا فى هذا الشأن ، ومات شابا وهو فى السابعة والثلاثين من عمره ٠

الــروائى الصومالى
نور الدين فرح .. البساطة المركبــة

فاز الروائى الصومالى « نور الدين فرح » بجائزة نوستادز ، ورغم ان قيمتها لا تزيد عن ٤٠ ألف دولار الا أنها تعتبر لدى الكثيرين فى مجال الآداب الجائزة الدولية الأرفع مستوى بعد جائزة نوبل . ونور الدين فرح يعد الآن من أكبر كتاب الرواية الافريقيين وواحدا من أوسع المؤلفين الأفريقيين انتشارا وقراءة وترجمت أعماله الى أكثر من عشر لغات .

يوصف فرح بأنه كاتب انثوى فهو يســـجل بتعاطف وشـــاعرية أحاسيس المرأة فى المجتمعات التى يسودها الرجال والتى لم تكتسب فيها النساء بعد احترامهن ولا حرياتهن .

عرفت فرح عن قرب اذ التقيت به فى مؤتمر القمة الافريقى الذى عقد فى مقديشيو عام ١٩٧٤ ، وطوال أيام المؤتمر لم يفارقنا ، كان فرح شابا فى التاسعة والعشرين من العمر فهو من مواليد أوجادين عام ١٩٤٥ .. شخص نحيف ذو وجه بشوش وابتسامة دائمة وعينين لامعتين تحويان شيئا أكثر من الذكاء تحويان الحساسية المفرطة . ورغم بشاشته وانطلاقه كان متبرما ساخطا متوجسا من الرئيس سياد برى ونظامه .. فى ذلك الوقت كان برى فى أوج مجده رجل دولة وأول رئيس صومالى يسعى لتوحيد أشطار بلده الممزق ، وبدا زعيما أفريقيا يناضل من أجل تحرير الصومالات الخمس واقامة دولة موحدة فكان يحوز الاعجاب والتأييد من خارج بلده .

دارت بيننا أحاديث طويلة حول مســتقبل الصومال وحرية الفرد والديمقراطية وحكم العسكر ، كنت متفائلة وكان فرح متشائما ، كان يصف الرئيس الصومالى بانه رجل دعاية أكثر ما يكون رجل دولة وانه يبدد ميزانية البلاد على المظاهر أكثر مما يوجهها فى اصلاح أوضاع الصومال ، وضرب مثلا بالمكان الذى كنا نقيم فيه وهى مدينة كاملة بناها سياد برى خصيصا لمؤتمر القمة الافريقى وسماها أفريكا فيلدج (أى قرية أفريقيا) .

سألت فرح يوما عندما عرفت انه يكتب بالانجليزية لا العربية التى يجيد الحديث بها قال « اننى لم اتمكن قط من دراسة العربية رغم ان اللغة السواحيلية اغلب ألفاظها عربية ٠

أهدانى يوما قصة قصيرة لأنشرها فى مجلة روزاليوسف أو مجلة صباح الخير حيث كنت أعمل ، أو فى أى مكان آخر فقد كان يصبو ان يعرفه القارىء المصرى ، ولكنى لم أتمكن من تحقيق أمنيته فأين رئيس التحرير الذى يقبل ان ينشر قصة لكاتب مغمور من أبناء العالم الثالث لم يثبت نفسه بعد ٠

ثم علمت ان فرح ترك الصومال وحاول يوما ان يعود اليه ولكن شقيقه نصحه عندما هاتفه من روما يطلب لقاءه فى مطار مقديشيو قائلا « انسى الصومال لقد مات ، ليس هناك صومال فيما يتعلق بك » ٠

والحقيقة ان فرح كان شديد الكراهية للرئيس برى وناقدا بعنف لحكمه الديكتاتورى وتخصصت كتاباته فى كشف الأوضــاع الجائرة لنظامه ، لذلك لم يكن أمامه سوى خيار من ثلاثة خيارات وهو أما أن يتوقف عن الكتابة أو يسجن (وربما يقتل) أو يرحل عن الصومال ويكتب من المنفى ، ولحسن حظ الأدب الافريقى انه اختار البديل الثالث فكان فرح من أوائل الكتاب الذين نفوا أنفسهم بأنفسهم ٠

ومنذ عام ١٩٧٤ حتى الآن يتنقل نور الدين فرح فى عدد من البلدان الأفريقية منها جامبيا ونيجيريا ٠ التى تزوج منها وأوغندا ، يقتات من دخل كتبه الذى يكاد يكفيه يعيش يوما بيوم وصارت حياته المادية دائما صعبة ، فى حين كان يمكن ان يختار العيش فى أوربا أو أمريكا ويكسب راتبا كبيرا اذا عمل محاضرا كما عرض عليه مرارا ، وكان هذا سيزيد انتشاره وتألقه كمؤلف روائى ٠ رفض فرح كل ذلك واختار الطريق الصعب ولكنه الطريق الأشرف ، لقد فضل أن يعيش بجذوره ولهذا تشم فى رواياته دائما رائحة الأرض الافريقية ، والناس فى كتبه حقيقيون ، فلم يكتب نور الدين فرح من برج عاجى قط وظلت كل أعماله تدور حول الصومال والتركيب الاجتماعى فيه ، وجاء وصفه للمجتمع الصــومالى وتحليله لعناصر الأوضاع السياسية للأمة وأشكالها أمرا مبدعا ، فان عمق المعرفة التى صور بها لوحات الشعب الصومالى جعلت المحللين السياسيين المحترفين يبدون سطحيين بالمقارنة بتحليلاته ، رغم انه لم تطأ قدماه أرض الصومال منذ ربع قرن ٠

يحلو لنور الدين فرح التنويه دائما بهويته البدوية ، وبداوته لا تتبدى فقط فى تعدده اللغوى فهو يتكلم الأمهرية والصومالية والايطالية والانجليزية الى جانب العربية وانما فى تجاربه الحياتية ، ورواياته يصعب تصنيفها فهى تعتبر رمزية الى حد ما وتعتبر أيضا نوعا من الواقعية الخيالية ، وهذه النوعية من الكتابة جعلت فرح روائيا صعبا يتطلب من قارئه سعة فى الخيال · سئل يوما لماذا هو كاتب مركب معقد فأجاب : اذا كانت رواياتى مركبة معقدة فذلك لسبب ان المجتمع الصومالى الذى اكتب عنه مجتمع مركب ·

أولى روايات فرح « من ضلع اعوج » كتبها وهو يدرس الفلسفة فى جامعة شانديغاى بالبنجاب عام ١٩٦٨ ، ونشرت عام ١٩٧٠ · بطلتها عبلة التى تهرب من احدى قرى الاوجادين بعد ان باعها جدها لصديق لتعمل خادمة لديه ، وتذهب الى ابن عمها فتواجه نفس المصير وتعتبرها زوجته الحامل خادمة لها · وعندما لم تعد زوجته بحاجة اليها بعدما ولدت يكرر ابن العم ما فعله الجد ويبيعها الى سمسار عجوز فتهرب من البلد كله الى العاصمة مقديشيو ، وهناك تقابل الشاب أويل ابن المدينة الايطالى الثقافة الذى يتزوجها بعد اغتصابها ثم يتركها ويسافر فى بعثة دراسية الى روما ، وتكتشف عبلة أن أويل على علاقة بفتاة ايطالية فتقرر الانتقام وتتزوج سرا بعجوز ثرى مزواج ولم يدم الزواج ، وتصارح عبلة العجوز وهى تهجره : أنا زوجة أخرى لك ، ولكن لى أنا أيضا زوج آخر فنحن اذا سواسية · وهذه الرواية رغم سذاجتها تحمل فى طياتها دعوة لتحرير المرأة من رق عبودية الأسرة والتقاليد ·

روايته الثانية « ابرة عارية » ١٩٧٦ ، هى أكثر نضوجا ، تدور حول مدرس صومالى وعد شابة انجليزية بالزواج حين كان يدرس فى بلادها ، وبعد عامين تزوره فى مقديشيو آملة ان يفى بوعده · ويتناول فرح بحساسية مرهفة معضلة زواج الأفارقة · بغربيات فى حالتى النجاح والفشل ·

وفى ثلاثيته المسماه « تنويعات فى موضوعات ديكتاتورية أفريقيا » وهى ثلاث روايات نشرت أجزاؤها فى بريطانيا والولايات المتحدة ، أولها « حليب حلودمر » وصفها فرح بأنها عن الذين لا يساومون · تكشف الرواية جوانب الحياة الصومالية القاتمة عندما يغيب الرشد ويضحى التعذيب ليس وسيلة للاستنطاق وانما طريقة حياة عبثية · الرواية عن حكام الصومال الذين يعتقلون الناس ويحبسونهم دون أمر قضائى ولا محاكمة ويسومونهم سوء العذاب داخل السجون ، يبحث بطلها عن

شقيقه التوأم « سبـــوبان » الذى كان يعمل مستشارا قضائيا للرئيس الصومالى ويبدو ان « سوبان » إغتيل مسموما وهو فى مأدبة رسمية الا أن النظام الحاكم يحوله الى شهيد بعد تحريف أقواله وهو على سرير الموت ·

الرواية الثانية فى الثلاثية « ســـادرين » بطلتها صحفية متحررة كتابتها محظورة فى الصومال تهجر زوجها الضعيف الشخصية الذى ارتضى لنفسه ان يصبح وزيرا ، وكانت بذلك تهرب من بيت الزوجية ومن حماتها التقليدية النظرة التى هددت مرارا بختان حفيدتها ·

أما ختام الثلاثية « اقفل ياسمسم » فهى أنصاف للنموذج الأبوى الخير ، بطلها شيخ متدين مناضل قديم يعيش مع أحفاده فى وئام يجاهر برفض الديكتاتورية ويدفع صغاره للانضمام للمعارضة النشطة للنظام ·

وجاءت رواية « الهبات » أو العطايا التى تدور أحداثها فى أواخر السبعينات ، جاءت سياسية مباشرة موجهة مليئة بالوثائق والبيانات المتسوبة الى وكالة الأنباء الصومالية أو منقولة من صحف صومالية عن التصـــحر والجفاف والمجـــاعة والمعونات الأجنبية مع أن هذه البيانات لا تشكل جزءا عضويا فى البناء الروائى وانما حشرت فى سياق كتابات بطل الرواية الذى يعمل صحفيا ·· وقد استلهم فرح فكرة الرواية وهو فى جامبيا عندما منحت الحكومة الأمريكية للرئيس الجامبى هبة كبيرة من الأرز بهدف ان يستغله الرئيس كرشوة للناخبين فى انتخابات الرئاسة ، وأدى هذا بأهالى جامبيا الى العزوف عن زراعة الأرز المحلى والاعتماد على أرز المعونة ·

بطلة الرواية « دنيا » كانت هى الأخرى هبة أهداها والدها الى شيخ مسن ضرير أنجبت منه توأمان ، وتتزوج بعد وفاته من طارق الصحفى الصومالى الذى يهاجم التدخلات الأجنبية المتمثلة فى المعونات فهو يعتبرها سلاح الدول الغنية لتدمر به الشعوب الفقيرة وتفقدها القدرة على العيش بكرامة ، ولكن هذا الزوج الذى يتشدق بالشعارات الثورية كان مدمنا غير قادر على تحمل المسئولية فتتركه « دنيا » وتعمل ممرضة لتعول أبناءها · ثم تتعرف على « باسوسو » الشاب الطيب البالغ الثراء الذى عاش فى الولايات المتحدة ربع قرن وعاد الى الصومال ليساعد طوعا فى بناء بلده · ويعجب « باسوسو » بشخصية دنيا ولكنه يجد صعوبة فى الاقتراب منها فقد باتت تستريب من عطايا وهبات ذوى النفوذ والجاه ، وتتفرغ دنيا لتنشئة عائلتها الصغيرة بالاعتماد على النفس ورفض الهبات · وتوصى أن يكتب على قبرها « هنا ترقد دنيا التى لا تثق بمانحى الهبات » · وقد

نشرت هذه الرواية عام ١٩٩١ قبـــل الحرب الأهلية الصـــومالية وقبل المجـــاعة ٠

أما عن عن أمنيات الكاتب الصومالى الفائز بالجائزة الأدبية فيقول : « أريد أن أعود الى الصومال وأنشىء منظمة للكتاب وأريد أن أصنع أفلاما وأريد أن أنتج كتابا رخيصا وان أنعش خيال الناس » ٠ وعندما سـئل لو دار الزمن الى الوراء هل كان يبغى أن يكون كاتبـا ، أجاب بحسم : « لا ان الكتابة مؤلمة وصعبة ، كنت اختار ان أكون نجارا » ٠

نادين جـوردیمر
الفائزة بجائزة نوبل

نادين جوردیمر كاتبة أفريقيــة بيضاء حصلت على جائزة نوبل للادب لعــام ١٩٩١ ، وهى ثالث كاتب أفريقى يحرز على جائزة نوبل للأدب بعد الأديب « وول سوينكا » الذى فاز بها عام ١٩٨٦ ، ثم الأديب المصرى « نجيب محفوظ » عام ١٩٨٨ · وبعدها جاءت نادين لتتوج بفوزها دور المرأة وجهودها فى المجتمع الدولى بشكل عام وفى أفريقيا على وجه الخصوص ·

ونادين جوردیمر وان كانت بيضــاء البشرة فهى أفريقيــة المولد والعقيدة · وهبت نفسها للدفاع عن أفريقيا وكشف العنصرية البغيضة التى ينتهجها بلدها · وتعد واحدة من أكثر الكتاب كشفا لحقيقة الحياة فى بلدها جنوب أفريقيا ، وبسبب صدقها وصراحتها وقوة دلالاتها ومنطقها صودرت كتب عديدة لها ·

ونادين هى أول سيدة تحصل على جائزة نوبل خلال الـ ٢٥ سنة الأخيرة ، وسابع امرأة تحصل على هذه الجائزة فى الأدب خلال تسعين عاما هى عمر الجائزة ، وهى أول من يحصل عليها فى الأدب فى جنوب أفريقيــا ·

ولدت نادين فى جنوب أفريقيا عام ١٩٢٣ وانتجت عشر روايات وأكثر من ١٠٠ قصة قصيرة على مدى الستين عاما ، وأول مجموعة من قصصها نشرت عام ١٩٤٩ · وهى تتهم بأنها شديدة العنف على الأوضاع فى جنوب أفريقيا ، وترد على ذلك قائلة بأنها لا تهتم بالنظرية السياسية ولكنها بوصفها كاتبــة تهتم بكيف يتشــكل النــاس من خلال النظام الاجتماعى الذى يحيون فيه ، وتصف النظام فى بلدها بأنه حاد ومتأزم·

وصف خطاب ترشيح الاكاديمية السويسرية بمنح نادين جائزة نوبل بأنها تحصل عليها من أجل كتاباتها التى تبلغ القمة فى الروعة ولأنها تكتب بشكل مكثف وبصــدق عن الجوانب الشخصية البالغـة التعقيد والعلاقات الاجتماعية فى الأوضاع التى تحياها ·

وجائزة نوبل ليست أول جائزة دولية تحصل عليها « نادين » فقد نالت العديد ، منها جائزة بوكر لعام ١٩٧٤ وجائزة مالابارت الايطالية وجائزة نيللي شاس الألمانية وجوائز أخرى من فرنسا .

عندما سمعت نادين خبر حصولها على جائزة نوبل علقت مندهشة : « انني موجودة في كشف المرشحين منذ أمد طويل وكنت أستبعد مرارا » . وقد هنأها ديكليرك الذى كان يرأس جنوب أفريقيا وقتها ووصفها بأنها انجاز غير عادى وانها أمر يشرف جنوب أفريقيا . وهذا من دواعي السخرية لأن الكاتبة حازت الجائزة بسبب نقدها اللاذع لنظام ديكليرك لسياساته العنصرية .

ومن أجل هذا النقد اللاذع والواضح فى كتابات نادين صادر نظام جنوب أفريقيا ثلاثة من أهم كتبها وهى « عالم الغرباء » و « العالم البرجوازى » و « ابنة برجر » بحجة انه هجوم شامل على جنوب أفريقيا .

ظهرت أول رواية كتبتها جورديمر « عالم الغرباء » عام ١٩٥٣ فى وقت التحولات الاجتماعية فى جنوب أفريقيا ، وأوضحت نوعا من التحليل للأوضاع المكتوبة وغير المكتوبة لدى الجماعة البيضاء وكشفت القناع عن زيف الليبرالية البيضاء وعرت سيادة النزعة العنصرية بحسبانها الفلسفة السياسية لحركات المعاداة للتفرقة العنصرية خلال الخمسينات .

وبسبب هذا الحس الاجتماعى النابض لمأساة شعب جنوب أفريقيا الأسود صودرت هذه الرواية ولكن كاتبتها اكتسبت بها صداقة النخبة المثقفة للكتاب السود ومن مناقشاتهم وحواراتهم نضجت أفكار نادين وتفتحت سياسيا .

كانت أعوام الستينات ذروة القمع العنصرى فى جنوب أفريقيا وفيها صدرت قوانين الفصل العنصرى التى كرست العزل بين الأجناس واختفى من الساحة الثقافية أصدقاء نادين المثقفون السود أما بالنفى أو الموت ، وبتأثر هذه الأوضاع أصدرت نادين عام ١٩٦٣ روايتها « حادثة حب » التى تتعرض لموضوع فشل النزعة الانسانية من الوجهتين الشخصية والاجتماعية . وان سطرا من سطور الرواية يلخصها كلها فى قول « مادام القانون باق لم يتغير فلا شىء يمكن أن يأتى بالتضامن والتماسك فى العلاقات الانسانية » .

ومن هذه النقطة فان موضوعات جديدة بدأت تطفو على سطح روايات جورديمر ، العنف والمقاطعة اللذين يعتبران من علامات الطريق فى الستينات انعكست على رواية جورديمر الرابعة « العالم البرجوازى الراحل » التى صدرت عام ١٩٦٦ تناقش المبادىء المثالية الساذجة والرومانسية للمخربين وهم جيش الشباب الأبيض ، وكانت النغمة الرئيسية لها هى اسقاط الأوهام ٠

وفى عام ١٩٧١ أصدرت روايتها « ضيف الشرف » لتتابع هذه الصحوة السياسية والأيدلوجية ٠ لقد كتبت عن بلد أفريقى لم تسمه كانعكاس للشعوب بفقدان الأمل فى الوطن ٠ وكشفت الرواية عن آليات الاستعمار الجديد وعن الخيانة المتضخمة فيه ٠

ومع ظهور حركة الوعى الأسود فى السبعينات التى قادت الى انتفاضة سويتو عام ١٩٧٦ تلك الانتفاضة التى تعتبر علامة تحول فى النضال الأفريقى من الكفاح السلمى الى الكفاح المسلح ٠ انحاذت نادين بشكل صريح وأكثر مما كان من قبل الى قضية السود ٠ وكشفت فراغ النزعة الليبرالية البيضاء وكانت تقول اننى بيضاء وراديكالية من جنوب أفريقيا وأرجو ألا تدعونى ليبرالية ٠

وفى روايتها « ابنة برجر » عام ١٩٧٩ و « شعب يوليو » عام ١٩٨١ و « رياضة الطبيعة » عام ١٩٨٩ كشفت عن المشكلات التى أظهرها الوعى الأسود الجديد والدور الذى يمكن أن يلعبه البيض فى جنوب أفريقيا المتحررة ٠ وتحدثت فى رواية « شعب يوليو » بصفة خاصة عن العلاقات بين النساء والرجال ٠

ان دأب نادين جورديمر واصرارهـــا على موقفها على مدى العقود الأربعة الماضية هو ما أوصلها الى جائزة نوبل ٠ ولكن تبقى حقيقة ان نادين ليست المرأة الوحيدة فى جنوب أفريقيا التى انتجت أعمالا رائعة، فهناك عدد من الكاتبات الأفريقيات السود فى جنوب أفريقيا ولا يقل انتاجهن عن نادين ولكن النظام العنصرى حال دون ظهورهن ووأد انتاجهن وأصبح مصيرهن اما فى المنفى أو السجون ٠

لاشك ان بشرة نادين جورديمر البيضاء كانت جواز المرور التى سمح لها بالوصول الى جائزة نوبل ٠٠ فمتى ينهار هذا السد وتجد أعمال الكاتبات التقدير على اختلاف ألوانهن ومعتقداتهن وجنسياتهن ٠

الأب عيروط

القس الذى أحب الفلاحين

فى ابريل ١٩٦٩ نقلت وكالات الأنباء خبر وفاة الأب عيروط ، وكان لهذا النبأ دوى فى أوساط المثقفين ورجال الجامعة ذلك ان هذا القس المصرى كان من أكثر أبناء جيله حبا للفلاح المصرى الغلبان ·

كتب عنه الدكتور حسين فوزى يقول « ان الأب عيروط عاش طويلا فى ريفنا ، ودرس وحلل حياة ذلك المخلوق الفريد الذى قامت عليه الشخصية المصرية مدى آلاف السنين ، والذى ثبت لى وأنا أعيد مطالعة تاريخ بلادى انها هى صانعة التاريخ المصرى ·

ولد الأب مهندس بمدينة القاهرة ١٩٠٧ ودرس بمدرسة العائلة المقدسة (الجيزويت) ثم سافر الى فرنسا وحصل على شهادته هناك ثم من « ليون » · وعلى عكس ما يحدث غالبا لدى المتعلمين الذين يفرون من الريف وتتعلق آمالهم دائما فى العيش المستقر بالمدينة · ويعتبرون من سوء الطالع أن ترمى المقادير بأحد منهم الى الحياة فى الريف ولو لعام أو عامين ، وعلى عكس ما يحدث بالنسبة للمتعلمين ذوى الأصول الريفية أنفسهم ما ان يحصلوا على قسط من التعليم ويجربون حياة المدينة ، حتى يحاولوا قطع كل صلة لهم بالريف ، على عكس ذلك كله كانت حياة الأب هنرى عيروط اليسوعى ذى النشأة القاهرية والتعليم الفرنسى فى القاهرة وفرنسا والطفولة الميسورة المرفهة · فان ما أن عاد من فرنسا بعد اكمال تعليمه حتى سافر الى قرى صعيد مصر يحيا مع الفلاح ويحاول أن يدرس حياته وظروفه الاجتماعية واسلوبه فى التفكير· كان هنرى كاثوليكيا انضم الى سلك الرهبانية فى طائفة الأباء اليسوعيين مدفوعا بميله القوى لتكريس حياته لخدمة الآخرين وذلك فى عام ١٩٢٦ · وطائفة الجيزويت أسست فى القرن ١٦ فى أوربا ، وقدم مبشروها الى الشرق منذ القرن ١٧ وتفرقوا فى أقطاره يشيدون الأديرة والمدارس ، وبدأ نشاطهم بمصر فى القاهرة ١٨٧٩ وفى الاسكندرية بعدها بسنتين ·

من عادة المثقفين من رجال الدين أن تشغلهم أبحاث العقيدة أو المقارنة بين الأديان أو الصراع بين الفلسفة والدين أو الخصومات الطائفية ، ولكن الأب هنرى عندما سافر الى الريف لاعداد رسالة الدكتوراه الذى اختار موضوعها عن الفلاح المصرى واحتك بالبيئة الريفية وجد ان الجهل هو أقوى الحقائق وأبشعها التى تخيم على الريف • وقد أنهى بحثه عن الريف ولكنه أحس ان رسالته لم تنته باتمام كتاب أو دراسة • وكانت الدكتوراه ليست نهاية علاقته بالريف ولكن بداية نشاط عملى استغرق حياته وهو الاهتمام بانشاء المدارس المجانية فى القرى النائية بأقاصى الصعيد • وأسس لهذا الغرض جمعية عام ١٩٤٠ أصبحت تدير الآن نحو مائة مدرسة فى الصعيد • وتبرع لهذه الجمعية بكل ما يملك وكانت ثروته تقدر بحوالى ١٥٠ ألف جنيه وهو مبلغ قيم فى ذلك الحين •

ولاشك ان انشاء هذه المدارس لم يكن يتم بدافع شخصى بحت. انما كان مخططا ثابتا اتبعته حمبع البعثات التبشيرية فى مصر خاصة ، والبعثات التبشيرية الأمريكية التى استهدفت نشر العقيدة البروتستانتية بين الأقباط وركزت نشاطها فى الصعيد لهذا السبب ، وكانت فى فترات كثيرة تلقى من جماهير القبط ومن الكنيسة القبطية الأرثوذوكسية مقاومة شديدة •

ونفس النشاط مارسه الجيزويت والفرنسسكان وغيرهم • وكان بعض اهتمامهم بالأمر يرجع الى أنه من الطوائف الكاثوليكية التى تحاول منع انتشار البروتستانتية •

ولكن الأب عيروط كان أكثر ما يهتم به فى انشائه لهذه المدارس والاشراف عليها بعد ذلك هو الحرص على تنشئة الشباب على الصرامة والجد والادراك القومى العميق • يصفه الدكتور حسين فوزى بقوله أحسست خلف ذلك الوجه الباسم والعيون الساحرة والأدب الاجتماعى الجم وفى طى الرداء الدينى ارادة ايجابية نحو الخير والاصلاح •

وكان هذا رأى كل من اتصل بالأب عيروط وكل من نعاه ، وقد مات الأب عيروط فى الولايات المتحدة لالقاء بعض المحاضرات عن مصر ، وتوفى وهو يتأهب للاحتفال بالقداس الدينى •

كانت رسالة الدكتوراه التى أعدها عن الفلاح المصرى عام ١٩٣٨ باسم « أخلاق الفلاح وعاداته » كانت من خير ما انتجت القرية المصرية ومن خير ما كتب عن الفلاح بهذا الشمول ، والشعور الذى يمتزج فيه الاحترام بالفهم بالشفقة • لقد أشار فى كتابه الى النهضة العلمية والفكرية

والفنية فى مصر والى المستوى الراقى للمثقفين المصريين ولكنه لا ينسى بعد ذلك أن يوجه سـؤاله المتشكك الحزين هل أفادت الطبقة الدنيـا من الشعب شيئا من هذه النهضة ؟ وهى التى لا تزال ترزح تحت وطأة الأمية :

يذكر الأب عيروط ان أطفال الفـلاحين يبـدون من الذكاء أكثر مما يبديه غيرهـم من أطفـال الأوربيين ولكن حين يكبرون ينطفىء هذا الذكاء ، ويرجع ذلك الى ما يخيم على البيئة الاجتماعية من جهل ، والى العمل الجثمانى الرتيب المهلك المتكرر الذى يمارسونـه والذى يوقف نموهم العقلى بعد ذلك • كما يلاحظ ان النساء الفلاحات أكثر ذكاء من الرجال وان السبب ربما يرجع الى انهن أكثر ممارسة لشئون الحياة فنمت عندهن قوة الملاحظة بعكس الرجال الذين يسخرون لأعمال الحقل التى تعتمد على الجهد الجسمانى الآلى وحده •

وكتاب الفلاحون من أكثر ما اشتهر من الدراسات التى وضعت عن مصر ، ألف بالفرنسية وترجم الى الانجليزية والعربيـة والروسية وأعيد ثمانى مرات • وكانت الطبعة الأخيرة سنة ١٩٦٨ زاد عليها المؤلف ونقحها باشارة سريعة عما استجد عن حياة الفلاح فى الثلاثين عاما منذ صدور الطبعة الأولى • وجزء من قيمة الكتاب تعود الى الظروف التى ظهر فيها وفى أنه سجل فى هذا الكتاب كيف ان الملك فؤاد ارتفعت ملكيته الزراعية فى فترة توليه الملك خلال عشرين سنة من ٨٥٥ فدان الى ٥٨ ألف فدان ، عدا أراضى الأوقاف التى سيطر عليها والتى تبلغ ٤٥ ألف فدان • كما سجل التقصير الفظيع التى يتصف به كبـار ملاك الأراضى وقتها من حيث الاهتمام بأراضيهم وبمن يعيشون فيها ، والتى لم تكن لهم الا انها مصدر للدخل فقط بغير أى التزام يشعرون به نحوها ونحو الفلاحين ، كما سجل اهمال الأحزاب المختلفة وقتها للفلاح حتى ان أيامها لم يبد أى محاولة لاقتراح قانون يهدف الى حماية الفلاح أو يحمى الملكية الصغيرة من التفتت أو يحد من الملكيات الكبيرة • رغم ان أجر الفلاح قرشين فقط فى أعمال تنقيـة دودة القطن سنة ١٩٣٦ • وتسـاءل أن السخرة ألغيت رسميا سنة ١٨٩٣ ولكن هل تحرر منها الفلاح عمليا ؟ كما وصف ما يرزح تحته صغار الفلاحين من أعباء الديون التى يقترضونها من المرابين • وحتى القانون الذى صدر سنة ١٩١٢ ليحمى ملكية الفلاح الصغير صاحب الخمس أفدنة فأقل من الحجز عليها ونزعها هذا القانون تحول الى عبء على الفلاح اذ امتنعت البنوك من اقراضه لأنها لا تستطيع الحجز على أرضه فوقع فريسة للمرابين •

ويأتى الكتاب بمعلومات طريفه عن الحياة فى القريه ، فالقريـه تتكون من البيوت والسوق والجبانات ‥ وتعيش كاسرة كبيره وهى كلها متشابهة وفيها دائما الحلاق والساحر والندابات وفيها البقال الذى كان يمثل حلقة الاتصال بينها وبين العالم الخارجى ، ويقوم فضلا عن وظيفته الأصلية بوظيفة الصيدلى وصاحب المقهى ومعرض السلفيات ٠ وكانت القرية تحيا حياة شبه مغلقة تحكمها التقاليد والعادات الموروثة التى تحدد معـالم تفكير الفـلاح ٠ وينشأ الطفل على عادة احترام الأم ومحبتها وهنا يسجل الأب عيروط دور المرأة فى القرية واعتماد الرجل والحيـاة الزوجيـة عليها وما لها من احترام ونفوذ ، كما يلاحظ روح التعاون التلقـائى الذى يسود بين الجنسين والتى تجمع القرية كلها للمشاركة فى عمل واحد فى أوقات الأزمات والمحن ٠ ثم يصف الأمراض التى يشـكو منها الفـلاح كالبلهارسيا والانكلستوما والبول الدموى ، وما أدت اليه البلهارسيا من اضعاف لبنية الفلاح التى يقاومه بالاسراف فى شرب المنبهات كالشاى ٠ وقد حاولت الحكومة أن تقضى على هذه العادة فرفعت سعره وكانت النتيجة ان بقيت عادة شرب الشاى كما هى وان فرق السعر كان على حساب غذائه الضرورى فزاد هذا من ضعفه وعلله بزيادة سوء التغذية ٠ ويذكر ان أشد الفلاحين فقرا ينفق على الشاى ما يبلغ ٣٠ قرشا فى الشهر (هذا عام ٣٨) وانه أصبح ضرورى كالخبز ٠

والفلاح يحس احساسا عميقا باحترام ماء النيل وهو يحرص على عدم ترشيحه لأنه كان يتصور ان هذا انتزاعـا للحيـاة منه ٠ والقبط يقدمون ماء النيل بطميه بمن يمر بهم من الزوار ومن المبشرين الدينيين ليتباركوا بطميه به (مبارك اذ هو آت من ماء النيل) ‥ والفلاح عندما يحتضر يسقونه جرعة من ماء النيل لاعتقاده أن طميه جالب للصحة ٠ كما يسقون الأم عند الولادة قليلا منه ليكون الوضع سهلا وحين يحلق شعر الطفل لأول مرة يوضع شعره فى قطعة من الطين ويرمى بها فى الماء ٠

أما عن علاج الفلاح فيختلط الطب بالسحر فى استعمال بعض النباتات التى تستخدم للتطبيب ‥ قليلا من التجارب وكثير من الخرافات بفسران تلك المجموعة المدهشة من الوصفات والتعاويذ التى تتجمع فى بعض الأحيـان ٠

ويصف الأب عيروط هذا الريف الخالد عبر القرون الطاعنة فى القدم‥ وان أبلغ ما يميز الفلاح المصرى هى صفتان : الثبات والصمود ٠

ويصف كيف صمد للأحداث التى مر بها وقهرها بثباته وصبره وكيف استقبل الحضارات والمدنيات من غير أن يفنى فيها . وما يتمتع به الفلاح المصرى من وحدة قوية غير قابلة للتفتت كصلابة حجر الجرانيت الذى بنى منه معابده وهياكله . كما يلاحظ أن الحياة اليومية للفلاح كما تدل عليها نقوش المقابر الفرعونية والأساطير القبطية وكتابات المؤرخين العرب يخيل لمن يتتبعها انها حلقات متصلة و فصول من كتاب واحد .

رهبان العلم (الأب قنواتى والأب جومييه)

فى الاحتفال بألفية القاهرة عام ١٩٦٩ ، وفى الندوة التى امتدت لأكثر من أسبوعين استرعى الانتباه رغم التنوع الكبير بين الأشخاص الحاضرين وجود راهبين يلبسان المسوح البيضاء أحدهما الأب جورج شحاته قنواتى والثانى هو الأب جاك جومييه •• وهما من الرهبان الدومينيكان فى مصر • تتبعا الندوة بنشاط كبير وحيوية غالبة وظافا بالزوار يناقشان ويتجادلان بود واضح وبمسلك يدل على الألفة والمعرفة السابقة العميقة •

طاف بذهنى وقتها كلمة المرحوم أحمد أمين عميد كلية الآداب السابق الذى حبذ فيها رهبان العلم •• أى التنسك وعزوف الباحث عن أى شىء سوى العلم وترويض النفس على مشقاته وعلى الاناة والصبر •• وكلمة الدكتور طه حسين أيضا التى دعا فيها أساتذة الأزهر أن يتعلموا من الآباء الدومينيكان • وزاد انتباهى للراهبين ، كان الأب قنواتى مرحا لايكف عن الضحك والتعليقات والتنقل بين الناس ، وكان الأب جومييه حيا مبتسما فى دماثة لا يشير الى نفسه أبدا •

والمواطن العربى يعرف الرهبان وعاظ دعاة لتعاليم الدين ، خطباء على المنابر فقط ، ولكن صورة الراهب العالم صورة عزيزة •

والأب جومييه هو نفسه الذى قرأنا له من قبل دراسة طويلة كتبها عن ثلاثية نجيب محفوظ وناقش فيها الرواية بقلم ثابت وفكر أصيل وثقافة واسعة •

واستمعنا فى الندوة الى بحث الأب قنواتى عن الكفاح ضد الزندقة فى مصر فى القرن الخامس عشر حسب ما كتبه المقريزى فى مخطوطة لم تنشر من قبل •

أردت ان استفسر عن نشاط الآباء الدومينيكان وانتاجهم العلمى واهتماماتهم ، وعن العلاقة بين هذه الاهتمامات العلمية وبين الطبيعة الأساسية لهم كرهبان وهو العبادة •

وكان اللقاء ·· فى شرق العباسية وبجوار مصنع الطرابيش القديم يقع دير الدومينيكان ·· حديقة كبيرة مملوءة بالأشجار القديمة ، وبها بناء ضخم هو الدير حيث يسكن الرهبان وحيث يعملون ·

وجماعات الدومينيكان جماعة مسيحية كاثوليكية تتبع الفاتيكان ·· أسسها القديس دومينيك فى القرن ١٣ واليه نسبت ، وهو القرن الذى شاهد احياء فلسفة أرسطو فى أوربا الغربية نقلا عن فلاسفة العرب وخاصة عن كتابات ابن رشد فيلسوف العرب فى الأندلس ، واتخذت الجماعة بهذا من يومها الأول طابع العمل على انماء العلاقات الثقافية بين الغرب والشرق وبين اللاتينيين والعرب · وكان القديس دومينيك فى طريقته الدينية يميل الى تركيز الاهتمام على البحوث الفكرية والعقلية · وانتشرت طريقته فى الأساس فى أوساط المثقفين المسيحيين وفى نطاق أساتذة الجامعات وطلابها · لذلك انطبعت الطريقة بطابع الاهتمام بالبحوث الفكرية ومحاولة الاتصال بالثقافات المختلفة لفهمها ومناقشتها · وما لبثوا ان انتشروا فى العالم حتى بلغ عددهم اليوم نحو ١٢ ألف راهب ·

وفى القرن ١٩ عندما تطورت العلوم وأثارت المناهج العلمية الجديدة الكثير من الأسئلة المتعلقة بالدين والكتب المقدسة · اهتمت جماعة الدومينيكان بمحاولة استيعاب ما يمكن استيعابه من هذه الأفكار الجديدة والتوفيق بينها وبين الدين ·

وكان من هذه المحاولات أن الأب لاجرانج الدومينيكى أسس مدرسة فى القدس أسماها المدرسة الانجيلية عام ١٨٨٠ لكى تقوم بدراسة الآثار المقدسة على الطبيعة ، وفى ذات البيئة ولكى يثبت قصص الدين من خلال البحوث الجيولوجية وأعمال التنقيب على الآثار والحفائر ·· وكانت المدرسة ترسل رحلات علمية لها الى مصر لتكملة أبحاثها ، ثم فكروا فى تأسيس مركز فى القاهرة يقوم بهذه الأبحاث ويتولى استقبال الزائرين وارشادهم ، وكان هذا سنة ١٨٨٣ ·

ومن وقتها بدأ رهبان الدير الدارسون فيه يوجهون نشاطهم للاتصال بالأزهر والجامعات ·· والاحتكاك بالحياة الفكرية فى مصر · وبعد ذلك انشىء للدير معهدا للدراسات الشرقية انشأه الأب قنواتى سنة ١٩٤٤ ورأسه حتى مماته ·

ورسالة المعهد كما قال الأب قنواتى هو انشاء العلاقات مع المفكرين المسلمين على أسس علمية بحته ·· ويهدف البحث فى الفكر الاسلامى

مع القيام بالدراسات الهادئة المتعمقة في هذا المجـــال • ولهذا السبب يلحظ اهتمام المعهد الكبير بمكتبته التى تضـــم نحو ٣٠ ألف مجلدا من عيون ما ألف في العقائد المسيحية والاسلامية وفي التاريخ الاســـلامي والمصرى ، وفي شتى فروع المعرفة • كما يقوم المعهد باصدار نشرة شبه دورية باسم « ميديو » • يصفها الأستاذ الراحـــل ابراهيم مدكور أمين المجمع اللغوى بقوله « انها همزة وصل وأدلة بحث تربط الثقافة العربية بالثقافة اللاتينية •• وتصل الحركة الفكرية المصرية بالحركات الفكرية الأوربية ، تسجل ما يطبع وينشر في مصر كل عام وتتتبع آثار الهيئات العلمية والثقافية ، تلخص نشاطها وتقدم صـــورة واضحة عن انتاجها فتسد حاجة وتؤدى غرضا قد لا تشاركهـا في أدائه صـــحيفة مصرية أخـــرى » •

كما يذكر الدكتور حسين مؤنس الذى كان مدير معهد الدراســات الاسلامية في مدريد : « انها عنصر هام من عناصر النشاط الفكرى ، وانه اذا أمكن للباحث ان يستغنى عن الكثير من مجلات المستشرقين فلن يستغنى عن هذه المجلة بالذات لما تقدمه من أبحاث وما تعرف به من الكتب » •

والأب قنواتى مدير المعهد ومؤسســه مصرى ولد بالاســـكندرية سنة ١٩٠٥ ، وحصل على شهادته في الصيدلة والكيمياء من جامعتى بيروت وليون بفرنسا ، ثم دخل سلك الرهبنة سنة ١٩٣٣ ودرس الفلســـفة واللاهوت وجاء الى مصر عام ١٩٤٤ وهو فضـــلا عن ادارته للمعهد كان عضـــوا بالمجمع اللغـــوى المصرى ، وبجمعية الصيدلة المصرية ، وبلجنة ابن سينا ، والجمعية الفلسفية ببلجيكا ، كما اختارته الادارة الثقافيـــة للجامعة العربية عضوا في وفدها في مهرجان ابن سينا الذى أقيم في كل من بغداد وطهران ، وانتدبته كلية الصيدلة بجامعة الاسكندرية لتدريس تاريخ الصيدلة وألف في هذا الموضوع كتابا عرض فيه للصيدلة والعقاقير عند العرب ، ولأشهر الكيميائيين العرب ومنهم حنين بن اسحق وأبو بكر الرازى وعلى بن عباس المجوسى وابن ميمون وابن البيطار وكوهين العطار وداود الانطاكى • كما عرض فيه لنظام الحسبة الاسلامى ومراقبة الصيدلة والعقاقير عند العرب كما أرسلته الجامعة العربية الى استانبول لاستكشاف المخطوطات الخاصة بابن سينا ووضع كتابا ضخما عن مؤلفات الفيلسوف الطبيب العربى كان من أروع ماكتب في هذا الشأن •• ومن الطريف أنه في أبحاثه عن ابن سينا أراد ان يقوم باجراء التجارب الكيميائية التى وصفها ابن سينا في كتاباته ، فكون معملا صـــغيرا في الدير وجمع له العقاقير والأدوات وأجرى تجاربه بذات الطريقة التى شرحها ابن سينا في كتبه ، وهو يقول ان فكرة تجويل المعادن وما يعرف بتحويل النحاس

الى ذهب ، هذه الفكرة لم يكن ابن سينا يعتقد فى انها ممكنة ولكنه قام بتجاربه عنها كمحاولة منه لمعرفة المشـــاكل العلمية التى تقـــابل هذه النظرية . كما ألف كتابا ضخما بالفرنسية عن المدخل الى علم الكلام بالاشتراك مع الأستاذ جارديه ســـنة ١٩٤٩ ترجم الى العربية فى ثلاث مجلدات بعنوان « فلسفة الفكر الدينى بين الاسلام والمسيحية » .

واذا كان التخصص الأساسى للأب قنواتى هى الفلسفة الاسلامية والعربية وتاريخ العلوم فى الاسلام والصيدلة والكيمياء ، فاننا نجد الأب جومييه يهتم بالدراسات الأدبية والاجتماعية الحديثة ، وله أبحاث عن فرائض الاسلام كالحج والصيام وعن المحمل وقوافل الحج الى مكة ، كما تقدمت الاشارة الى دراسته عن ثلاثية نجيب محفوظ .

ثم هناك لوجيه بورجيـــه الذى اهتم بالتصوف الاسلامى من القرن الحادى عشر وأعد بالاشتراك مع المرحوم محمد الصادق حسين ترجمـــة عربية رصينة لسفر المزامير (من الكتاب المقدس) .

سألت الأب قنواتى مما يمول الدير فقـال انه يعتمد على الهبات والحسنات التى تقدم له بمناسبة الخدمات الدينية الروحية ، وان المعهد لايتلقى اعانة من الحكومة المصرية ولا من أى حكومة أخرى ، ويدخل فى تمويله أيضا ما يحصـــل عليه الرهبـان من أموال نتيجة نشاطهم العلمى مقــابل ما يلقونه من محاضرات وما ينشرونه ، ومن ما يقوم به المعهــد ومكتبته من خدمات ثقافية ومن الكتب فى صورة هدايا من دور النشر . وان كان المعهد بعد انضمام دور النشر للقطاع العام وجد صعوبة فى الحصول على الكتب المصرية كهدايا . وكان يأمل أن يتنبه القائمون على النشر ان يمدوا المكتبة بما تصدره المطبعة العربية من كتب ســيما كتب التراث الاسلامى .

سألته : يلاحظ فى مجلة « ميديو » التى يصدرها المعهد حرصها على تقديم الانتاج الفكرى العربى وكتب التراث للقارىء الأجنبى من ناحية رصد الكتب التى تصدر وبيان موضوعاتها مع نبذ وتعليقات عليها ، وهذا جهد لاشك فى ضخامته وفى فائدته بما يعنيه من التعريف فى الخارج بالانتاج العربى ، ولكن المجلة لا تهتم بالعمل المقابل وهو امداد القارىء المصرى الباحث بالذات بالمعرفة عما يصدر فى الخارج من مؤلفات تتعلق ببلاده أو بتاريخه ليزداد معرفة وليتم التبادل الفكرى على نحو أشمل ، فقـال ان امكانيات المعهد لاتسمح بهذا الجهد الاضافى لأن عدد الباحثين قليلة لايمكن من ذلك .

وقال الأب قنواتي انه يمكن على أساس تخصص علمي حقيقي وجاد ان يقوم حوار اخوى بين المسلمين والمسيحيين الذين يحبون العلم ويقدرونه ويكرسون له حياتهم ، وهذه أرض مشتركة لايكون عليهـــا ثمه مجـال للمنازعات ، وليس من شـــك في ان المجال الديني الخاص ســـيظل له احترامه • وهناك أيضا نواحي مشتركة يمكن ان تكون نقطة بداية لحوار بناء الا أن الخبرة أثبتت انه سريعـــا ما تنشـــأ عقبات لايسهل اجتيازها ويتحول الحوار الى تبادل للحجج ، هذا فى حين ان العلم الحقيقى يمكن أن يؤدى الى اقتناع مشترك بين الجميع حول المسائل التى تناقش • وهذا ما أتبعه المعهد منذ البداية ، فقد كان منهجه هو التخصص العلمى فى بعض النواحي التي تتعلق بالعلوم الاســـلامية بروح خاليـــة تمـاما من طابع الارساليات التقليدى ، وهذا ما أحسه بوضوح كامل جميع الأصـــدقاء المسلمين اذ عرفوا منذ البداية ان هؤلاء علماء مسيحيون اهتمامهم متجه قبل كل شيء الى اقامة علاقات أخوية حقيقية على أرض البحث المشترك •

وقال الأب قنواتي انه في عام ١٩٦٨ ألقى عدة محاضرات في المعهد العالى للدراسات العربية بروما كان موضوعها « مدخل مصر المعاصرة » عرض فيها لتاريخ مصر منذ الاحتـلال البريطـــانى ، وشرح فكر المصريين وأهدافهم من الحركة الوطنية ثم خص مصر بعد ثورة ١٩٥٢ بدراسة شاملة أوضح فيها المعارك المتتالية التى خاضتها • ودعم محاضراته بالاحصاءات وشرح القومية العربية وفكر الميثاق الوطنى ، وتابع نهضة الفكر الاسلامى والحركة الثقافية •

لو جمعت هذه المحاضرات كان يمكن ان تتحول الى كتاب عن مصر يحتل مكانا هاما وسط المؤلفات الحديثـــة التى كتبت عنها وتكون خير مرآة لتوضيح الفكر المصرى فى الخارج بقلم هذا العالم الراهب •

الجـزء الثـالث

ملف مانديلا

نلسون مانديلا .. سجين الحرية

كان اسمه عند الميلاد « دوليها هلا » ومعناه المشاغب ، ولم يكتسب اسمه المألوف نلسون مانديلا حتى يوم التحاقه بالمدرسة ، ومع انه كان لايؤمن بأن الأسماء تصنع قدر الانسان ، ولكنه عزا أصـــدقاؤه الزوابع التى واجهها الى اسمه . وفى أول يوم له فى المدرسة قالت له المدرسة ان اسمه الجديد هو نلســـون مانديلا ، فقـــد كان البيض لا يريدون ولا يستطيعون نطق الأسماء الافريقية ويعتبرونها تخلفا .

ولد فى شهر يوليو ١٩١٨ فى « مفيزو » وهى قرية صغيرة فى اقليم أومتاتا ، كانت سنة مولده نهاية الحرب العـالمية الأولى ، وزيارة وفد المؤتمر الوطنى الافريقى الى فرســـاى لكى يعبر عن معاناة الأفارقة فى جنوب أفريقيا .

كان والده رئيس قبيلة ، وكان يمكن لمانديلا ان يعيش حياة هادئة ، فهو من أسرة حاكمة هى عائلة تيمبو الحاكمة بمنطقة ترانسكاى بجنوب أفريقيا . وكانت هذه العائلة تحكم المنطقة قبل ان تخضـــع لسيطرة العنصريين البيض وقبل ان تفرض عليها قوانين التمييز العنصرى التى سلبت المواطن الافريقى صاحب البلد والأرض كل الحقوق الانسانية : حق العيش والتنقل والتملك والعمل ، وفرضت عليه ألوانا من العبودية والسجن والتعذيب . كل ذلك بموجب دستور جائر وضعه الغزاة البيض يحرم على الأغلبية الساحقة أصـــحاب البلاد الأصليون ممارسة السيادة على أرضـــهم .

وقصة الاستعمار فى جنوب افريقيا قصة مريرة ، لعل بقعة فى العالم لم تشهد نوعا من الاستعمار الاستيطانى العنصرى الذى جثم على البلاد منذ عام ١٩١٠ فقد كان اعلان اتحاد جنوب أفريقيا بمثابة عمل من أعمال انهاء الاستعمار من جنوب بريطانيـــا ليعطى لهؤلاء المستعمرين الغزاة (المستوطنين البيض) مزيدا من الحرية فى البطش وتجريد الأغلبية من حقوقهم ومن صفة المواطن ليخضعها لتمييز عنصرى فادح متواصل .

في ظل هذه الأوضاع البائسة اليائســـة ولد مانديلا عـام ١٩١٨ وأتيح له ضمن قلة معدودة أن يدرس الحقوق بجامعة جوهانسبرج ، وبدأ يتـدرب على المحاماه والأعمال القانونيـــة • ولكن منذ بداية عمله اصطدم بقيود القوانين التى تكرس التفرقة والتمييز العنصرى • وطبقا لهذه القوانين منع مانديلا من العمل كمحام فى جوهانسبرج الا اذا حصل على اذن من السلطات • وبالطبع لم تمنحه السلطات هذا الاذن ، بل أصدرت أوامرها بابعاده الى منطقة بعيدة لكى يستحيل على زبائنه ان يصلوا اليه خلال ساعات العمل المسموح بها •

وفى عام ١٩٤٤ انضم مانديلا لحزب المؤتمر الوطنى الافريقى الذى تأسس عام ١٩١٢ ، وقام بالاشتراك مع الآخرين لصياغة برنامج العمل للحزب الذى يعتبر حد فاصل فى تاريخ جنوب أفريقيا ، فقد أعلن البرنامج الكفاح الوطنى للسود عن طريق الاضرابات والمقاطعة والعصيان المدنى •

وفى عام ١٩٥٢ قاد مانديلا « حملة التحدى » التى اشترك فيهـــا ٨٥٠٠ من المواطنين المتعددى الأجناس ضد القوانين والتشريعـــات غير العـــادلة • فالقت السلطـــات القبض عليه وحكمت عليه بالسجن لمدة تسعة أشهر مع ايقاف التنفيذ ووضعته تحت المراقبة وحظرت نشاطه •

ويصف مانديلا كيف اضطهدته الحكومة فى السنوات التاليـــة • وكيف حرمته من حقه فى ممارســـة مهنته أو اعـــلان معتقداته يقول « لقد اصطنعت الحكومة القوانين واستخدمتها ضـــدى لتغل نشاطى • وفسرت الحكومة قوانينها بطريقة محسوبة جعلتنى أبدو كمـــا لو كنت خارجا عليها ، ووجدت نفسى أعامل كمجرم بلا جريمة • لقد جعلنى القانون مجرما ليس بسبب فعل ارتكبته وانما بسبب ما أرمز اليـه وأناضـــل من أجله » •

ثم أدين مانديلا بتهمة الخيانة العظمى •• الخيانة العظمى لأنه يدعو الى قيام دولة ديمقراطية غير عنصرية يتساوى فيها الجميع فى الحقوق والواجبات • وأثناء نظر القضية التى استمرت أمام المحاكم ٤ سنوات وقعت مذبحة شاربفيل (فى مارس ١٩٦٠) وهى المذبحة التى أثارت غضب العالم كله وأسفرت عن مقتل ٦٩ أفريقيا وجرح المئات •

وبالرغم من براءة مانديلا من قضية الخيانة العظمى ، الا ان السلطات أصبحت تعتبر مانديلا خارجا على القانون بصفة دائمة • وصـــدر الأمر بالقبض عليه ، واضطر مانديلا الى الاختفاء واللجوء الى العمل السرى •

وقام بتأسيس منظمة « رمح الأمة » الجناح العسكرى لحزب المؤتمر الوطنى الافريقى • وأصدر مانديلا باعتباره رئيسا للمنظمة بيانا جاء فيه « لقد انقضى عهد المقاومة السلمية وحدها ولم يكن الخيار خيارنا ، لقد رفضت الحكومة العنصرية كل مطلب سلمي بالقوة والعنف •• ان الأمم فى وقت تجد نفسها أمام طريقين لا ثالث لهما : الكفاح أو الاستسلام • وقد جاء هذا الوقت على جنوب أفريقيا • ونحن لن نستسلم وليست أمامنا فرصة أخرى سوى ان نضرب بكل ما يتاح لنا من قوة لندافع عن حقوق شعبنا من أجل مستقبلنا وحريتنا » •

واستطاع رغم تخفيه ان يغادر البلاد ، وان يشارك فى المؤتمر التأسيسي لمنظمة الوحدة الافريقية التى عقدت فى أديس أبابا عام ١٩٦٣ • وقد أثار هذا العمل ثائرة السلطات فى جنوب أفريقيا واعتبرته تحديا لها • وبمجرد عودته ألقت القبض عليه فى أغسطس ١٩٦٣ بتهمة مغادرة البلاد بطريقة غير قانونية ، وأدين وحكم عليه بالسجن مدى الحياة •

وقد عرض نظام جنوب أفريقيا العنصرى على مانديلا أن يفرج عنه مقابل ان يغادر البلاد ، ولكن مانديلا رفض واشترط هو لخروجه من السجن ان يطلق سراح جميع زملائه المسجونين السياسيين ، وان تعترف الحكومة بشرعية حزبه حزب المؤتمر الوطنى الافريقى قائلا « ان حريتى وحرية شعبى شيء واحد ولا يمكن ان يفصلا ولست مستعدا لأن أبيع او أساوم على حق شعب جنوب أفريقيا فى أن يعيش حرا » •

كان يوم ١١ فبراير ١٩٩٠ يوما مشرقا من أيام نهاية الصيف فى جنوب أفريقيا ، وفى الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر أفرج عن سجين الحرية نلسون مانديل بعد ٢٧ عاما سجنا متواصلا • ويصف مانديلا الخروج بقوله « عند بوابة السجن كان هناك مئات المصورين وكاميرات تليفزيون ورجال الصحافة وآلاف من المؤيدين ، وتملكنى الذهول والانزعاج فلم أكن أتوقع كل ذلك • وحينما دفع الى فريق تليفزيونى بشيء غامق فروى الملمس تراجعت قليلا ظنا منى أن ذلك سلاح تم اختراعه أثناء تواجدى فى السجن ، فاخبرتنى « وينى » انه مكبر للصوت • وحينما توسطت الجمع رفعت قبضتى اليمنى وحدث صخب هائل فلم أكن قد تمكنت من ذلك منذ سبعة وعشرين عاما ، وأمدنى بفيض من القوة والبهجة وشعرت — وكنت فى الحادية والسبعين — ان حياتى تبدأ من جديد •

وعندما عدت الى منزلى تحققت ان ما تشوقت اليه دائما وهو الحياة العادية • فى منزلى لن يمكن تحقيقه ، فانه فى تلك الليلة وعدة أسابيع

وشهور ظل المنزل محاصرا بمئات المهنئين الذين أخذوا في الرقص والغناء والتهليل ولم أجد مفرا من مشاركتهم ، وكان ذلك على حساب أسرتي مرة أخرى ٠

كان نشاط « ويني » ومواقفها الحادة تجاه بعض رجال الحزب سببا في احداث فجوة بينها وبين قيادة الحزب ٠ وخير مانديلا بين الزوجة أو الحزب فاختار الحزب ٠ يقول في سيرته الذاتية « في ١٣ ابريل ١٩٩٢ وفي مؤتمر صحفي أعلنت انفصالي عن زوجتي « ويني » فقد أصبح الموقف صعبا لدرجة انني شعرت انه لمصلحة كل الأطراف : المؤتمر وويني والأسرة ان نفترق ٠ وبعد أن استعرضت في بياني تاريخ علاقاتنا والتضحيات التي تحملتها وشجاعتها واخلاصها اقتنعت أنه نظرا للتوترات التي نشأت في علاقتنا في الشهور الأخيرة بشأن خلافها على عدد من القضايا فقد اتفقنا على الانفصال وان خطوتي تلك لم يدفعني اليها الاتهامات ضدها في وسائل الاعلام لأنها كانت ومازال تثق في تأييدي الذي لم يتزعزع خلال تلك اللحظات الصعبة في حياتنا ٠٠ وأضفت ربما كنت قد عميت عن أشياء بعينها بسبب الألم الذي كنت أشعر به لعدم قدرتي على القيام بدور الزوج أو الأب ، ولكنني مقتنع ان حياة زوجتي أثناء وجودي في السجن كانت أصعب من حياتي وكانت عودتي أكثر صعوبة بالنسبة لها ، فقد تزوجت رجلا سرعان ما تركها وصار ذلك الرجل أسطورة ، وعند عودة الأسطورة الى المنزل ظهر أنه مجرد رجل » ٠

وكما ترك مانديلا بيته وأسرته خضوعا لرغبة حزبه ، فقد ترك الحزب والسلطة بعد ذلك ولكن برغبته هذه المرة ، ترك السلطة لنائبه مبيكي بعد ان أدى واجبه الوطني والانساني على أكمل وجه ، وصار أشهر شخصية سياسية في تاريخ القرن العشرين ٠

لم أشأ ان استغرق في الكتابة عن مانديلا السياسي فقد كتب عنه الكثير ، فهو أكثر الرجال المعاصرين الذين حظوا بالشهرة وبالكتابة عنهم ، ولكنني شئت فقط ان أقدم مانديلا من زاوية أخرى ، انسان عادي يحب ويحب ، وهذا ما أفردت له الموضوعين التاليين ٠

وينى ومانديلا
أســطورة القرن العشرين

وينى مانديلا - مامـا ويثو أى أم الأفارقة كما يعبرون عنهـا - ونلسون مانديلا رئيس جنوب أفريقيا والزعيم الوطنى الأفريقى هما عطيل وديدمونة القرن العشرين .. عطيل فى الأسطورة الأدبية قتل ديدمونه مديا ونلسون مانديلا الأسطورة الحية قتل وينى معنويا ونفسيا ، وحطم قصة حب رائعة ترددت أصداؤها فى أجواء القارة الأفريقية .

كانا رمزا للحب والتفانى والنضال والبطولة طوال ٢٧ عاما قضاها الزوج فى السجن يحلم بنظرة من زوجته ويضمة من حنانها أو حتى لمسة من يدها . كتب لها فى السجن خطابات كثيرة بثها حبه وهيامه وأفكاره وآراءه وكرست هى شبابها وحياتها كلها فى العمل على نشر هذه المبادىء والتعاليم بين شعبها شعب جنوب أفريقيا .

لم تستطع قوة وهما بعيدان خلف الأسوار ان تفرق بينهما أو تحدث جفوة ، ولكن عندما أفرج عن الزوج وقعت الواقعة وحدثت الوشايات ولم يستطيعا ان يمنعا هجمة الاتهامات للزوجة المحبة الوفية التى كل جريمتها انها شخصية قوية ناضجة مستقلة تريد ان تصد عن زوجها حقد الآخرين وتبصره حتى لا يسقط فى شباك المحيطين به - تقول وينى « لقد كرست حياتى كلها فى العمل على استبقاء مانديلا ومبادئه ، وانه مما يؤلمنى تقويض هذه المبادىء بواسطة الرجال المحيطين بمانديلا والذين يخدمونه » . لم يرض هذا السلوك المستقيم رجال الحزب المسيطرين فتآمروا وتكاتفوا للقضاء عليها سياسيا واخماد نشاطها الثورى ولفقوا لها التهمة تلو التهمة . وعندما شوهت صورتها تماما خيروا مانديلا بين الحزب والزوجة فاختار الحزب والسلطة ، وكان الفراق والطلاق والانفصال .

كتب كل منهما كتابا يحكى سيرته الذاتية مع الآخر ، كتبت وينى كتابها بعنوان « روحى ذهبت معه » وكتب مانديلا كتابه « المسيرة الطويلة

الى الحرية » حكى فيه قصته مع الفتاة الجميلة التى وقع فى حبها منذ اللحظة الأولى ، كتب يقول : « منذ اللحظة الأولى التى رأيت فيها وينى تمنيت أن تصبح زوجة لى ، أول مرة رأيتها كانت تقف عند محطة أوتوبيس بالقرب من المستشفى التى كانت تعمل فيه كأخصائية اجتماعية فى سويتو ، اذ لمحت عيناى فتاة جميلة تنتظر الأتوبيس أدرت رأسى أتابعها ولكن سيارتى تحركت وجرت سريعا وظل وجه هذه الفتاة فى مخيلتى ومعى يطاردنى · وبعد عدة أسابيع حدث ما يشبه المعجزة اذ كنت فى مكتب رفيق النضال « أوليفر تمبو » فوجدت هذه الفتاة الصغيرة مع أخيها تجلس فى مواجهة تمبو الذى قدمها لى أنها تستشيره فى استشارة قانونية » ·

وفى اليوم التالى اتصل مانديلا تليفونيا بالمستشفى الذى كانت تعمل به وينى وطلب منها مساعدته فى دفع مبلغ للدفاع عن المتهمين بالخيانة العظمى · ويقول مانديلا : كان ذلك مجرد ذريعة للقائها ودعوتها على الغداء فى مطعم هندى بالقرب من مكتبى ·· كانت وينى متألقة باهرة ولم تكن قد ذاقت من قبل الطعام الهندى الحاذق فأخذت تشرب كوب الماء تلو الكوب لتطفىء لهيب فمها مما زادها جاذبية ، وبعد الغداء تمشينا فى حديقة مجاورة وحدثتها عن آمالى وعن الصعوبات التى تواجه من يتهم بالخيانة العظمى ، وسألتها ان كانت تقبل الزواج بى ·· الحقيقة أننى لم أستطع مقاومة روحها وعاطفتها وشبابها وشجاعتها وقعت فى حب كل ذلك منذ أول لحظة رأينها ·· وظلت وينى عدة سنوات تضحك وهى تخبر الناس بأن مانديلا طلبها للزواج ولكنه لا ينوى ذلك · وكنت دائما أؤكد لها انى جاد فى الزواج منها وان الأيام ستثبت لها صدق قولى ، فقد كان هناك حائل يحول دون اتمام هذا الزواج اذ كنت فى ذلك الحين أسعى للانفصال عن زوجتى الأولى « ايفلين ماسى » التى تزوجتها عام ١٩٤٦ وأنجبت لى ولدا وثلاث بنات ماتت احداهن ·

كانت ايفلين الزوجة الأولى شديدة التدين تكره العمل السياسى ولا تعترف بالنضال الوطنى ، وفى عام ١٩٥٥ خيرت مانديلا بينها وبين استمراره فى حزب (حزب المؤتمر الوطنى الأفريقى) وبعد وقت قصير قبض على مانديلا مع آخرين وأمضى اسبوعين فى السجن وعندما عاد الى منزله « وجدت ايفلين قد تركته وأخذت الأولاد ·· رجعت الى مسكن موحش ساكن باختصار حصلت على الطلاق وتزوجت وينى فى ١٤ يونيو ١٩٥٥ » ·

كانت وينى السادسة بين أحد عشر أخا ، وعندما أخبرت أباها بعزمها على الزواج منى قال لها : « ولكنك ستتزوجين أليف سجون » ، وأثناء احتفال الزواج قال الوالد « لقد تزوجتى رجلا متزوجا فعلا النضال » وتمنى لابنته حظا سعيدا وأنهى كلامه « والآن يجب عليك أن تتتبعى رجلك حيثما ذهب » . لم يضف كلام والد وينى جديدا فقد كانت الابنة قد قررت ذلك قبل الزفاف وقررت أن تسير فى طريق من اختاره قلبها وعقلها . بقول مانديلا « لقد شرحت لها الصعوبات التى تنتظرها ، وأخبرتها اننا محظوظان لأن لديها راتبا ضئيلا من عملها كأخصائية اجتماعية ، وتفهمت وينى ذلك وقالت انها استعدت لهذه المخاطرة ومستعدة ان تلقى بنفسها فى المخاطر من أجل مواصلة مسيرتى .. لم أعدهـا بشىء لا بذهب ولا بماس فلم أكن قادرا يومها على اعطائها شيئا من هذا .. ربما كانت وينى كتب عليها الكفاح منذ مولدها فاسمها الثانى « نومزامو » معناه النضال أو معتاد المحاكمات ان الأسماء تتنبأ بما يكون . ويقول مانديلا ان وينى كانت من وسط اجتماعى طيب ومن أسرة أفريقية عريقة ولكنها لم تكن تهتم بأى مظهر ولا حتى اذا كانت ستحصل على وجبة طعام تالية . وقبل الزواج كانت تتحرك بين أوساط وعلاقات اجتماعية صحية ومريحة وحياة تختلف كثيرا عن حياة المناضلين الذين لا يملكون قوت يومهم ، وبعد الزواج لم يكن هناك وقت ولا مال لشهر العسل فزوجة المناضل دائما مثل الأرملة حتى عندما يكون زوجها غير سجين . كنت أنتظر محاكمتى بتهمة الخيانة العظمى وأعطتنى وينى الأمل وشعرت اننى منحت عمرا جديدا وفرصة ثانية للحياة فحبى لها أعطانى اصرارا على الكفاح من أجل البقاء ..

كانت وينى فى الخامسة والعشرين من عمرها عندما تزوجت ، وسرعان ما اندمجت فى الحياة السياسية التى يحياها الرجل الذى اختارته ، واندمجت فى نشاطه الدائب وأنجبت له ابنتين جميلتين هما « زينانى » فى فبراير ١٩٥٨ و « زندزيزوا » عام ١٩٦٠ ، وكانت هذه هى كل السعادة التى شهدتها فى زواجها اذ قبض على مانديلا وظل بسجينا ٢٧ عاما . وحسب قوله عشرة آلاف يوم ، وطوال هذه الفترة لم تترك وينى لحالها فقد سجنت مرات ومرات وذاقت الهوان والهول على يد الحكومة العنصرية . وفى عام ١٩٨٤ سمح لوينى لأول مرة بزيارة زوجها فى السجن وكان ذلك بعد ٢١ عاما عندما وضع مانديلا يده فى يد زوجته . يصف مانديلا هذا المشهد « لقد قبلتهـا وضممت زوجتى ولم نتكلم وتركنا صوت قلبينا ينبض بالحب وتمنيت ألا أتركها أبدا ولكننى أدركت انى سجين واننى منذ ٢١ سنة لم ألمس يد زوجتى » .

ان من يكتب ويبوح بهذا الكلام لا يمكن ان يكون الا محبا عاشقا فكيف انفلتت الأعصاب ووهنت العواطف وحدث الانفصال الذى وصف بأنه طلاق القرن العشرين .

الحقيقة ان وينى ظلمت من الجميع ولكنها استطاعت بعد عامين من الانفصال عن الزوج وعن النشاط السياسى الحزبى استعادة رصيدها السياسى وان تجبر مانديلا بعدما عين رئيسا لجنوب أفريقيا ان يعينها نائبة لوزير الثقافة والعلوم .

لقد شوهت الصحافة ووسائل الاعلام العنصرية سمعة وينى بل وشوهها أيضا بعض رجال حزبها « حزب المؤتمر الوطنى الأفريقى » الذين تكاتفوا للقضاء عليها سياسيا واخماد نشـــاطها الثورى وأجبرت على الاستقالة من كل وظائفها فى الحزب وفى لجنته التنفيذية ومن الرابطة النسائية وأصبحت منبوذة من الجميع ، ولم يتعامل معها أحد سوى عدد ضئيل من شباب حزبها الذين أظهـروا بعض التعاطف معهـا ، واستطاعت بدعمهم ان تكسب قدرا من التأييد فى المدن .

كانت العودة السـياسية لوينى البالغة من العمر ٦١ عاما فى ديسمبر ١٩٩٣ عندما رفع الحظر عن رابطة النساء التابعة لحزب المؤتمر الوطنى الأفريقى بعد جدال واسع حول هذا التنظيم ، وانتخبت وينى رئيسة للرابطة ، وهذا المنصب يعد ثانى أقوى منصب فى الحزب بعد منصب رئيس المؤتمر . وقد دمعت عيناوينى عندما انتخبت رئيسة لرابطة النساء وهى تخطب بين مؤيديها : « لقد طوقتمونى بشرف كبير ، أنا لم تصنعنى وسائل الاعلام ولم أومن قط بأن زعماءنا تختارهم الصحافة ، هذه المرحلة قد ذهبت والآن فان الجماهير تختار قادتها ، لقد جئت من قاع المجتمع ولا يمكن أن أدع شعبى فى القاع ، ان السياسات الشعبية هى الصراع الوحيد الذى أفهمه وأنا لست مؤمنة بالسياسات التى تؤدى الى ركوب المرسيدس وتتجاهل الجماهير .

وهكذا استرد وينى لقب ماما ويثو أى أم الأفارقة كما يعبرون عنها بتعاطف شديد فى دوائر الحزب . وعادت لتكون الابنة البـارة بين مؤيديها وخاصة الشباب المتحمس فى المدن والمعسكرات . وتقدمت وينى الانتخابات كقيادة شعبية تمثل الجماهير المضطهدة والفقراء ، وكانت الخدمات الاجتماعية التى تقدمها هى ما بنى لها قاعدة قوية بين الفقراء والمساكين . وفى بحث أجرى سريا فى الحزب حول مدى التأييد الذى تتمتع به زعامات الحزب وجد ان وينى تندرج بين القادة الخمسة على القمة .

ان وينى التى تعد من أشهر الشخصيات النسائية فى العالم والتى تحسدها الكثيرات المتطلعات للزعامة ، لم تعرف طعم الحياة الهادئة مطلقا ، فبعد زواجها من مانديلا عام ١٩٥٥ دخلت السجن عدة مرات حتى قبل ان يسجن مانديلا نفسه عام ١٩٦٢ لمدة ٢٧ عاما متصلة ٠ وكتب عليها ان تناضل فى أكثر من جبهة فى آن واحد ٠ جبهة توفير لقمة العيش لابنتيهما وأطفال الشهداء ، وجبهة تاليب الرأى العام المحلى والدولى ضد النظام العنصرى ، وجبهة العمل للافراج عن زوجها ومواصلة كفاحها فى اطار حزب المؤتمر الوطنى الأفريقى ٠٠ اعتقلت وذاقت كل ألوان التعذيب والاهانات ، فجر منزلها عام ١٩٨٥ وأشعلت فيه النيران مرة أخرى عام ١٩٨٨ ، وكانت لا تستقر فى مكان خشية السقوط اما بيد أجهزة الأمن أو برصاص القوى العنصرية ٠

وشنت على وينى حملات ظالمة والصقت بها اتهامات باطلة كثيرة ، اتهمت باختلاس أموال الحزب ، وانها شاركت فى تعذيب صبى حتى الموت ، وانها مدمنة كحول وانها تتصرف بصورة غير مشرفة وغير مسئولة وتشوه سمعة الحزب ، كما اتهمت جمعيتها التى تعرف باسم « اتحاد حراس مانديلا » بأنهم يضربون ويقتلون صبية المدارس ويغتصبون الفتيات ويحرقون المنازل والممتلكات الخاصة لكل من يعارض وينى وأفكارها ، حتى أصبح مجرد ذكر اسمها يثير الرعب ٠ وسرب ذلك لمانديلا وهو فى سجنه ، فلما خرج لم يضيع وقته ولم يحاول ان يتأكد من صدق هذه الاتهامات بل أمر وينى بأن تلغى جمعيتها وتنهى علاقتها بهم ٠ وداومت أجهزة الاعلام فى جنوب أفريقيا الموالين للتفرقة العنصرية واستغلت الفرص للتشنيع عليها وعلى الحزب حتى صارت وينى موضوعا سياسيا ، واتخذ قرار انفصالها أعلى مستويات الحزب ، وضغط الحزب على مانديلا ليطلقها اذا شاء البقاء فى قيادة الحزب ويكون مرشحه الوحيد لرئاسة الدولة ٠ لم يستطع مانديلا الصمود وأعلن قرار طلاقه وأجبرت وينى على التخلى عن كل مسئولياتها القيادية فى الحزب ٠

والغريب انه بعد ان تم تشويه سمعة وينى وفقدت مركزها الحزبى ، برأتها محكمة العدل فى بريتوريا من تهمة قتل الصبى لعدم توافر الادلة على تورطها ٠ وبعد تبرئتها بدأ نجم وينى يصعد من جديد ٠ والطريف ان الانفصال لم يسكت وينى وانما جاء كما لو كان حررها وأطلق قيودها وأعطاها رخصة ان تقول أى شىء يرد على ذهنها كما تشتهى ، فهاجمت قيادات الحزب واتهمتهم بالفشل ان يكونوا قيادة شعبية ، ودعت الى قيادة جديدة تحقق مصالح الجماهير ، وهذا مما دفع

الحزب ان يطردها من مناصبه وأطلق شائعات عن غرامها مع محاميها ، وكذلك اساءة استخدام أموال الحزب فى جولاتها فى الخارج .

لم تضع وينى وقتها فى الرد على هذه الشائعات ولا البكاء على المناصب التى فقدتها ، بل طرحت مشاكلها الخاصة وركزت جهودها لتبرئتها من تهمة القتل لتستعيد وضعها السياسى ، وكانت تظهر فى الجنازات وفى المسيرات والأماكن العامة وتقابل الناس وتسألهم عن مشاكلهم وعما يجب عمله لاصلاح أوضاعهم ، وعادت الى نشاطها القديم بالعمل كاخصائية اجتماعية (.ويذكر ان وينى أول فتاة سوداء عملت فى الحقل الاجتماعى والطبى فى جنوب أفريقيا بعد ان أكملت دراستها فى المجال الاجتماعى عام ١٩٥٣) . ونزلت وينى الى القاع مرة أخرى فى الأحياء البالغة الفقر فى جنوب أفريقيا ، وفتحت مدرسة ومستوصفا فى فولا بارك أكثر مناطق السود فقرا ، وذلك من حصيلة كتابها « روحى ذهبت معه » وهو كما سبق الاشارة عن مانديلا وفترة سجنه ، وكسبت وينى من هذا النشاط الاجتماعى شعبية كبيرة أهلتها ان تعود مرة أخرى منتصرة فى العمل السياسى .

والحقيقة ان وينى ومانديلا كليهما لم يخرج بعد كفاح دام ثلاثة عقود ونصف العقد من جحيم العنصرية سليما : خرج مانديلا فلم يجد وينى التى تركها قبل ٢٧ عاما زوجة البيت المطيعة ، بل وجد نفسه أمام قائدة سياسية محنكة عازمة على مواصلة كفاحها بفكر مستقل عنه . وعبرت وينى عن صدمتها فى مانديلا بقولها فى مسيرتها الذاتية « انتظرت طويلا العيش مع انسان يبادلنى الشعور نفسه فوجدت رمزا تاريخيا وسياسيا يحيا حياة غير انسانية ، واضحى غير قادر على الوفاء بواجب الزوج والأب والجد ، ولم يتصور أبعادا أخرى فى الحياة غير البعد السياسى ، أنه عاد الى البيت رسميا ولم يعد فعليا » .

ان مانديلا خرج باحثا عن السلطة للأفريقيين جميعا بينما كانت وينى تبحث عن الزوج وعن قضايا الفقراء فلم يلتقيا لا سياسيا ولا أسريا ، وأسدل الستار عن نهاية قصة حب جارف لشخصيتين رائعتين .

جراسا ماشيل .. زهرة موزمبيق

« الحب يزدهر فى ربوع أفريقيا » ، « محبان معا على الطريق » .
« جراسا ماشيل هل تصبح السيدة الأولى لجنوب أفريقيا » ، هذه بعض
مانشتات الصحف فى جنوب أفريقيا ، وكلها تشير الى العلاقة العاطفية
التى تربط الرئيس مانديلا بصديقته أرملة الرئيس الموزمبيقى الراحل
سامورا ماشيل الذى لقى مصرعه عام ١٩٨٦ .

هذه العناوين كانت توحى بأنها تخوض فى قصة حب رومانسية ،
ولكن أمر العلاقة تطور من مجرد مشاعر عاطفية الى مناقشات لها جوانب
سياسية وأخلاقية واقتصـــادية ينقسم بشأنهـــا الرأى العام فى جنوب
أفريقيا وموزمبيق .

بدأت العلاقة تحتل الصفحات الأولى فى صحف جنوب أفريقيا عندما
ظهر مانديلا وجراسا متشابكى الأيدى يتنزهان فى ضاحية هوتن حيث
يوجد منزل مانديلا ، وكان مانديلا يلبس قميصا شبابيـــا أخضر اللون
وتمسك هى بوردة حمراء التقطها الرئيس وأعطاها لها ، وكان المنظر مثيرا
للدهشة وأعطى دلالة أن الرئيس يريد أن يجعل علاقته وعواطفه بمسز
ماشيل معلنة وعلى الملأ ، وعندما سأله أحد الصحفيين عن علاقته بجراسا
لم ينكر أن بداخله طوفانا من المشاعر الدافئة تجاهها ، غير أنه لم يشر
الى زواجهما .

العلاقة نشأت بينهما عندما التقيا لأول مرة فى جنازة اليفرتامبو
رئيس حزب المؤتمر الوطنى الأفريقى ، وعبر مانديلا عن حزنه لجراسا
انه بفقده قد صار أكثر رجل فى العالم يحس بوحشة . ويبدو أن جراسا
أخذت على عاتقها منذ تلك اللحظة ان تزيح عنه وحشته ، وأخذت العواطف
تنمو بينهما ببطء . ثم انطلقت الشائعات عندما شوهدا يتعانقان خلال
الزيارة الرسمية التى قام بها مانديلا لفرنسا ، وتوالى ظهورهما معا فى
المناسبات الرسمية فى حفل زواج الرئيس موجابى رئيس زيمبابوى،
(الذى كان يبلغ من العمر وقتها ٢٧ عاما وقد تزوج سكرتيرته الصغيرة

البالغة ٣١ عاما) • وأثناء استقبال مانديلا لملكي السويد « كارل جوستاف وسيلفيا » ، وكما اصطحبها معه في زيارته الرسمية لبلدان جنوب شرق آسيا والفلبين •

وهكذا أصبحت قصة العاشقين حديث المجتمعات ينقسم بشأنهـا المواطنون فرقا وأشياعا ، البعض يؤيد العلاقة ويرى ان ارتباط مانديلا بهذه السيدة أمر طبيعي فهي تشعره بأنه لا يزال شابا ومن البديهي ان ينبض قلبه بالحب ليعوض عشرة آلاف يوم قضاها وراء القضبان • وأن من في مثل سنه يحتاج الى محبة امرأة طيبة لديها مؤهلات جراسا ، ومنهم من ينظر الى المسألة في اطارها الأخلاقي ولا يوافق على أن تبقى هذه العلاقة غير الشرعية ، ويرى انهما يضربان للشباب مثلا سيئا بعدم زواجهما ويعتبر من الخطأ أن يعيش كلاهما في الخطيئة •

وجراسا ماشيل هي المرأة الثـالثة في حيـاة مانديلا بعد زوجتيه السابقتين ايفلين وويني • وهي مناضلة ثورية تبلغ من العمر ٥٢ عاما وتصغر مانديلا بحوالى ٢٧ سنة ، مثقفة ذات خبرة نضالية كرست حياتها للكفاح من أجل حرية بلدها موزمبيق ضد الاستعمار البرتغالي • ولدت عام ١٩٤٥ وتعلمت في جامعة لشبونة في البرتغال ، وحصلت على شهادتها الجامعية في الفنون واللغة الألمانية ، وهي تتكلم البرتغالية والاسبانية والفرنسية والألمانية والانجليزية ، وقبل عودتها الى موزمبيق تلقت في تانزانيا تدريبا عسكريا مع حركة فريليمو التي كان يقودهـا سامورا ماشيل فخلبت لبه واستأثرت بقلبه وعقله فتزوجها •

وعندما وصلت حركة فريليمو الى السلطة عام ١٩٧٥ ، عينت جراسا وزيرة للتعليم وشغلت هذا المنصب مدة ١٢ سنة ، وكانت مهمتها شاقة في بلد الأمية فيه تشمل ٩٣٪ من سكانه ، وعندما تركت منصبها عـام ١٩٨٩ كانت الأميـة انخفضت الى ٦٨٪ ، واختيرت خبيرة لليونيسيف وغنمت تقديرا عاليا لجهودها التي لا تكل لاصلاح شأن الأطفال ليس في بلدها فحسب بل امتدت لتستوعب أطفال أفريقيا كلها • والحقيقة أن جهودها في هذا المجال تتوافق مع جهود مانديلا الذي يعتبر القوة المحركة لمؤسسة الأطفال الحاملة اسمه في جنوب أفريقيا • لذلك فان كثيرين يرونها أنسب امرأة تماثل مانديلا •

أما بالنسبة لأهالي موزمبيق ، فان جراسا أو ماما ماشيل أو أم الوطن كله كما يطلقون عليها فان رد فعلهم تجاه علاقتها بمانديلا متحفظ حذر ، والرأي الغالب كان يتمنى لو لم تقم هذه الصلة العاطفية احتراما

لذكرى ساموراً ماشيل أحد قادة موزمبيق الأبطال فى معركة استقلال أفريقيا ضد الاستعمار • ويودون لو استطاعت جراسا ان تستميل مانديلا لفتح باب التحقيق فى الظروف التى أدت الى مقتل ساموراً ، خاصة أن مواطنى موزمبيق يؤكدون أن الحادث كان مدبرا •

لقى ســـاموراً مصرعه فى أكتوبر ١٩٨٦ عندما تحطمت طـائرته السوفيتية فى الترانسفال (فى جنوب أفريقيا) ، وكان بها قادة من زامبيا وأنجولا ولم ينج من ركابها الـ ٣٤ الا عشرة فقط لم يكن ساموراً منهم • وبدأت الشكوك على الفور تتهم حكومة جنوب أفريقيا العنصرية فالجو كان طبيعيـا وطاقم الطائرة كان مدربا وعالما بالطريق • وذكر الأحياء منهم ان بوليس جنوب أفريقيا عندما وصل الى مكان الحادث بدلا من أن ينقذ الضحايا أسرع الى حطام الطائرة وأخذ يفتش فيها عن الوثائق الخاصة باجتماع القمة الذى كان ساموراً متوجها اليها •

وفى الاحتفال بالذكرى العاشرة لوفاة ساموراً قال مانديلا ان الحادث سرق من أفريقيا واحدا من أعظم قادتها • وأنه سيقيم نصبا تذكاريا لســاموراً فى مكان الحادث ، وأنه يقدم أكبر وســام من الطبقة الأولى للرئيس الراحل ، وعندما تناولت جراسا الوسام قبل يدها وقال انه سيعيد البحث فى أسباب الحادث بواسطة لجنة تقصى حقائق •

وطبقا للتقاليد الثقافية لموزمبيق ، فانه اذا مات الزوج فالأخ يرث زوجة المتوفى وأولاده • ولساموراً ماشيل اخوة • ولكن من غير المتصور ان جراسا ذات الشخصية القوية المستقلة تسمح لنفسها أن تورث • وفى كتاب « موزمبيق الثورة تحت النار » الذى كتبه جوزيف ماندلون ، قال الكاتب ان فريليمو الجبهة الحاكمة التى قادت استقلال البلاد لا تزال تنظر الى الزوجات على انهن أقل شأنا من أزواجهن ، وأنه سينقضى وقت طويل حتى تحصل النساء على حق المساواة بالرجال • وكان ساموراً ماشيل يدرك ذلك ويشعر بأنه لديه مهمة عليا بشأن اقناع رفاقه فى جبهة فريليمو أن يغيروا من نظرتهم للمرأة ومن سلوكهم نحو النساء ، لذلك فى خطبة تقليده للحكومة المؤقتة فى سبتمبر ١٩٧٤ أعلن « أن واحدة من أهم الجبهات فى الصراع من أجل التحرر الحقيقى لشعبنا هو تحرير المرأة • ان الموزمبيقيات لا يزلن يعانين من عبئين باهظين أولهما التقاليد الرجعية التى تفقدهن وضعهن فى المجتمع وتحط بهن أن يكن مجرد أدوات للرجال • والعبء الثانى هو النظام الرأسمالى الاقتصادى الذى ينظر اليهن كمجال للاستغلال وأداة من أدوات الانتاج » • ومع أن الدستور

الموزمبيقى ينص على ان تحرير المرأة هو جزء من صميم مهام الدولة . فان فريليمو وافقت على قانون ينص على ان تفقد المرأة فى موزبيق جنسيتها الموزمبيقية اذا تزوجت أجنبى فى حين أن الرجل لا يفقد جنسيته اذا تزوج أجنبية .

ومعنى هذا ان جراسا اذا تزوجت مانديلا الأجنبى قد تفقد جنسيتها وتفقد لقب أم الوطن ، وهى بلا شك لا تريد أن تفقد مركزها وقيادتها فى بلادها حتى وان كان من أجل رجل ذى مركز عالمى ، لذلك فقد ظلت تعلن مرارا « سأظل دائما زوجة سامورا ماشيل وسأبقى أنادى مسز ماشيل فهذه هى الوسيلة الوحيدة التى استبقى بها زوجى حيا » .

والأثر الآخر الذى يحدثه الزواج بالنسبة للبلدين ، ان هذا الارتباط قد يحدث بعض الكسب لجنوب أفريقيا . فالاستقرار العسكرى لجنوب أفريقيا سيكون أكثر وثوقا والتحالف والروابط الثقافية والسياحية والأمنية يصبح أكثر اتصالا . ولكن عبئا ما قد يعود على جنوب أفريقيا من الناحية الاقتصادية ، عبئا مشابها لعبء المانيا الشرقية التى حملته على عاتقها المانيا الغربية بعد سقوط جدار برلين .

ومن جهة أخرى قد ينكأ الجراح القديمة بين البلدين التى أحدثها ميثاق « انكومى » ميثاق عدم الاعتداء وجرى بين سامورا ماشيل والرئيس العنصرى بوثا عام ١٩٨٤ ، والذى على أساسه قبلت موزمبيق ان توقف تأييدها للجناح العسكرى لحزب المؤتمر الوطنى الأفريقى ، الذى كان يقود حركة النضال ضد حكم جنوب أفريقيا العنصرى وينطلق من أراضى موزمبيق ، وفى المقابل توقف جنوب أفريقيا تأييدها لحركة رينامو المناوئة لموزمبيق ، وكان هذا اتفاقا تكتيكيا من جانب سامورا ليتجنب المزيد من اراقة الدماء ، وبالنسبة للرئيس العنصرى بوتا فقد استطاع ان يشدد ضرباته على قواعد حزب المؤتمر الوطنى فى موزمبيق ويصل بهم الى حافة المجاعة الجماعية .

وعلى ضوء هذه الاعتبارات فقد عرض مانديلا على جراسا كنوع من التوفيق ان تزوره جراسا كل شهر فى جنوب أفريقيا ويقضيا اسبوعين معا ، مع الأخذ فى الاعتبار ان جراسا زعيمة ولها عمل اجتماعى عام تقوم به من أجل نساء موزمبيق وأطفالهم وهذا يضاعف عبء مسئولياتها فى بلدها خلال الاسبوعين الآخرين .

ولكن هذا العرض التوفيقي الذى بدا انه مناسب لاثنين قررا أن يضعا مصالح أوطانهما قبل صالحهما الخاص لقى معارضة لمن نظروا اليه فى الاطار الأخلاقى واعتبروا انه من الخطأ البالغ أن يعيشا معا فى الخطيئة ، فالأسقف ديزمونت توتو الحائز على جائزة نوبل للسلام والرئيس السابق للكنيسة الانجيلية لجنوب أفريقيا قال ان الاثنين يضربان مثلا سيئا للشباب بعدم زواجهما وآمل ان يغيرا هذا الأمر • والتعليق نفسه جاء من راعى الكنيسة الذى عقد زواج وينى من مانديلا ، وكذلك من زعيم الحزب الديمقراطي المسيحى الأفريقى الذى علق قائلا : « ان هذه العلاقة لا تصنع مثلا طيبا وتشجع على الاقامة المشتركة فى مجتمع أسود » • وكان يشير بذلك الى الحالة التى كانت قائمة أيام النظام العنصرى عندما كان يمتنع على الرجال السود العاملين فى أماكن بعيدة عن بيوتهم أن يحضروا أسرهم معهم مما كان يؤدى الى علاقات غير شرعية فى أماكن العمل • ورغم ان ذلك يتعلق بماضى انتهى وعادت الزوجات الى أزواجهن فلا يزال له تأثيره المدمر فبعض الأزواج اعتادوا هذه الطريقة ولم يعودوا قادرين على الاقلاع عنها ، وترتب على هذا ان عددا كبيرا من الزيجات فى جنوب أفريقيا صارت تنتهى بالطلاق فى المحاكم ، والأسر التى انفصل فيها الأزواج زادت بنسبة ٢٠٪ من العشرين عاما الماضية • وهناك دعاوى كثيرة ترفعها الأمهات تطلب النفقة لأولادهن من الآباء الغائبين •

ايفلين

أما المرأة الثانية فى حياة مانديلا فهى زوجته الأولى ايفلين ماس التى ارتبط بها قبل زواجه من وينى ، فقد عبرت عن رفضها لهذه العلاقة وأعلنت بغضب « انه فى عالم يحتاج بالحاح على مزيد من جرعات الأخلاق فان معيشة هؤلاء معا رسالة خاطئة موجهة الى الشباب تقول لهم ان الزواج ليس مهما ، وأنا أفضل أن يتزوج مانديلا بدلا من أن يشير اليه الناس هذا هو الرجل البالغ ٧٩ عاما مع عشيقته ، انه يحتاج الى كرامة أن يكون زوجا » •

والمعروف عن ايفلين التى تزوجت مانديلا عام ١٩٤٦ ، انها شديدة التدين وكانت تعمل ممرضة ثم تقاعدت وتعمل الآن فى مجال الشئون الاجتماعية ، وكان من أسباب انفصالها كرهها العمل السياسى •• وفى عام ١٩٥٥ خيرت مانديلا بينها وبين استمراره فى حزب المؤتمر الوطنى • وبعد وقت قصير قبض على مانديلا مع آخرين وأمضى اسبوعين فى السجن ،

وعندما عاد الى منزله وجدها قد تركته وأخذت الأولاد ، يقول مانديلا في « سيرته الذاتية » : رجعت الى مسكن موحش ووجدت أنني لن أستنفد حياتي في الصراع معها واقناعها بالنضال الوطني فهي لا تستطيع أن تعيش مع تكريس حياتي لأمر آخر غيرها وغير الأسرة ، انها امرأة طيبة جدا جذابة قوية مؤمنة وهي أم مثالية وأنا لم أفقد احترامي واعجابي بها ، ولكن في النهاية نحن لا نستطيع ان نجعل زواجنا باقيا فسعيت الى الطلاق وحصلت عليه في ١٤ يونيو ١٩٥٥ ، وقد تزوجت ايفلين بعد ٤٠ سنة منذ طلاقها من مانديلا من « سايمون راكينايل » وهو أرمل يبلغ ٧٧ عاما وأب لسبعة أولاد • وقالت تعليقا على زواجها انها منذ انفصالها عن مانديلا ظلت تدعو الله يرزقها بشريك حياة آخر ليؤنس وحدتها وقد استجاب الله لها •

ويني مانديلا

ورفضت ويني المرأة الثالثة في حياة مانديلا والزوجة الثانية له ، رفضت التعليق على قصة الحب لزوجها السابق قائلة انه لا شأن لها بهذا الأمر • ولكن هذا القول الذي يبدو متعقلا لا يعني الحقيقة ، فقد سبق ان صرحت انها لا تعترف بطلاقها من مانديلا الذي أجبرت عليه وتم دون رضاها وأن أي ارتباط من جانبه هو ارتباط باطل •

وفي خضم هذا الجدل حول العلاقة بين العاشقين ، أعلن مانديلا زواجه من محبوبته جراسا في يوليو ١٩٩٨ ، ولم يبق ليواجه العواصف المحتملة من هذه الزيجة اذ سرعان ما تنحى عن منصبه كرئيس دولة ورئيس الحزب لنائبه ثابومبيكي أثر الانتخابات التشريعية التي جرت في جنوب أفريقيـــا في يونيو ١٩٩٩ ، ويعيش مانديلا الآن بعيدا عن الأضواء مع من اختارها قلبه •

الخاتمـــــة :

القـارة البائسـة

« أفريقيا المرحة » اسطورة ساخرة أطلقها المســـتعمر على القارة البائسة ، تدعى الأسطورة أن أفريقيا مرت فى الماضى بعصر ذهبى عاشته فيه أجيال حياة ناعمة هادئة ، كانت وسائل كسب الرزق ميسورة يجد فيها الافريقى طعامه بلا تعب ولا مشقة لأن المواد الغذائية تنمو تلقائيا وبوفرة ، ومع هذا اليسر النسبى فى الحياة ومع ما كانت تزخر به القارة من امكانيات ثراء فان أبناءها لم يستطيعوا أن يستغلوا هذا الحظ السعيد لانخفاض مستواهم العقلى وطبيعتهم الكسول الخاملة وفضلوا الاستمتاع بالرقص وقضاء الوقت فى قرع الطبول •

من الظلم دمغ أفريقيا بهذه الاتهامات الباطلة ، وهى تدل على الجهل بطبيعة القارة ، فأفريقيا مهد الانسان الأول ، أقدم القارات حضارة وأعظمها آثاراً وأبقاها من الأهرامات شمالا حتى مملكة زيمبابوى الكبرى جنوبا ومن حضـــارة اليوروبا غربا حتى مملكة أزانيا فى أقصى الشرق ، هذه الحضارات المكتشفة والتى لم تكتشف بعد ـ لا يمكن أن يكون أهلها كما وصفهم المستعمر ، كسالى همجا يهيمون فى الادغال والمستنقعات يرقصون ويقرعون الطبول فقط •

ان المجتمعات الافريقية لم تكن تعانى عجزا خاصا ولا بلادة مزمنة ، ولكن الظروف المناخية والطبيعية كانت السبب فى النشاط المتدنى لانتاج الافريقى ، وأعباء المجهود اللازم للزراعة فى المناطق الاستوائية أعباء قاسية يلزم نصف اليوم ليسترد المزارع عافيته ، هذا فضلا عن الأمراض وسوء التغذية • ففى الفترة الحرجة التى تسبق الحصاد مثلا يكون هناك نقص فى الغذاء وحاجة أكبر فى المجهود لجمع المحاصيل ، لذلك كان الافريقى يعمل بأقل طاقة ، وليس هذا تفضيلا له لأن التفضيل يعنى الاختيار ، والاختيار مفتقد له ، فهذا الافريقى « الكسول » يكون اما واهن البدن، أو ليست لديه سوق لقوة العمل أو كليهما •

ان الصورة النمطية لقاطن المناطق الاستوائية القانع الذى يجمع ثمرة ليأكلها ، ثم يركن الى سبات مزمن الى أن يوقظه مكتشف أجنبى أو مبشر رحالة هى صورة لا أساس لها ، وينبغى أن تختفى من الكتابات ومن شاشات التلفزيون ، ذلك ان جمع الحبـــوب والجذور والفاكهة البرية لم يكن فى العادة أكثر من تكملة عرضية للزراعة وأنظمة الفلاحة التى كانت قائمة تمارس فى أفريقيا الغربية ، وهى للعلم سبعة أنظمة : الزراعة المتنقلة ، أرض الأدغال المراحة دوريا ، الأرض المزروعة التى تراوح دوريا ، الزراعة المختلطة ، الفلاحة المستديمة ، فلاحة الأشجار ، زراعة الأرض بالغمر أو الرى • وكانت هذه الأنظمة السبعة كلها مستخدمة فى القرن السادس عشر ، ومن المؤكد انها كانت موجودة قبل ذلك بوقت طويل •

كما قد يدهش غير المتخصص عندنا يعلم أن أفريقيا الغربية فى حقبة ما قبل الاستعمار كانت فيها صناعات تماثل الى حد كبير ما كان يوجد فى مجتمعات ما قبل الصناعة فى أجزاء العالم الأخرى ، فالقطن مثلا وجد فى أفريقيا الغربية منذ أمد بعيد ، وكان يجرى تصنيعه فى وقت مبكر جدا ، وزاد التوسع فى صناعته مع انتشار الاسلام ابتداء من القرن الثامن ، ذلك ان تأثير الاســـلام أدى الى اتصال أفريقيا باسواق العالمين العربى والأوربى • وبحلول القرن الثانى عشر كانت الملابس القطنية المصنوعة فى السودان الغربى قد أصبحت معروفة فى أوربا •

كان الافريقى يعيش فى توافق مع ظروفه ، وعندما وطأ الأوربيون أرض أفريقيا مزقوا حالة التناغم والتوافق التى كان يحياها الأفريقى ، فالتماسك القائم على القيم المشتركة حلت محله وحدة مصطنعة تدعمها قوة غاشمة واســتغلال خال من الرحمة أوقع أهلها فى درك من الفقر لم يعرفوه فى ماضيهم ، « وزاد الطين بلة » تجارة الرق التى دمرت القوة البشرية وعطلت نمو السكان والتنمية •

هذا الكلام تمهيد لعرض الكتاب القيم « التاريخ الاقتصادى لأفريقيا الغربية » للاقتصادى الشهير أ• ج• هوبكنز المعروف بتونى هوبكنز ، والذى ترجمه بدقة واستبصار الأستاذ أحمد فؤاد بلبع ، وهو أحد مطبوعات المشروع القومى للترجمة اصدار المجلس الأعلى للثقافة •

الكتاب يزيد عن صفحاته على ٦٥٠ صفحة من القطع الكبير ، وهو يعد دراسة شاملة تتناول التاريخ الاقتصادى للمنطقة الضخمة التى نعرف تقليديا بأفريقيا الغربية ومساحتها لا تقل عن مساحة أوربا (فيما عدا روسيا) • والكتاب يطرق أبوابا وعرة فى ميادين التـــاريخ والجغرافيا

والانثروبولوجيا • ويفند معتقدات تقليدية كثيرة حول التخلف الاقتصادى، ويقدم مجموعة بديلة من التفسـيرات التى تأخذ فى الاعتبـار أحدث الدراسات فى ميادين التاريخ والاقتصاد والانثروبولوجيا ، ويسد فجوة فى الدراسات الافريقية المتعلقة بالسمات المميزة للمجتمعات «التقليدية» ، وطبيعة أنظمة التبادل فى عصر ما قبل الثورة الصناعية واقتصـاديات الاستعمار ونشـأة القومية ، كما يلقى ضوءا جديدا على فهمنا للعالم المتخلف ، ويضيف بعدا جديدا للدراسات الافريقية وعمقا جديدا للتاريخ الاقتصادى • وأزاح الستار عن فترة كانت شبه معتمة فى التاريخ المبكر لمنطقة غرب أفريقيا ، وأثبت ان اقتصـادها قبل الاستعمار كان يتميز بالكفاءة وأن عمليات التبادل فيما بينها كانت متكاملة ، وكانت لديها سلع أساسية تصدر غير تجارة الرقيق التى دمغت بها ، وحلل خصائص هذا الاقتصاد التصديرى ونحو صادراتها خلال الثلث الأول من هذا القرن ١٩٠٠ ــ ١٩٣٠ وما تطور اليه خلال الثلث الثانى من ١٩٣٠ ــ ١٩٦٠ •

الكتاب يتضمن سبعة فصول ، يلقى الفصل الأول نظرة الى الماضى الاقتصادى لأفريقيا ، ويتناول الفصل الثانى الاقتصاد المحلى فى فترة ما قبل الاستعمار ، ويفند الأساطير التى ترددت حول السمات المميزة للمجتمعات التقليدية ، ويبرهن على ان التبادل التجارى كان قائما بينها ، ويوضح قوى السـوق المتحكمة والقيود الداخلية على نموه • ويبحث الفصل الثالث العلاقات التجارية الخارجية فى الفترة السابقة على الثورة الصناعية فى أوربا وأسباب اخفاق تجارة الصـحراء الكبرى والمحيط الأطلسى فى التغلب على الحواجز القائمة أمام نمو السوق • ويشير الفصل الرابع الى تطور الروابط بين التجارة الخارجية والاقتصاد المحلى نتيجة لتوسع التجارة المشروعة فى القرن ١٩ ، هذا التطور الذى يعد بداية التاريخ الاقتصادى الحديث لأفريقيا الغربية • ويلقى الفصل الخامس نظرة على فترة الاستعمار ويحلل القسـمات الهيكلية للاستعمار مستخدما مفهوم الاقتصادات المفتوحة والاقتصادات المغلقة • ويتضمن الفصل السـادس تقييما لاسهام الأجانب والأفارقة فى اكتمال الاقتصادات المفتوحة خلال الحقبة الاستعمارية ويبين ان الاقتصـاد المفتوح اتخذ طابعا رسميا فى القرن ١٩ قبل تقسيم القارة ، وان نمو الصادرات نشأ على الاقتصادات المفتوحة فى النصف الثانى من الحقبة الاستعمارية (١٩٣٠ ــ ١٩٦٠) وبدايات التصنيع مستندا الى تحليل التطورات فى قطاع التصدير وفى الاقتصاد المحلى • ويعرض الفصل السابع التوتر والضغوط على الاقتصاد المفتوح وتفسير النشأة القومية فى أفريقيا •

الكتاب عميق شـديد التخصص غزير المعلومات لم يترك كبيرة ولا صغيرة الا ذكرها وشرح أسبابها والنظريات المتباينة حولها ، ومن هنا

تأتي صعوبة عرضه دون الاضرار به ، لذلك فقد اجتزأت موضوعا واحدا فقط ـ من بين موضوعاته العديدة التى تعرض لها باسهاب ـ وهو تجارة الرقيق وأثرها السلبى فى آفريقيا الغربية منطقة البحث لأبين كيف يعالج الكتاب موضوعاته ·

ظهـــور الـــــرق :

عرفت أفريقيا نظام الرق فى حقبة ما قبل الاستعمار ونشأة التجارة عبر المحيط الأطلسى ، حيث كانت الممالك الكبيرة مثـــل مالى والسنغى والأشانتى وداهومى يشترون الرقيق أو يأسرونهم ، الأقوياء منهم كانوا يشغلون مناصب مدنية وعسكرية رفيعة ، وكثيرا ما كان هؤلاء يمتلكون هم أنفسهم رقيقا خاصا بهم ، وكان بعضهم يشتغل فى أعمال تحتاج الى مهارة مثل الصناعات الحرفية ، غير ان الأغلبية كانوا يؤدون أعمالا يدوية مرهقة وخطيرة أحيانا ، يســـتخدمون خدما للمنازل وحمالين ويفلحون الواحات ويقطعون الملح الصـــخرى من الصحراء ويعملون فى بناء المدن وتشييد الطرق وتطهير الممرات ، كما كانوا يجندون للصفوف الأولى فى الجيوش ، ويوجدون فى جميع أنواع العمل الزراعى ، وكان وجود الرقيق فى الزراعة لا غنى عنه ، فوادى « تامورت » الخصيب فى موريتانيا مثلا كان سلة الغلال لبدو الصحراء الكبرى منذ القرن الرابع عشر استعبد فيه الفلاحون الزنوج لأول مرة ·

كان استخدام الرقيق بدلا من العامل الأجير مسألة اختيار مدروس من جانب أصحاب العمل ، فقد كانوا يفضلون الرقيق لأن تكاليف توفيرهم واعالتهم أقل من تكلفة استئجار العمال ، وكان التنوع فى طبيعة الرق انعكاسا للظروف السائدة للعرض والطلب ، فعندما تندر الأيدى العاملة يزداد التكالب على الرق ، وعندما تتوافر تقل تجارة الرق · وان كان لدى أصحاب الرقيق دائما حافز قوى للاحتفاظ على الأقل بنسبة من رقيقهم وتشجيع من لديهم من رقيق على التوالد ·

وفضــــلا عن ذلك كان الرقيق فى أفريقيا الغربية يؤدون وظيفة سياسية مهمة ، فالأفارقة كانوا يقيسون الثروة والسلطة بعدد ما لديهم من رجال · وكانت الثروة تتحقق عن طريق عمل الرقيق · وفى القرن الحادى عشر كان يوجد فى مدينة أودغست على الحد الفاصل بين الصحراء الكبرى والسافانا تجار يملك الواحد منهم أكثر من ألف من الرقيق ، وفى القرون التالية كان يوجد من يمتلك اعدادا من الرقيق أكثر من ذلك · كما كان الرقيق أحيانا يثورون على سادتهم ، وأولى الثورات المعروفة للرقيق فى

أفريقيا الغربية عام ١٥٩١ عندما ثار رقيق السلطان السنغى على الجيش المراكشى بعد أن أوقع الهزيمة بمالكهم وقواته •

تجارة الرقيق عبر الصحراء الكبرى

لم تكن أفريقيا معروفة جيدا للعالم الخارجى فى العصر الوسيط ، وكانت مصدر المعلومات عن داخلها تأتى من زيارات بعض الرحالة أمثال ابن بطوطة وماركو بولو فى المناطق الاستوائيـــة • غير ان القول بأن القارة كانت معزولة عن الاتصالات الخارجية هو افتراض غير دقيق ، فقد كانت لأفريقيا الغربية صلات تجارية خارجية وطيدة الأركان وعالية التنظيم عبر الصحراء الكبرى ، وهذه الطرق وان كانت بطيئة ومحفوفة بالمخاطر فانها كانت تربط أفريقيا الغربية بالاقتصاد الدولى من قرون عديدة • لقد مارست أفريقيا الغربية تجارة خارجية واسعة عبر الصحراء الكبرى كان الذهب والرقيق عمادها •

وفيما يتعلق بتجـــارة الرقيق ينبغى ملاحظة ان الرقيق كان يتم تصديرهم من أفريقيا الغربية قبل وقت طويل من نشأة التجارة الدولية عبر المحيط الأطلسى فى أواخر القرن ١٥ ، واستمرت هذه التجارة متجهة شمالا حتى أواخر القرن ١٩ ، وان لم تكن أبدا فى أهمية التجارة عبر المحيط الأطلسى ، فالصحراء الكبرى لم تكن حاجزا يعزل أفريقيا الغربية عن بقية العالم ، بل على النقيض فقد نجح التجار الأفارقة وغيرهم من التجار فى خلق تجارة برية جديرة بأن تصنف ضمن أشـــهر المغامرات التجارية فى العصر الوسيط •• كان عبور الصحراء خطرا للغاية ، وكان على المسافر أن يهيء نفسه لهجمات قطاع الطرق المســلحين ومجابهة العواصف الرملية ونقص المياه والتغيرات الحادة فى درجات الحرارة بين النهار والليل ، واذا لم يختنق أو يصب بالجفاف أو تتجمد أطرافه أو يتخل عنه زملاؤه فانه يمكن أن يضل طريقه مع ما يترتب على ذلك من نتائج مميتـــة •

على أنه يلزم التنويه فى هذا المجال الى أن ادانة العرب واتهامهم وحدهم بممارسة هذه التجارة سيئة السمعة بها كثير من التجنى ، ومنشأ هذا الادعاء هو أن كتاب مرحلة ما قبل الاستعمار كانوا يعتبرون ان كل المسلمين عرب ، فالتجار العرب وفقا لتعريفهم يضم كل المسلمين بمن فيهم البربر واليهود والزنوج الذين كان لهم دور رئيسى فى هذه التجارة • كما أن التجار الأوربيين أيضا كانت لديهم مستودعات كبيرة للرقيق فى

مدن شمال أفريقيا على غرار الموانىء فى أجزاء العالم الأخرى ، ولهم أحياء سكنية خاصة بالأجانب تضمن أمنهم وتمنحهم امتيازات خاصة ، وكانت الشركات الأجنبية تنتشر فى شمال أفريقيا والسودان الغربى قبل مجيئها الى الساحل الغربى الافريقى بفترة طويلة .

تجارة الرقيق عبر المحيط الأطلسى

ربما تكون تجارة الرق عبر المحيط الأطلسى – التى توصف بأضخم الهجرات فى التاريخ – الموضوع الذى نال أكبر قدر من النقاش فى التاريخ الاقتصادى لأفريقيا الغربية . كانت الدول المتنافسة فى هذه التجارة هى انجلترا وفرنسا وهولندا والبرتغال . كان الأوربيون يشترون الرقيق منذ بداية اتصالهم بالساحل الغربى من القرن الخامس عشر . وفى القرن ١٦ استخدم البرتغاليون أعدادا قليلة منهم فى مزارع السكر فى الجزر الغربية من ساحل أفريقيا الغربية . كما تم تصدير اعدادا أخرى الى أمريكا الجنوبية . غير ان الطلب عليهم لم يكن كبيرا ، ولم يبدأ النشاط السريع فى تجارة الرقيق عبر الأطلسى الا فى منتصف القرن السابع عشر نتيجة لنشأة مزارع السكر فى جزر الهند الغربية ومنطقة الكاريبى حيث كانت الأيدى العاملة الرخيصة المستعبدة هى المفضلة ، فالعمال الزنوج – الى جانب ان ثمنهم كان رخيصا والحصول عليهم يسيرا – كان معدل بقاءهم أعلى من غيرهم ، وهذه الميزة نتيجة لحصانتهم عن غيرهم من الجنسيات الأخرى ضد الأمراض كالحمى الصفراء والملاريا .

وظلت السفن ترسو على الساحل الغربى تنزل منها القوارب تحمل الأوربيين المسلحين الذين يقوومون بتقييد الأسرى من الأهالى بالسلاسل حتى يتم ترحيلهم الى أوربا وأمريكا وبيعهم كعبيد .

كانت البرتغال هى الدولة الأجنبية الرئيسية فى أفريقيا الغربيه التى تمارس هذه التجارة فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، ثم أصبحت للوجود الهولندى دلالته فى القرن السابع عشر ، أما انجلترا وفرنسا فكانت لهما الهيمنة فى القرن ١٨ ، وبلغ مجموع عدد الرقيق الذين تداولهم هذه الدول خلال ذروة التجارة عبر الأطلس من سنة ١٧٠١ الى ١٨١٠ حوالى ٣٢٣٣٨٠٠ ، انجلترا ٢٠٠٩٧٠٠ ، فرنسا ٦١٣١٠٠ ، البرتغال ٦١١٠٠٠ .

وكان أهم ميناءين أوربيين لتجارة الرق هما ليفربول فى انجلترا ونانت فى فرنسا ، كان ليفربول الميناء الرئيسى لتجارة الرق فى أوربا ،

وكانت سفن ليفربول تنقل أكثر من نصف صادرات الرقيق الذين تحملهم السفن البريطانية من أفريقيا • وفي العقد الأخير من القرن ١٨ كان تجار ليفربول ينقلون سنويا ما بين ٢٥ ألفا و٥٠ ألفه رقيق عبر الأطلس • أما ميناء نانت الفرنسى فكان أهم الموانىء الفرنسية الأربعة لتجارة الرق، كان يستقبل وحده سنويا قرابة عشرة آلاف أسير أفريقى •

ومنطقة التصدير الأساسية كانت شريطا قصيرا يمتد من ساحل الذهب (غانا) الى الكاميرون • وهذا الشريط الصغير هو المسئول عن تصدير ٨٢٪ من جميع الرقيق الذين تم شحنهم من أفريقيا الغربية • وكانت منطقة الكاريبى وأمريكا اللاتينية تستأثران بحوالى ٩١٪ من جميع الرقيق الذين شحنوا عبر الأطلسى • وكانت الدول المستوردة هى البرازيل وهاييتى وجاميكا وكوبا ، أما أمريكا الشمالية فلم تتسلم الا ٧٪ وفرق العدد تفسره الخسائر فى الطريق •

لا يعرف الكثير عن الأصول الجغرافية والاجتماعية للرقيق الذين شحنوا من أفريقيا ، وكانت هناك طرق متعددة للحصول عليهم من بينها شن الغارات والحروب وجمع الاتاوات والاختطاف والشراء والتخلص من المجرمين سواء كانوا مجرمين حقيقيين أو مدعى عليهم • ويبدو أن معظم الرقيق كانوا يجمعون من خلال الغارات ، وكانت عمليتا اقتناص الرقيق والاتجار فيهم تتطلبان كثيرا من الأيدى العاملة ورأس المال لدفع ثمن المعدات وأجور الوكلاء والمرشدين وسداد الرسوم والاحتفاظ بالمحتجزين والأسرى ، لذلك فان تجارة الرق كانت مهنة الملوك والأغنياء وكبار التجار •

عندما كان يجمع عدد كاف من الرقيق كانوا يساقون الى المستودعات الساحلية ثم يباعون للتجار الذين يحتفظون بهم الى حين شحنهم • وفيما بين السنغال وساحل الذهب كان يجرى البيع والشراء • كانت السفن ترسو فى أماكن يسهل الوصول منها الى الشاطىء حيث يتم تزويد السفن بالمؤن اللازمة للرحلات الطويلة عبر الأطلسى ، ويتم التبادل بين جامعى الرقيق وأصحاب السفن والوسطاء ، وكانت العلاقة بين الأوروبى والأفريقى عند نقطة التقائهما على أرض أفريقيا الغربية علاقة شريكين تجاريين ، وكانت المستودعات الساحلية تشرف أيضا على تخزين وتوزيع السلع التى يجرى تسليمها فى المقابل وأهمها الأقمشة والبنادق والذخيرة • وكانت كثرة الطلب على الذخيرة ترجع الى دورها كمدخلات فى انتاج الرقيق ، ومن ناحية أخرى الى ضرورة اتخاذ اجراءات دفاعية كافية ضد غارات صيد الرقيق ••

الغاء التجارة الخارجية للرقيق

في عام ١٨٠٧ حظرت انجلترا على رعاياها البريطانيين الاشتغال بتجارة الرقيق ، وفي عام ١٨٣٣ الغيت مؤسسة الرق في جميع ممتلكات بريطانيا • وعلى الرغم من ذلك فقد نقلت بعد عام ١٨٠٧ أعداد كبيرة منهم عبر المحيط الأطلسي • وهذه المفارقة نتيجة لظهور مراكز جديدة للطلب لاسيما في كوبا والبرازيل من أجل مزارع السكر والبن وعلى نطاق أصغر في الولايات الشمالية من أجل زراعة القطن •

وفشل الحظر أيضا لصعوبة تنفيذ القوانين الجديدة من غير التعاون من جانب الدول المعنية الأخرى •

الا انه خلال النصف الثاني من القرن ١٩ وقعت أحداث ثلاث كانت لها دلالتها البالغة في مناهضة تجارة الرق • أولها التدهور السريع في سوق الرق في البرازيل ابتداء من العقد السادس ، وثانيها الغاء تجارة الرق في كوبا في العقد السابع ، وثالثها قرار الرئيس الأمريكي لينكولن عام ١٨٦٢ بالتعاون مع بريطانيا في قضية تحريم الرق • وتلك الخطوة من الرئيس الأمريكي أملتها الرغبة في حرمان الولايات الجنوبية من عمل الرقيق • وكان من التدابير التي اتخذتها الدولتان بريطانيا وأمريكا نشر أسطول حربي في مياه ساحل أفريقيا الغربية لوقف هذه التجارة عند منبعها ، ورغم ان هذا الأسطول لم يحرر سوى ٨٪ فقط من العدد الكلي للرقيق الذين شحنوا في الفترة التي تلت قرار الالغاء ، فان وجوده كان له أثر رادع فيما بعد •

واذا كان عام ١٨٠٧ يرمز الى نهاية عصر هذه التجارة البشعة فان نهايتها الفعلية استغرقت وقتا طويلا لوضع حد لها عبر الأطلسي ، وان لم تنخفض تجارة الرق عبر الصحراء الكبرى الى نسبة ضئيلة الا في ختام القرن التاسع عشر •

بواعث تحريم الرق

أما لماذا كان السبق لبريطانيا ــ أكثر الدول ممارسة لتجارة الرق ــ في ادانة وتحريم هذه التجارة عبر المحيط الأطلسي ، فالباعث يعود في المقام الأول لأسباب اقتصادية ، فعندما أخذت الرأسمالية

الصناعية في القرن ١٩ تحل محل الرأسمالية التجارية التي ميزت القرن ١٨ ، أصبح من الضرورى تدمير وتفكيك النظام التجارى القديم واقامة نظام جديد يرتكز على التجارة الحرة والكفاءة الاقتصادية ، يضاف الى ذلك أنه بعد منتصف القرن ١٨ دخلت الجزر البريطانية فى فترة طويلة من الانحدار تميزت بانخفاض الأرباح وثورات الرقيق ، وبالمنافسة من جانب مناطق انتاج أحدث عهدا وأكثر ثراء مثل كوبا والبرازيل وسانتو دومنجو ، كذلك تدهورت جزر الهند الغربية البريطانية كسوق للسلع البريطانية ، وبحلول نهاية القرن كانت أمريكا اللاتينية قد أصبحت أكثر أهمية ٠

وواجه رجال المال البريطانيون صعوبة فى الدفاع عن مصالحهم ووجدوا فى منع تجارة الرقيق اضرارا بأمريكا المنافسة ، الى جانب أن رأس المال أخذ ينتقل الى ميادين أخرى كالصناعة والى فروع من التجارة أكثر أهمية من تجارة الرق ، فمثلا أصبحت ربحية تجارة القطن تضاهى ربحية تجارة الرق ٠

وبالنسبة لفرنسا فقد كان العامل الحاسم فى الغاء الرق هو ثورة الرقيق الكبرى التى وقعت فى سانتو دومنجو أهم جزر الكاريبى عام ١٧٩٢ ، وترتب عليها اضطراب فى انتاج تلك الجزيرة وتدهور سريع فى تجارة الرقيق الفرنسية ، وفى محاولة يائسة لقمع الثورة وتهدئة للأوضاع ألغت فرنسا الرق فى ممتلكاتها الاستعمارية وذلك بعد اندلاع الثورة بعامين ٠

وقد حاول نابليون ارجاع تجارة الرق وأعاد مؤسسة الرق فى عام ١٨٠٢ ، الا أن الحروب النابوليونية أدت الى اتفاقم الخلل فى التجارة الفرنسية عبر الأطلسى مما أضعفها فعليا ٠ وفى عام ١٨١٥ وافقت الملكية العائدة ــ تحت ضغط بريطانيا ــ على منع الرعايا الفرنسيين من الاتجار فى الرق ، ورغم ذلك فقد ظلت هذه التجارة تمارس سرًيا حتى نهاية العقد الثالث من القرن ١٩ ، ولم تلغ الا فى عام ١٨٤٨ وكان الالغاء هذه المرة فى جميع الممتلكات الاستعمارية الفرنسية ٠

وهناك عامل آخر أسهم فى الغاء تجارة الرق عامة وهو ان تكلفة الرقيق زادت فى أواخر القرن ١٨ ، وأدت ببعض أصحاب المزارع الى تشجيع رقيقهم على التناسل والاكتفاء الذاتى بهم ٠

ان الأثر الايجابى الوحيد لتجارة الرق عبر المحيط كان على العالم الجديـد ، فهذه القوة البشرية الكبيرة التى اقترنت هجرتها بالاكراه والقهر هى التى استوطنت وعمرت الأرض الوفيرة فى الأمريكتين وجزر الهند الغربية وقامت بعبء تنمية مواردها وجعلتها أغنى مناطق العالم وأقواها دون أن يكتسب الرقيق أية حقوق ٠

أما بالنسبة لأفريقيا فكانت كارثة اقتصادية ، اذ فقدت القـارة شريحة كبيرة من قوتها وثروتها البشريـة ، وأحدثت حملات اقتنـاص الرقيق دمارا واسـع النطـاق ، وزادت من عدد الحروب والتمزق والاضـطراب فى مجتمعاتها وأفقدت الحيـاة أمنها ، وكانت الخسائر المباشرة والأشد قسوة هى المعاناة الشخصية التى كابدها الملايين من أبناء أفريقيا الغربية الذين شحنوا قسرا وكرها عبر المحيط ، وهؤلاء الذين قتلوا أو أصيبوا فى غمار عمليات جمع الرقيق ٠ وعندما بدأ الاقتصاد يتوسـع بسرعة فى أوائل القرن العشرين كان يوجد نقص خطير فى الأيدى العاملة فى أجزاء كثيرة من أفريقيا الغربية ٠ ويمكن القول ان سرعة التقدم كان يمكن أن تكون أكبر لو أن تجارة الرقيق لم تعطل نمو السكان ٠

هذا موجز شديد الاختزال لفصل الرق الذى شغل وحده أكثر من ٢٠٠ صفحة من هذا الكتاب القيم « التاريخ الاقتصادى لافريقيـا الغربية » فهناك الكثير والكثير جدا من التفصيلات المهمة للغاية والتى لم أشر اليها والتى يصعب تلخيصها ٠

وهذا العمل الجاد يعد مرجعا مهما لا غنى عنه للباحثين والمتخصصين والمهتمين بالشئون الأفريقية ، الذى أثبت بالبراهين أن اقتصاد أفريقيا قبل الاستعمار كان يتميز بالتشعب والكفاءة والقدرة على التكيف قبل وقت طويل من وصول تأثير العالم الغربى الى افريقيـا ، وأن مهارات الأفارقة وقدراتهم ربما كانت أعظم ما تمتلكه القارة من أصول ٠٠ وذلك درس يستطيع الحاضر أن يتعلمه من الماضى ٠

الفهـــرس

الموضـــوع	الصفحة

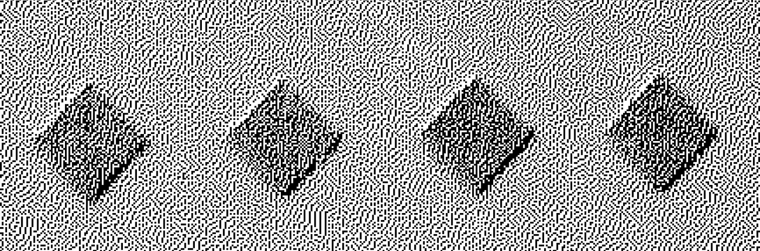
الموضـــوع	الصفحة
الروائى الصومالى نور الدين فرح ٠٠البساطة المركبة ٠ ٠	١١٧
نادين جورديمر الفائزة بجـائزة نوبل ٠ ٠ ٠ ٠	١٢٢
الأب عيروط القس الذى أحب الفلاحين ٠ ٠ ٠ ٠	١٢٥
رهبان العلم (الأب قنواتى والأب جومييه) ٠ ٠ ٠	١٣٠
الجزء الثالث : ملف مانديلا ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠	١٣٥
نلسون مانديلا ٠٠ سجين الحرية ٠ ٠ ٠ ٠ ٠	١٣٧
وينى ومانديلا أسطورة القرن العشرين ٠٠ ٠ ٠ ٠ ٠	١٤٦
جراسا ماشيل ٠٠ زهرة موزمبيق ٠ ٠٠ ٠ ٠ ٠	١٤٧
الخاتمـــة : القارة البائســة ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠	١٥٣

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٣٩٦٧/٢٠٠٠

ISBN — 977 — 01 — 6908 — 0





هذا هو العام السابع من عمر «مكتبة الأسرة» .. ومنذ سنوات طوال لم يلتف الناس حول مشروع ثقافى كبير كما التفوا حول هذا المشروع الثقافى الضخم حتى أصبح مشروعهم الخاص، وطالبوا باستمراره طوال العام. واستجبنا لهذا المطلب الجماهيرى العزيز إيمانًا منا بأهمية الكتاب؛ وبالكلمة الجادة العميقة التى يحتويها؛ فى إعادة صياغة وتشكيل وجدان الأمة واستعادة دورها الحضارى العظيم عبر السنين.

لقد استطاعت «مكتبة الأسرة» .. أن تعيد الروح إلى الكتاب مصدرًا هامًا وخالدًا للثقافة فى زمن الإبهارات التكنولوچية المعاصرة.. وها نحن نحتفل ببدء العام السابع من عُمر هذه المكتبة التى أصدرت (١٧٠٠) عنوانًا فى أكثر من «٣٠ مليون نسخة» تحتضنها الأسرة المصرية فى عيونها وعقولها زادًا وتراثًا لايبلى من أجل حياة أفضل لهذه الأمة.. ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة فى كل بيت.

سوزان مبارك





١٥٠ قرش